الشهيد الصدر

سمو الذات وسمو الموقف

ترجمة حياة

مفجر الثورة الإسلامية في العراق

الإمام الشهيد سماحة آية الله العظمى السيد محمد باقر الصدر (قدس سره)

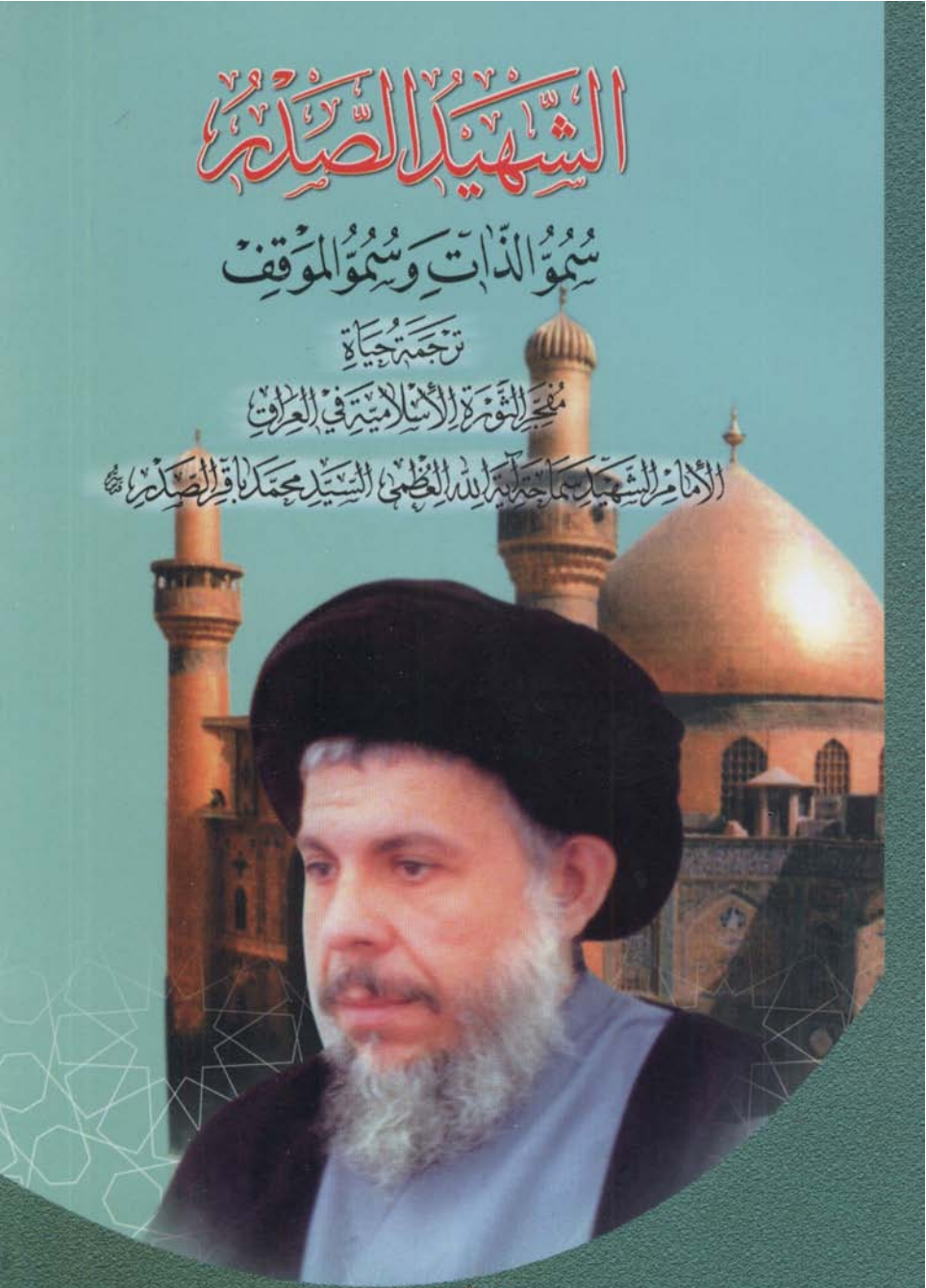

تأليف

سماحة آية الله العظمى السيد كاظم الحسيني الحائري (دام ظله)

الشهيد الصدر
سموّ الذات و سموّ الموقف

ترجمة حياة
مفجّر الثورة الإسلاميّة في العراق
الإمام الشهيد سماحة آية الله العظمىٰ
السيّد محمّدباقر الصدر قدس سره

تأليف
سماحة آية الله العظمىٰ السيّد كاظم الحسينيّ الحائريّ دام ظلّه

قم المقدّسة ـ شارع ارم ـ بناية (ناشران) ـ دارالبشير ـ الهاتف : ٧٨٣٠٢٩٠

اسم الكتاب : ..... الشهيد الصدر سموّ الذات و سموّ الموقف
ترجمة حياة الإمام الشهيد سماحة آية الله العظمىٰ السيّد محمّدباقر الصدر قدس سره
المؤلّف : .... سماحة آية الله العظمىٰ السيّد كاظم الحسينيّ الحائريّ دام ظلّه
الناشر : ..... دار البشير
الطبعة و تأريخ الطبع : ..... الثانيه / ١٤٢٩ هق
المطبعة :..... خاتم الانبياء
الكميّة :..... ٥٠٠٠ نسخة
الشابک :..... ٠ ـ ١٤ ـ٨٣٧٣ ـ٩٦٤

إصدار مكتب سماحة آية الله العظمىٰ السيّد الحائريّ دام ظلّه
حقوق الطبع محفوظة للمؤلّف

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة المكتب

بسم الله الرحمن الرحيم

عندما نقف علىٰ أعتاب شخصيّة فذّة كالشهيد السعيد سماحة آية الله العظمىٰ الإمام السيّد محمّدباقر الصدرﷺ تزدحم المشاعر وتتسابق الكلمات بكلّ ما فيها من زخم للتعبير عن معاني العظمة فيه ووصف ما قدّم من عطاء ثرّ.

إنّنا نجد أنفسنا أمام ظاهرة بعيدة المدىٰ في آفاق فكريّة وحضاريّة، ولسنا أمام فرد ولد في يوم معيّن وارتحل في يوم آخر، بل نواجه منظومة مشاريع كبيرة تجاوزت الحدود الزمانيّة والمكانيّة، وارتبطت طرّاً بغايةٍ مقدّسة وهي خدمة الرسالة الحنيفة، فلم تأت إنجازاته الفكريّة والعلميّة كنتيجة طبيعيّة لما حباه الله من نبوغ وتفوّق عقليّ وروحيّ فحسب، بل كانت فعلاً مقصوداً له أملاه الواقع الرساليّ واقتضاءاته حتّىٰ أنّه اختار لنفسه العاقبة التي أراد، وودّع الدنيا كما شاء، فلم يتحرّك بصدفة ولم يسكن بصدفة.

والواقع أنّ كلّ الإنجازات العلميّة والفكريّة للشهيد الصدرﷺ هي معلولة للعمق المعرفيّ التخصّصيّ الذي توفّر عليه، فهو الحقل الأوّل

الذي نمت وسطه بنيتُه العلميّة، واستحكمت فيه خلفيّته الاجتهاديّة، فَفَقِهَ علومَ الشريعة وأباحتْه سرَّها، فطلق بفكره الثاقب بحر الاستنباط، وانبجست له عين المعرفة، فنهل منها علاّ، وطفق يُفيض من عذبها علىٰ روّاد العلم وطلاّبه، فكان صدر الشريعة ومليكها.

إنّه رجل المشاريع الكبرىٰ راح ينظّمها عقداً فعقداً حتّىٰ إذا قرّت عينه بما أنجز، شرع برسم مشروعه الأخير، وهو المشروع الجهاديّ والاستشهاديّ، إنّه خطّط لرحيله وصاغ منه منهجاً للثائرين، فأقدم علىٰ الشهادة في زمن قلّ فيه الناصر، وتحدّىٰ جلاّد العراق وعصابته المتوحّشة غير آبهٍ بطغيانهم وغطرستهم فدخل الخلود من أوسع أبوابه، فكان رائداً للفكر، ومؤسّساً ومنظّراً، وقائداً جديراً محنّكاً، وبطلاً جسوراً، وشهيداً وشاهداً.

فليس بدعاً أن يتلهّف أبناء الأُمّة إلىٰ معرفة هذه الشخصيّة، كيف عاشت للرسالة وكيف أعطت للأُمّة.

ولقد كُتبت دراسات عديدة في ترجمته﵀ بيد أنّ الذي ميّز هذه الدراسة عن غيرها كونها بقلم أحد أكبر تلامذة السيّد الشهيد علماً وأقربهم منزلة لديه، ألا وهو سماحة آية الله العظمىٰ السيّد كاظم الحسينيّ الحائري دام ظلّه الوارف ممّا يضفي علىٰ هذه الترجمة قيمة مهمّة من حيث الدقّة والاستيعاب، والأمانة والموضوعيّة، فسجّل ما رأىٰ وبيّن ما وعىٰ، وباعتبار مواكبته للأحداث التي حفلت بها المرحلة التي عاشها السيّد الشهيد﵀ وما اكتنفتها من ملابسات، هي بحقّ أوثق مصدر في ترجمة السيّد الشهيد الصدر﵀.

هذا، وقد جاءت هذه الترجمة في ضمن الكتاب الأُصوليّ القيّم الموسوم بـ«مباحث الأُصول»، ولمّا كان هذا الكتاب قد وضع لأُولي العلم والاختصاص ولم يطبع داخل العراق إبّان حكومة البعث البغيض لم يتسنّ لكثير من القرّاء والمثقّفين من أبناء الأُمّة الإسلاميّة الاطّلاع عليها، فحرموا من معرفة هذه الشخصيّة الفذّة وسيرتها العطرة، ولذا تلقّينا طلبات متكرّرة تقترح علينا طباعة ترجمة حياة الشهيد السعيد الإمام السيّد محمّدباقر الصدر﵀ مستقلّة عن الكتاب الأُصوليّ المذكور آنفاً، ومن أجل ذلك ارتأىٰ مكتب سماحة آية الله العظمىٰ السيّد الحائريّ دام ظلّه أن يعيد طباعتها تحت عنوان: (الشهيد الصدر سموّ الذات وسموّ الموقف) عسىٰ أن تكون مصدر إشعاع ومنبع إلهام للسائرين في طريق الله.

ولا يفوتنا أن نقدّم وابل شكرنا إلىٰ كلّ من ساهم في إعداد وتنظيم وتحقيق هذا الإصدار، سيّما الأُستاذ ماجد حمد الطائي حفظه الله.

بسم الله الرحمن الرحيم

الْحَمْدُ لِلّٰهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ وَصَلَّى اللّٰهُ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَآلِهِ الطَّيِّبِينَ الطاهِرِين.

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُون ﴾ صدق الله العليّ العظيم.

أرىٰ لزاماً لي في مقدّمة هذا الكتاب الذي هو تقرير لبحث الأُصول لأُستاذنا الشهيد آية الله العظمىٰ السيّد محمّدباقر الصدر ـ رضوان الله عليه ـ أن أكتب ترجمة متواضعة عن حياة هذا الشهيد العظيم الذي أنار درب العلم للعلماء، ودرب الشهادة للشهداء، وشقّ السبيل أمام العاملين للإسلام. فبأبي هو وأمّي ونفسي من قائد فذّ لايجارىٰ، ومرجع كبير لايضاهىٰ، وسلام عليه يوم ولد ويوم استُشهد ويوم يبعث حيّاً.

أفتتح ترجمتي لحياة أُستاذي الشهيد﵀ بحديث مختصر عن أُسرته الكريمة استللت عمدة ما فيه من رسالة بعثها إليّ المرحوم العلّامة المجاهد السيّد عبدالغنيّ الأردبيليّ﵀، وكانت هذه الرسالة مشتملة علىٰ ترجمة حياة الأُستاذ وأُسرته كتبها في النجف الأشرف

بقرب المترجم له. وهو تلميذ من تلامذة هذا الأُستاذ قد تُوفيَّ قبل استشهاد أُستاذنا، وذلك بتأريخ (٢٨ / رجب / ١٣٩٧ هـ)، وقد رثاه أُستاذنا في ضمن ما رثاه بقوله:

« ... إذا كان القدر الذي لارادّ له قد أطفأ في لحظةٍ أملي في أن أمتدّ بعد وفاتي، وأعيش في قلوب بارّة كقلبه، وفي حياة نابضة بالخير كحياته، فإنّي أتوسّل إليك يا ربّي بعد حمدك في كلّ يسر وعسر أن تتلقّاه بعظيم لطفك، وتحشره مع الصدّيقين من عبادك الصالحين وحسن أُولئك رفيقاً، وأن لاتحرمه قربي، ولاتحرمني رؤيته بعد وفاته ووفاتي بعد أن حُرِمتُ ذلك في حياته، وأرجو أن لايكون انتظاري طويلاً للاجتماع به في مستقرّ رحمتك»[1].

سبحانك ياربّ ما أسرعك في استجابة هذا الدعاء النابع من قلب مفجوع بوفاة تلميذه العزيز عليه، فألحقته به في مستقرّ رحمتك، وفجع بذلك المسلمون جميعاً بالخصوص العارفون بالله العاملون في سبيل الله، وهم لايملكون شيئاً إزاء هذه الفاجعة المؤلمة عدا أن يقولوا: «اللّهمّ تقبّل منّا هذا القربان».

---

(١) دروس في علم الأُصول، الحلقة الأُولى: .

الأُسرة الكريمة العريقة

- ١ ـ السيّد صدرالدين قدس سره .
- ٢ ـ السيّد إسماعيل الصدر قدس سره .
- ٣ ـ السيّد حيدر الصدر قدس سره .
- والدة الشهيد الصدر رحمة الله عليها .

أُسرة الشهيد الصدر معروفة بالفضل، والتقىٰ، والعلم، والعمل، ومكارم الأخلاق. وقد كانت مشعلاً للهداية والنور، ومركزاً للزعامة والمرجعيّة الدينيّة، ومداراً للإفادة والإفاضة في مختلف الأجيال. وقد انحدرت من شجرة الرسالة والسلالة العلويّة من أهل بيت أراد الله ليذهب عنهم الرجس ويطهّرهم تطهيراً. وهذه الأُسرة العريقة قد اتّخذت ألقاباً مختلفة باختلاف العصور طيلة ما يزيد علىٰ قرنين، فكانت تلقّب:

تارةً بآل أبي سبحة.

وأُخرىٰ بآل حسين القطعيّ.

وثالثةً بآل عبد الله.

ورابعةً بآل أبي الحسن.

وخامسةً بآل شرف الدين.

وأخيراً بآل الصدر.

وها نحن نشير إلىٰ عدد من الفحول العظام من سلالة هذه الشجرة الطيّبة التي أنجبت أخيراً قائداً فذّاً، ومرجعاً عبقريّاً لم ترَ عين الزمان مثله، ألا وهو شهيدنا الغالي السيّد محمّدباقر الصدر رضوان الله تعالىٰ عليه:

١ ـ السيّد صدرالدين قدس سره

السيّد صدرالدين محمّد بن السيّد صالح بن السيّد محمّد بن السيّد إبراهيم شرف‌الدين بن زين‌العابدين بن السيّد نورالدين الموسويّ العامليّ.

هو فخر من مفاخر الشيعة، وعالم فذّ من كبار علماء المسلمين، ومن نوابغ العلم والأدب قلّ من يضاهيه في الفضيلة والتقوىٰ.

ولد في قرية (معركة) من قرىٰ جبل عامل، ونشأ ونما علميّاً في النجف الأشرف، ثُمَّ هاجر إلىٰ الكاظميّة، ومنها إلىٰ إصفهان، ثُمَّ عاد إلى النجف الأشرف، وتُوفّي ودفن في النجف الأشرف.

والده رحمه الله : السيّد صالح من أكابر العلماء، كان مرجعاً للتقليد، وزعيم الطائفة الإماميّة في بلاد الشام، هاجر من جبل عامل إلىٰ النجف الأشرف فراراً من الحاكم الظالم في جبل عامل وقتئذٍ (أحمد الجزّار)، وتُوفّي في سنة (١٢١٧ هـ).

والدته رحمها الله : بنت الشيخ علي بن الشيخ محيي‌الدين من أسباط الشهيد الثاني.

ولد السيّد صدرالدين رحمه الله في (٢١ من ذي القعدة من سنة ١١٩٣ هـ) في جبل عامل، وهاجر في سنة (١١٩٧ هـ) مع والده إلىٰ العراق، وسكن النجف الأشرف، واهتمّ بتحصيل العلوم الإسلاميّة والمعارف الإلهيّة في صغر سنّه، حتّى إنّه كتب تعليقة علىٰ كتاب قطر الندىٰ وهو ابن سبع سنين، وقد قال هو: إنّي حضرت بحث الأُستاذ الوحيد

البهبهانيّ ﷺ في سنة (١٢٠٥ هـ)، وكنت أبلغ من العمر اثنتي عشرة سنة، وكان الأُستاذ معتقداً بحجّيّة مطلق الظنّ ومصرّاً على ذلك، وحضرت في نفس السنة بحث العلّامة الطباطبائيّ السيّد بحر العلوم ﷺ.

وقد قالوا: إنّ السيّد بحر العلوم ﷺ كان ينظم آنئذٍ ما أسماه بـ(الدرّة)، وكان يعرضها على السيّد صدرالدين لما لاحظه فيه من كماله في فنّ الشعر والأدب.

وقد ذكر السيّد حسن الصدر في تكملة أمل الآمل: أنّ الشيخ الشاعر جابر الكاظميّ ـ مخمّس القصيدة الهائيّة الأزريّة ـ قال: إنّ السيّد الرضيّ ﷺ أشعر شعراء قريش، والسيّد صدرالدين أشعر من السيّد الرضيّ.

بلغ السيّد صدرالدين مرتبة الاجتهاد قبل بلوغه سنّ التكليف، وقد أجاز له الاجتهاد صاحب الرياض ﷺ في سنة (١٢١٠ هـ)، وصرّح بأنّه كان مجتهداً قبل أربع سنين. وهذا يعني أنّه قد بلغ الاجتهاد في السنة الثالثة عشرة من عمره الشريف، وهذا ما لم يسمع نظيره إلّا بشأن العلّامة الحلّيّ ﷺ والفاضل الهنديّ ﷺ، على أنّه كان يفوقهما في فنّ الشعر والأدب.

وقد ذكر السيّد حسن الصدر ـ أيضاً ـ في تكملة أمل الآمل: أنّ الشيخ محمّدحسن صاحب الجواهر والشيخ حسن بن الشيخ جعفر كاشف الغطاء ـ وهما من أكابر أساتذة النجف الأشرف ـ كانا يَدِينان بالفضل للسيّد صدرالدين عند رجوعه من إصفهان إلى النجف الأشرف، وكانا يجلسان لديه جلسة التلميذ لدى أُستاذه.

دخل يوماً السيّد صدرالدين علىٰ المحقّق صاحب الجواهر﵀، فأقبل صاحب الجواهر إليه آخذاً بعضده، وأجلسه محلّه، وجلس قبالته، وتذاكرا في العلم والفقه، وانجرّ الكلام إلىٰ اختلاف الفقهاء في مسألة ما، فبيّن السيّد ببيان فائق اختلاف الآراء الفقهيّة في تلك المسألة مع اختلاف طبقاتهم من العصر الأوّل إلىٰ زمانه، وفرّع الخلاف في ذلك علىٰ اختلافهم في المباني والمسالك، وشرح تلك المباني والفروق التي بينها، فتعجّب الشيخ صاحب الجواهر من تبحّر السيّد، وقال بعد ذهاب السيّد: «ياسبحان الله! السيّد جالسَ جميع العلماء، وبحث معهم، ووقف علىٰ أذواقهم ومسالكهم. هذا والله العجب العجاب، ونحن نعدّ أنفسنا من الفقهاء. هذا الفقيه المتبحّر».

وقد رُوِي في تكملة أمل الآمل عن الشيخ الجليل عبدالعليّ النجفيّ الإصفهانيّ﵀: أنّه دخل السيّد صدرالدين في ليلة من ليالي شهر رمضان المبارك حرم الإمام أمير المؤمنين﵇، وبعد أن أنهىٰ زيارته للإمام﵇ جلس خلف الضريح المقدّس؛ لكي يقرأ دعاء أبي حمزة، وحينما قرأ الجملة الأُولىٰ: «إلهي لاتؤدّبني بعقوبتك» أخذه البكاء، وكرّر الجملة مراراً وهو يبكي إلىٰ أن غشي عليه، فحملوه من الحرم الشريف إلىٰ بيته.

وكانت للسيّد﵀ كلمات ومقاطع خاصّة لدىٰ مناجاته لله تعالىٰ، منها قوله:

رضاك رضاك لا جنّات عدن و هل عدن تطيب بلا رضاكا

تزوّج السيّد صدرالدين﵀ بنت الشيخ الأكبر صاحب كشف

الغطاء، وولدا ابناً اسمه السيّد محمّد علي المعروف بـ(آقا مجتهد)، وكان من أعلام عصره ونوادره.

وقد أُبتلي السيّد ﷺ في أواخر حياته في إصفهان باسترخاء في بدنه شبه الفالج. ورأىٰ ذات يوم في عالم الرؤيا الإمام أمير المؤمنين ﷺ قائلاً له: «أنت ضيفنا في النجف الأشرف»، وعرف بهذه الرؤيا أنّ وفاته قد اقتربت، فهاجر إلىٰ النجف الأشرف، وتُوفّي في ليلة الجمعة أوّل شهر صفر من سنة (١٢٦٤ هـ)، ودفن في حجرة في الزاوية الغربيّة من الصحن الشريف قريباً من الباب السلطانيّ رضوان الله عليه.

مؤلّفات السيّد صدرالدين ﷺ :

١ ـ أُسرة العترة: كتاب فقهيّ استدلاليّ.

٢ ـ القسطاس المستقيم في أُصول الفقه.

٣ ـ المستطرفات في فروع لم يتعرّض لها الفقهاء.

٤ ـ شرح منظومة الرضاع: وهي ما نظم بها هو ﷺ كتاب الرضاع بأُسلوب رائع، ثُمَّ شرحها، كما شرحها ـ أيضاً ـ آية الله الميرزا محمّد تقي الشيرازيّ ﷺ.

٥ ـ التعليقة علىٰ رجال أبي علي.

٦ ـ قرّة العين: كتاب في علم العربيّة كتبه لبعض أولاده، وقد ذكر تلميذه في أوّل معدن الفوائد: أنّ كتاب قرّة العين علىٰ صغره يفوق المغني لابن هشام علىٰ طوله.

٧ ـ شرح مقبولة عمر بن حنظلة.

٨ ـ رسالة في حجّيّة الظنّ.

٩ ـ رسالة في مسائل ذي الرئاستين.

١٠ ـ قوت لايموت: رسالة عِمليّة باللغة الفارسيّة.

مشايخه:

روىٰ السيّد صدرالدين ﷺ عن أكثر من أربعين عالماً نشير إلىٰ بعضهم:

١ ـ روىٰ عن والده وأُستاذه السيّد صالح، عن جدّه السيّد محمّد، عن أُستاذه الشيخ محمّد بن الحسن الحُر العامليّ بجميع طرقه المذكورة في آخر الوسائل.

وروىٰ ـ أيضاً ـ عن والده، عن الشيخ يوسف البحرانيّ صاحب الحدائق، عن المولى محمّد رفيع، عن العلّامة المجلسيّ ﷺ.

٢ ـ روىٰ عن العلّامة الطباطبائيّ بحر العلوم ﷺ المتوفّى سنة (١٢١٢ هـ)، وكان يعبّر عنه بالأُستاذ الشريف.

٣ ـ روىٰ عن العلّامة المير علي صاحب الرياض ﷺ المتوفّى سنة (١٢٣١ هـ)، وكان السيّد معجباً بصاحب الرياض، وكان يعتقد أنّه يفوق المحقّق القمّيّ صاحب القوانين ﷺ في الفقه وقوّة النظر.

٤ ـ روىٰ عن المحقّق السيّد محسن الأعرجيّ صاحب المحصول ﷺ، وكان السيّد ﷺ معجباً بزهده وتحقيقاته، تُوفّي في سنة (١٢٢٨ هـ).

٥ ـ روىٰ عن شيخ الطائفة الشيخ جعفر كاشف الغطاء رحمه الله المتوفّىٰ سنة (١٢٢٨ هـ).

٦ ـ روىٰ عن السيّد الجليل المتبحّر الميرزامهدي الشهرستانيّ الموسويّ الحائريّ رحمه الله المتوفّى سنة (١٢١٨ هـ).

٧ ـ روىٰ عن الشيخ الجليل الفقيه الشيخ سليمان معتوق العامليّ رحمه الله المتوفّى سنة (١٢٢٨ هـ).

طلّابه:

قد ربّىٰ السيّد صدرالدين رحمه الله علماء تخرّجوا علىٰ يده منهم:

١ ـ السيّد ميرزا محمّد هاشم رحمه الله، صاحب كتاب أُصول آل الرسول.

٢ ـ السيّد محمّدباقر الموسويّ رحمه الله، صاحب كتاب روضات الجنّات.

٣ ـ شيخ الفقهاء والمجتهدين الشيخ مرتضى الأنصاريّ قدس سره، صاحب كتاب المكاسب والرسائل.

٤ ـ حجّة الإسلام السيّد محمّدحسن المجدّد الشيرازيّ قدس سره.

٥ ـ الشيخ شريف العلماء رحمه الله.

٢ ـ السيّد إسماعيل الصدر قدس سره

رئيس الأُمّة، وزعيم الملّة، مربّي الفقهاء، وصدر العلماء، أُستاذ المجتهدين والمحقّقين، نائب الإمام، سيّد الأنام، حامي الشريعة،

وفخر الشيعة، حسنة دهره، وجوهرة عصره، الإمام الزاهد، الورع التقيّ، آية الله العظمىٰ، والحجّة الكبرىٰ السيّد إسماعيل الصدر الإصفهانيّ ﷺ.

سيّد جليل، وعالم كامل، وخبير ماهر، فقيه أُصوليّ، محقّق عبقريّ، واحد زمانه في الزهد، ونادرة دهره في التقوىٰ، كان أحد مراجع الشيعة في التقليد، ولد في إصفهان في سنة (١٢٥٨ هـ).

والده السيّد صدرالدين العامليّ الإصفهانيّ ﷺ الذي مضت ترجمته.

حينما تُوفّي والده في سنة (١٢٦٤ هـ) تربّى في كنف أخيه السيّد محمّدعلي المعروف بـ(آقا مجتهد)، وكان متمتّعاً بالذكاء الخارق حتّى عدّ في أوائل بلوغه سنّ التكليف من الفضلاء والعلماء.

هاجر في سنة (١٢٨٠ هـ) من إصفهان إلىٰ النجف الأشرف؛ لغرض التتلمذ علىٰ يد الشيخ الأنصاريّ ﷺ، ولكن حينما وصل إلىٰ كربلاء تُوفّي الشيخ ﷺ، فلم ينثن السيّد ﷺ عن عزمه علىٰ الهجرة إلىٰ النجف الأشرف، فسافر إلىٰ النجف، فتتلمذ علىٰ يد الفقهاء والعلماء آنئذٍ، واشتغل بالتدريس وتربية الطلّاب أيضاً.

اكتسب السيّد ﷺ في فترة بقائه في النجف الأشرف إضافة إلىٰ الفقه والأُصول والحديث معلومات أُخرىٰ عقليّة: كعلم الكلام والفلسفة، والرياضيات كالهندسة والهيئة والنجوم علىٰ النسق القديم، مع الاطّلاع علىٰ آراء جديدة، ولم نعرف أنّه من أين أخذ هذه العلوم، وعلىٰ من تتلمذ فيها، ولم يكن يُعرَف أنّه مطّلع علىٰ هذه

العلوم إلّا حينما كان يتعرّض لها بالمناسبة في ضمن أبحاثه الأُصوليّة والفقهيّة.

وأخيراً أصبح من خواصّ تلاميذ وأصحاب المجدّد الشيرازيّ ﷺ.

ثُمَّ هاجر أُستاذه المجدّد الشيرازيّ ﷺ إلىٰ سامرّاء، وبقي السيّد الصدر يمارس نشاطه العلميّ في النجف الأشرف.

ثُمَّ سافر في النصف من شعبان من سنة (١٣٠٩ هـ) إلىٰ كربلاء لزيارة الحسين عليه السلام، ووصلته رسالة في كربلاء من أُستاذه الشيرازيّ ﷺ يطالبه فيها بالسفر إلىٰ سامرّاء بلا توانٍ أو تأخّر، فاستجاب لدعوة أُستاذه، وذهب إلىٰ سامرّاء، وكان عازماً علىٰ الرجوع إلىٰ دار هجرته النجف الأشرف، لكنّه حينما وصل إلىٰ سامرّاء ألزمه أُستاذه علىٰ الإقامة فيها، وكان السبب في ذلك أنّ السيّد المجدّد الشيرازيّ ﷺ كان قد ترك التدريس من سنة (١٣٠٠ هـ) تقريباً؛ لكثرة الاشغال والمراجعين وضعف المزاج، فأحلّ السيّد الصدر في سنة (١٣٠٩ هـ) محلّه في التدريس، فأصبح محوراً للتدريس في حوزة سامرّاء، وكانت محاور التدريس آنئذٍ في حوزة سامرّاء ثلاثة:

١ ـ السيّد إسماعيل الصدر الإصفهانيّ ﷺ.

٢ ـ الميرزا محمّد تقي الشيرازيّ ﷺ.

٣ ـ السيّد محمّد الفشاركيّ ﷺ.

وكان اجتماع أهل الفضل والعلم في درس السيّد الصدر أكثر من غيره.

وهكذا استمرّت سامرّاء محوراً لإشعاع العلم، وكعبة لآمال العلماء، ومحطّ أنظار الفضلاء في التعليم والتعلّم وتربية الأخلاق وتهذيب النفس إلىٰ أن فُجِعَ العالم الإسلاميُّ والمسلمون بوفاة السيّد المجدّد الشيرازيّ ﷺ.

وانتقلت المرجعيّة والزعامة الشيعيّة من بعد المجدّد الشيرازيّ إلىٰ السيّد الصدر، وسلّم أولاد المجدّد الشيرازيّ ما بقي من أموال وحقوق شرعيّة بحوزة السيّد الشيرازيّ إلىٰ السيّد الصدر.

وكان السيّد الصدر ﷺ زاهداً في الزعامة والمرجعيّة؛ ولهذا عزم بعد وفاة أُستاذه المجدّد الشيرازيّ ﷺ بسنتين علىٰ ترك بلد مرجعيّته وقتئذٍ، وهو سامرّاء، فترك سامرّاء مهاجراً إلىٰ النجف الأشرف، وطلب من العلماء والأكابر أن لايتركوا سامرّاء، وحينما وصل في سفره إلىٰ كربلاء استخار الله تعالىٰ في الإقامة بالنجف الأشرف، فكانت الاستخارة تدلّ علىٰ النهي، فاتّخذ من كربلاء مقرّاً له، وقد هاجر من سامرّاء عدد من العلماء والفطاحل علىٰ رغم طلبه منهم عدم المهاجرة، والتحق بهم بعد ذلك آخرون، وأصبحت كربلاء كعبة آمال العلماء والفضلاء إلىٰ أن تمرّض السيّد الصدر في سنة (١٣٣٤ هـ)، فسافر إلىٰ الكاظميّة للعلاج، وتحسّن حاله في أوّل الأمر، ولكن تدهورت صحّته بعد ذلك علىٰ أثر كبر السنّ وضعف المزاج وحوادث الدهر، وتوفّي ﷺ بتأريخ (١٢ / جمادىٰ الأُولىٰ / ١٣٣٨ هـ)، ودفن بجوار جدّه موسى بن جعفر عليه السلام في مقبرة عائليّة لآل الصدر. ورثاه الشعراء والأدباء والفضلاء بقصائد وأبيات كثيرة، وقال

المرحوم آية الله الشيخ مرتضى آل ياسين﵀:

لئِن يكُ أخفىٰ اللّهُ شخصَك في الثرىٰ فـهيهاتَ مـا أخـفى فـضائلَكَ القـبرُ
لقـد كـنتَ سرَّ اللّـهِ بـين عـبادِه ومن سنن العـادات أن يُكـتَمَ السـرُّ
فـطوبىٰ لقـبرٍ أنت فـيه مـغيّبٌ فقد غاب في [أحشاء][1] تربتِه البدرُ

سيرته وأخلاقه﵀ :

كان﵀ آية في العفّة وعلوّ الهمّة، والاعتماد علىٰ النفس، والتوكّل علىٰ الله، وحسن الأخلاق، والزهد في الزعامة والرئاسة، كان مروّجاً للدين، مربّياً للعلماء، مساعداً للمشتغلين بالعلم، عوناً للفقراء والمساكين يوصل الأموال إلىٰ مستحقيها بلا منٍّ أو شرط، وأحياناً لم يكن يُعرَف أنّ المال من قبله.

كان﵀ يتتلمذ علىٰ يد السيّد المجدّد الشيرازيّ﵀ الذي هو تلميذ لأبيه السيّد صدرالدين ولأخيه السيّد محمّد علي المعروف بـ(آقا مجتهد)، ولكن لم يكن يعرّف نفسه لدىٰ السيّد المجدّد، فهو لم يكن يعلم أنّه ابن أُستاذه؛ ذلك لأنّه حينما هاجر من إصفهان إلىٰ النجف الأشرف عزم علىٰ أن لايعرّف نفسه إلىٰ أحد حتّىٰ إلىٰ أولاد عمّه وأُسرته في بغداد والكاظميّة؛ كي يبقى مجهولاً، ويكون أكثر قدرة علىٰ التكامل.

إلى أن صادف أنّه تشرّف بالذهاب إلىٰ الحج، ثُمَّ رجع إلىٰ

---

(١) هذه الكلمة غير موجودة في النسخة التي أرسلها إليّ المرحوم السيّد عبدالغنيّ الأردبيليّ﵀، ولعلّها ساقطة من القلم؛ إذ من دونها لايستقيم البيت.

النجف الأشرف، فأخبر السيّدَ الشيرازيّ بعضُ تلامذته ممّن كان يعرف السيّد الصدر بأنّه قد قدم من الحجّ السيّد إسماعيل بن السيّد صدرالدين الإصفهانيّ، فعزم السيّد الشيرازيّ رحمه الله على زيارة ابن أُستاذه وهو لايعلم أنّه تلميذه المحبوب لديه، فحينما زاره في بيته فوجئ بأنّ هذا هو ذاك التلميذ الذي كان مورداً لإعجاب الأُستاذ، فوقف متعجّباً قائلاً: أنت السيّد إسماعيل الصدر ابن السيّد صدرالدين الإصفهانيّ؟! قال رحمه الله: نعم، فيزداد الأُستاذ إعجاباً بهذا التلميذ وبمكارم أخلاقه.

وقد روي أنّ السيّد إسماعيل الصدر كان عازماً على أن لايقترض من أحد مالاً مدى العمر، وكان وفيّاً بعهده على رغم معاناته في أيّام دراسته في النجف الأشرف من الفقر والفاقة إلىٰ أن صادف ذات يوم أن أصبحت والدته البالغة حدّ الشيخوخة في حالة لاتطاق، فخاف السيّد رحمه الله علىٰ سلامتها، وذهب إلىٰ الصحن الشريف وهو حائر بين أمرين: بين التكليف الشرعيّ الذي يطالبه بالمحافظة علىٰ أُمّه والذي قد يكون متوقّفاً علىٰ الاقتراض، وبين عهده الذي عاهد نفسه عليه من عدم الاقتراض مدى العمر، فجلس جلسة المتحيّر المتفكّر في أمره أمام حجرة من حجرات الشمال الغربيّ، وإذا برجل غير معروف لديه يتمثّل قبال السيّد، ويسأله: هل أنت سيّد موسويّ النسب؟ قال: نعم، فأعطاه خمسة توامين، وقال: هذا نذر للسيّد الموسويّ النسب، فأخذها السيّد، وبقي وفيّاً بعهده مدىٰ العمر.

وكان السيّد الصدر رحمه الله يحدّث أولاده أحياناً بأمثال هذه القصص

والحكايات بهدف تهذيب نفوسهم وتربيتهم علىٰ مكارم الأخلاق.

أساتذته:

١ ـ أخوه السيّد محمّد علي المعروف بـ(آقا مجتهد)ﷺ كان من نوادر دهره، درس علىٰ يده السطح العالي وبعض الكتب العربيّة والرياضيّة.

٢ ـ حجّة الإسلام الشيخ محمّدباقر الإصفهانيّﷺ، درس علىٰ يده بحث الخارج مدّة عشر سنين.

٣ ـ الفقيه المتبحّر الشيخ راضي النجفيّﷺ.

٤ ـ الشيخ الفقيه أُستاذ العلماء والمحقّقين الشيخ مهدي بن الشيخ عليّ بن الشيخ جعفر كاشف الغطاءﷺ.

٥ ـ الأُستاذ الأكبر المجدّد الشيرازيّﷺ.

طلّابه:

قد ربّىٰ السيّد إسماعيل الصدرﷺ تلاميذ وعلماء كثيرين تخرّجوا علىٰ يده في النجف وسامرّاء وكربلاء والكاظميّة، نكتفي بالإشارة إلىٰ أكابر طلّابه:

١ ـ حجّة الإسلام الحاجّ السيّد أبوالقاسم الدهكوريّ الإصفهانيّﷺ، تتلمذ علىٰ يد السيّد الصدرﷺ في سامرّاء، ثُمَّ هاجر إلىٰ إصفهان، وأصبح مرجعاً للعوامّ والخواصّ في تلك الديار.

٢ ـ حجّة الإسلام الحاجّ السيّد حسين الفشاركيّ الإصفهانيّ

الحائريّ، تتلمذ علىٰ يد السيّد الصدر في كربلاء.

٣ ـ حجّة الإسلام والمسلمين آية الله في العالمين الشيخ عبدالحسين آل ياسين الكاظميّ، تتلمذ علىٰ يد السيّد الصدر في سامرّاء وكربلاء والكاظميّة، وبعد وفاة أُستاذه أصبح أحد المراجع الكبار في الكاظميّة.

٤ ـ حجّة الإسلام والمسلمين الميرزا علي آقا الشيرازيّ ابن المجدّد، تتلمذ علىٰ يده في سامرّاء.

٥ ـ حجّة الإسلام والمسلمين الحاجّ السيّد عليّ السيستانيّ، تتلمذ على يده في سامرّاء وكربلاء، وهاجر أخيراً إلىٰ مشهد الرضا، وأصبح أحد المراجع العظام في تلك الديار، كان عالماً فاضلاً مطّلعاً علىٰ أقوال العلماء، محيطاً بالأحاديث الفقهيّة إحاطة كاملة.

٦ ـ حجّة الإسلام والمسلمين أُستاذ الفقهاء والمجتهدين آية الله العظمىٰ الميرزا محمّدحسين النائينيّ، تتلمذ علىٰ يده في سامرّاء وكربلاء، وتتلمذ ـأيضاً ـ علىٰ يد المجدّد الشيرازيّ، وهاجر بعد ذلك إلىٰ النجف الأشرف، فصار محطّاً لأنظار العلماء والفضلاء إلىٰ أن ربّىٰ جيلاً من الفقهاء والمجتهدين، وأصبح مرجعاً للتقليد في النجف الأشرف.

٧ ـ حجّة الإسلام الميرزا محمّد حسين الطبسيّ، تتلمذ علىٰ يده في سامرّاء، ثُمَّ عاد إلىٰ بلاده، وأصبح أحد العلماء والأعلام المدرّسين في تلك الديار.

٨ ـ حجّة الإسلام والمسلمين السيّد محمّدرضا الكاشانيّ ﷺ، تتلمذ علىٰ يده في سامرّاء وكربلاء، ثُمَّ عاد إلىٰ بلاده.

٩ ـ حجّة الإسلام والمسلمين الميرزا محمّدعلي الهرويّ الخراسانيّ ﷺ، تتلمذ علىٰ يده في سامرّاء وكربلاء، ثُمَّ ذهب إلىٰ مشهد الرضا ﷺ، وأصبح أحد المدرّسين والمراجع في تلك الديار.

١٠ ـ حجّة الإسلام والمسلمين الشيخ محمّد هادي البيرجنديّ ﷺ، عالم فاضل، ومدقّق ماهر، تتلمذ علىٰ يد السيّد الصدر ﷺ في سامرّاء وكربلاء، ثُمَّ عاد إلىٰ بلاده، وكان أحد العلماء الأعلام في تلك الديار.

١١ ـ آية الله الشيخ محمّدرضا آل ياسين ﷺ، تتلمذ علىٰ يد السيّد الصدر ﷺ في كربلاء، وكان صهراً له، وكان يستفيد من فيض علومه ليل نهار، ولم يكن يكتفي في الاستفادة منه بمجلس الدرس، ثُمَّ أصبح بعد ذلك أحد علماء الشيعة الكبار والمراجع العظام في النجف الأشرف.

١٢ ـ آية الله المجاهد السيّد عبدالحسين شرف‌الدين ﷺ، تتلمذ علىٰ يد السيّد الصدر ﷺ في كربلاء والكاظميّة، ودرس ـ أيضاً ـ علىٰ يد صاحب الكفاية وشيخ الشريعة في النجف الأشرف، ثُمَّ أصبح أحد علماء ومراجع الشيعة في لبنان إلىٰ أن تُوفّي في جمادىٰ الآخرة (١٣٧٧هـ)، وحمل جثمانه الطاهر إلىٰ النجف الأشرف، ودفن في حجرة في الشمال الغربيّ للصحن الحيدريّ الشريف.

أولاده:

خلّف من بعده أولاداً أربعة كانوا جميعاً آية في العلم، ومحاسن الأخلاق، والتقوىٰ، وهم:

١ ـ حجّة الإسلام والمسلمين آية الله السيّد محمّد مهدي الصدر رحمه الله.

٢ ـ حجّة الإسلام والمسلمين آية الله السيّد صدرالدين الصدر رحمه الله.

٣ ـ حجّة الإسلام والمسلمين وعماد الأعلام السيّد محمّد جواد الصدر رحمه الله.

٤ ـ حجّة الإسلام والمسلمين آية الله السيّد حيدر الصدر رحمه الله.

٣ ـ السيّد حيدر الصدر قدس سره

سيّد جليل القدر، عظيم المنزلة، حامل لواء التحقيق، نابغة دهره، ونادرة عصره، عابد، زاهد، عالم، عامل، ابن السيّد إسماعيل الصدر قدس سره الذي سبقت ترجمته، ولد في سامرّاء في جمادىٰ الآخرة سنة (١٣٠٩ هـ)، وقال بعض العلماء العامليين في تأريخ ولادته:

فحيدرٌ واليمن قد جاءا معاً فنادِ بالتأريخ يمنٌ قد ظهر

هاجر بصحبة والده إلىٰ كربلاء في سنة (١٣١٤ هـ)، ودرس المقدّمات والعلوم العربيّة علىٰ يد عدّة من الفضلاء، ثُمَّ درس بحث الخارج علىٰ يد أبيه السيّد إسماعيل الصدر قدس سره، وعلىٰ يد السيّد حسين الفشاركيّ رحمه الله، والمرحوم آية الله الحائريّ اليزديّ رحمه الله في

كربلاء، وأصبح في عنفوان شبابه من العلماء المرموقين المشار إليهم بالبنان.

قال صاحب الذريعة في أعلام الشيعة:

«وقد رأيته مراراً سواء في أيّام والده أو بعدها، فوقفت علىٰ غزارة علمه، وكثرة فضله، وكان دائم الاشتغال كثير المذاكرة، قلّما دخل مجلساً لأهل الفضل ولم يفتح باباً للمذاكرة والبحث العلميّ، وكان محمود السيرة، حسن الأخلاق، محبوباً عند الجميع».

وقال آية الله السيّد عبدالحسين شرف‌الدين ﷺ فيما نشر عنه في مجلة (النجف) السنة الأُولىٰ، العدد الثالث (١٥ / جمادىٰ الآخرة / ١٣٧٦ هـ ـ ٢٠ / كانون الأوّل / ١٩٥٦ م):

«... عرفته طفلاً، فكان من ذوي العقول الوافرة، والأحلام الراجحة، والأذهان الصافية، وكان وهو مراهق أو في أوائل بلوغه لايسبر غوره، ولاتفتح العين علىٰ مثله في سنّه، تدور علىٰ لسانه مطالب الشيخ الأنصاريّ ومن تأخّر عنه من أئمّة الفقهاء والأُصوليّين، وله دَلْوٌ بين دلائهم، وقد ملأه إلىٰ عقد الكرب، يقبل علىٰ العلم بقلبه ولبّه وفراسته، فينمو في اليوم ما لا ينمو غيره في الأُسبوع، ما رأت عيني مثله في هذه الخصيصة، وقد رأيته قبل وفاته بفترة يسيرة وقد استقرّ من جولته في غاية الفضل لاتبلغها همم العلماء، ولاتدركها عزائم المجتهدين...».

وقال حجّة الإسلام والمسلمين الشيخ محمّدتقي آل صادق العامليّ ﷺ فيما نشر عنه في مجلّة (الغري):

« ... لقد كان﵀ آية بليغة في الأخلاق الفاضلة والصفات الكريمة تلقاه ـ وهو بتلك المكانة العلميّة السامية، وبذلك الرداء الجميل من الشرف والمجد ـ طلِق المحيّا، باسم الثغر، رقيق الحواشي، نديّ الحديث، طريّ الأُسلوب، ليّن العريكة، يتواضع للصغير حتّى كأنّه بعض سُمرائه، ويتصاغر للكبير حتّى كأنّه دون نظرائه...».

كان المرحوم آية الله الصدر﵀ آية في الزهد والتقوىٰ والعفّة، وعدم الاكتراث للدنيا، والشوق إلىٰ العلم والتحقيق.

روي عن المرحوم حجّة الإسلام السيّد علي الخلخاليّ﵀ أنّه قال:

«إنّ السيّد حيدر الصدر﵀ كان يُدرّس أثناء إقامته في الكاظميّة الكفاية، فاتّفق أنّ أحد أكابر الحوزة العلميّة في النجف الأشرف ورد الكاظميّة، وطلب منه السيّد الصدر﵀ عقد مباحثة معه في الكفاية خلال الأيّام التي سيبقى في هذا البلد المبارك، فأبى، فطلب منه التتلمذ لديه في أيّام إقامته في الكاظميّة بتدريسه للكفاية فوافق علىٰ ذلك، فكان السيّد الصدر﵀ يلقي بتدريسه هو للكفاية علىٰ جمع غفير من الطلّاب، ثُمَّ كان يحضر باسم التلميذ لدىٰ هذا العالم في درس الكفاية».

قال السيّد علي الخلخاليّ﵀: «إنّي سألت السيّد الصدر﵀: ماذا صنعت بفلان الذي لم يكن يقبل عقد المباحثة معك في الكفاية؟ فأجاب﵀: أنّي وصلت إلىٰ ما كنت أروم من الإفادة والاستفادة؛ ذلك أنّي أحضر لديه بعنوان التلمذة، فيقرأ عليّ مقطعاً من الكفاية،

فينفتح باب المناقشة، فنبقىٰ نتباحث ونناقش في الأمر، وكان هذا هو المطلوب لنا».

وفاتــه:

تُوفّي ﷺ في الكاظميّة في ليلة الخميس (٢٧ / جمادىٰ الآخرة / ١٣٥٦ هـ)، ودفن في مقبرة آل الصدر. وقد روي عن بعض الثقات أنّه حدّثته زوج المرحوم الصدر ـ وهيٰ العابدة الزاهدة التقيّة النقيّة بنت المرحوم آية الله الشيخ عبدالحسين آل ياسين ـ بأنّ العائلة إلى ما بعد مضيّ شهر من وفاة المرحوم الصدر تقريباً كانت حائرة في الحصول علىٰ لقمة العيش، علماً بأنّ المرحوم الصدر كان مرجعاً من مراجع الشيعة. وهذا يلقي ضوءاً علىٰ مدىٰ زهده وعـدم اكـتراثـه للدنيا، وعدم تجميع المال. طوبى له وحسن مآب.

مؤلّفاته:

١ ـ رسالة في مباحث وضع الألفاظ.
٢ ـ تعليقة علىٰ الكفاية.
٣ ـ رسالة في المعنى الحرفيّ.
٤ ـ رسالة في تبعيض الأحكام لتبعيض الأسباب.
٥ ـ الشبهة الحيدريّة في تلاقي أحد أطراف العلم الإجماليّ.
٦ ـ تعليقة علىٰ العروة الوثقىٰ.
وعدّة رسائل أُخرىٰ.

وممّا يؤسفنا أنّ هذه الكتب والرسائل كلّها مفقودة اليوم، إلّا أنّ الشبهة الحيدريّة تعرّض لها آية الله الشيخ آقا ضياء العراقيّ﵀ في مجلس درسه، فكُتبت بقلم بعض طلّابه في تقرير بحثه.

أولاده:

خلّف السيّد حيدر الصدر﵀ من بعده ابنين وبنتاً يعتبر كلّ واحد منهم جوهرة ثمينة يقلّ نظيرها في العلم والتقىٰ، وهم:

١ ـ حجّة الإسلام والمسلمين السيّد إسماعيل الصدر﵀، ولد في الكاظميّة في شهر رمضان المبارك سنة (١٣٤٠ هـ). درس المقدّمات والسطح العالي علىٰ يد علماء الكاظميّة، وهاجر إلىٰ النجف الأشرف بتأريخ (١٣٦٥ هـ) فتتلمذ علىٰ يد:

١ ـ آية الله العظمىٰ الشيخ محمّدرضا آل ياسين﵀.

٢ ـ آية الله العظمىٰ السيّد محسن الحكيم﵀.

٣ ـ آية الله العظمىٰ السيّد عبدالهادي الشيرازيّ﵀. وقد أجاز له بالاجتهاد.

٤ ـ آية الله العظمىٰ السيّد أبوالقاسم الخوئيّ الذي يعيش الآن في النجف الأشرف.

ثُمَّ عاد بطلب عدد من المؤمنين في الكاظميّة إلىٰ بلده، واشتغل بالتدريس وترويج الدين، وكان آية في الإخلاص، والدفاع عن حقوق المظلومين، وفخراً للشيعة.

ألّف كتباً في الفقه، والأُصول، والتفسير، والرجال لم يطبع منها

عدا مجلّد واحد في التعليق علىٰ التشريع الجنائيّ الإسلاميّ، كما طبعت له محاضرات في التفسير الجزء الأوّل.

تُوفّي في ذي‌الحجة من سنة (١٣٨٨ هـ)، ودفن في النجف الأشرف في مقبرة المرحوم آية الله السيّد عبدالحسين شرف‌الدين ﷺ.

٢ ـ آية الله العظمىٰ مفجّر الثورة الإسلاميّة في العراق الشهيد السيّد محمّدباقر الصدر ﷺ.

٣ ـ العلويّة الفاضلة آمنة المعروفة ببنت الهدىٰ ـ قدّس سرّها ـ كانت سيّدة جليلة، عالمة، فاضلة، عارفة، عابدة، مهذّبة، تقيّة. ولدت في الكاظميّة في سنة (١٣٥٦ هـ)، ونمت في كنف العلم والتقىٰ والفضيلة. درست علوم العربيّة ومبادئ علم الكلام والفقه والأُصول علىٰ يد أخيها الشهيد ﷺ إلىٰ أن أصبحت من مفاخر الكاتبات الإسلاميّات، وكانت تشرف خلال سبع سنين علىٰ أربع مدارس دينيّة للبنات في الكاظميّة، والنجف، والكوت. وقد ربّت المئات من البنات الفاضلات العالمات المؤمنات، وقد ألّفت:

١ ـ صراع من واقع الحياة.

٢ ـ الخالة الضائعة.

٣ ـ الفضيلة تنتصر.

٤ ـ ذكريات علىٰ تلال مكّة.

٥ ـ المرأة مع النبيّ ﷺ.

٦ ـ كلمة ودعوة.

٧ ـ ليتني كنت أعلم.

٨ ـ امرأتان ورجل.

٩ ـ لقاء في المستشفىٰ.

١٠ ـ الباحثة عن الحقيقة.

١١ ـ بطولة المرأة المسلمة.

وقد اعتقلها حزب البعث الغاشم العميل بُعيد آخر اعتقال لأخيها الشهيدﷺ، واغتالوها بأيد خبيثة خائنة. أسأل الله تعالىٰ أن يسلّطنا علىٰ هذه الزمرة الكافرة؛ كي نروي الأرض بدمائهم، ونأخذ بثاراتنا، ويومئذٍ يفرح المؤمنون بنصر الله. و والله لو سقيت الأرض بدمائهم جميعاً لَما ساوىٰ ذلك قلامة من ظفر إبهام شهيدنا الصدرﷺ أو أُخته العلويّة المظلومة.

كانت هذه ترجمة مختصرة لأُسرة آل الصدر اشتملت علىٰ ترجمة آباء شهيدنا الغالي لثلاث طبقات.

والدة الشهيد الصدر رحمة الله عليها

أمّا والدته المحترمة، فهي السيّدة العابدة، الصالحة، التقيّة، الزاهدة، بنت المرحوم آية الله الشيخ عبدالحسين آل ياسينﷺ، وكان أبوها وإخوتها جميعاً من الآيات العظام، ومن أكابر العلماء الأعلام رضوان الله عليهم أجمعين.

فأبوها هو آية الله الشيخ عبدالحسين آل ياسينﷺ أحد أعاظم

فقهاء عصره، المعروف بالزهد والعبادة والتقوىٰ. ولد في الكاظميّة، وتربّى في كنف جدّه المرحوم آية الله الشيخ محمّدحسن آل ياسين﵀ الذي كان من مفاخر علماء الشيعة، والذي أمضى الإمام صاحب الزمان ـ عجّل الله تعالىٰ فرجه ـ نيابته عنه علىٰ ما ورد في قِصّة المرحوم الحاجّ علي البغداديّ﵀ المذكورة في مفاتيح الجنان.

وقد قال السيّد حسن الصدر في تكملة أمل الآمل عن الشيخ محمّد حسن آل ياسين:

« أُنموذج السلف، حسن التقرير، مضطلع في الفقه والأُصول، خبير بالحديث والرجال، انتهت إليه الرئاسة الدينيّة في العراق بعد وفاة الشيخ العلّامة الأنصاريّ، كان المرجع العامّ لأهل بغداد ونواحيها وأكثر البلاد في التقليد، وكان المعروف بالفضل، له رسالة وكتب...».

والمرحوم الشيخ عبدالحسين آل ياسين﵀ قد هاجر من الكاظميّة إلىٰ سامرّاء، وتتلمذ علىٰ يد المجدّد الشيرازيّ﵀، وبعد أن تُوفّي جدّه الشيخ محمّدحسن انتقلت إليه زعامة الشيعة في بغداد والكاظميّة، ثُمَّ هاجر إلىٰ كربلاء، وتتلمذ علىٰ يد المرحوم السيّد إسماعيل الصدر، ووصل إلىٰ مرتبة عالية من الاجتهاد، وعاد إلىٰ الكاظميّة، وأصبح من مراجع الشيعة في التقليد، وتُوفّي في (١٨ / صفر / ١٣٥١ هـ) في الكاظميّة، ودفن في النجف الأشرف في مقبرة آل ياسين.

أمّا إخوتها فهم:

١ ـ آية الله العظمىٰ شيخ الفقهاء والمجتهدين الشيخ محمّدرضا

آل ياسين، كان أُستاذاً ومرجعاً في عصره في النجف الأشرف، تُوفّي في سنة (١٣٧٠ هـ)، ودفن في مقبرة آل ياسين.

٢ ـ المرحوم الإمام المجاهد الشيخ راضي آل ياسين، كان من أكابر علماء الإماميّة في الكاظميّة، وهو صاحب تأليفات كثيرة منها كتاب (صلح الحسن).

٣ ـ المرحوم آية الله الورع التقي الشيخ مرتضى آل ياسين، كان من أكابر علماء الإماميّة، ومرجعاً للتقليد في النجف الأشرف.

آية الله العظمىٰ

الشهيد السيّد محمّد باقر الصدر قدس سره

هو العَلَم الفَذّ، مفخرة عصره، وأُعجوبة دهره، نابغة الزمان، ومعجزة القرن، حامي بيضة الدين، وماحي آثار المفسدين، فقيه أُصوليّ، فيلسوف إسلاميّ، كان مرجعاً من مراجع المسلمين في النجف الأشرف، فجّر الثورة الإسلاميّة في العراق، وقادها حتّى استشهد.

ولد في (٢٥ / ذي القعدة / ١٣٥٣ هـ) في الكاظميّة، وتربّى من بعد وفاة والده في كنف والدته وأخيه السيّد إسماعيل الصدر﵀.

كانت تبدو عليه من أوائل الصبا علائم النبوغ وآثار الذكاء.

وممّا يُحكَى عن أيّام طفولته وصباه في المدرسة الابتدائيّة ما كتبه محمّدعلي الخليليّ حاكياً قِصّته مع شهيدنا أيّام كانا طالبين في مدرسة منتدىٰ النشر الابتدائيّة، وإليك نصّه الذي لم ينشر حتّى الآن:

«كانت تجمعنا به مدرسة واحدة، ويفرّقنا فارق السنّ والمرحلة الدراسيّة؛ إذ كان حينها في الصفّ الثالث الابتدائيّ، أمّا أنا فكنت في السنة النهائيّة من هذه المرحلة الدراسيّة.

وطبيعيّ ـ وللأمرين المذكورين ـ أن لا يكون اتّصال مباشر، وعلىٰ الرغم من ذلك فقد كان موضوع اهتمامنا، ومحطّ أنظارنا نحن تلاميذ المدرسة صغاراً وكباراً، كما كان موضوع تقدير واحترام

معلّميه، وأكثر ما كان يلفت نظرنا هو اهتمام المعلّمين به دون استثناء، فقد كانت له شخصيّة تفرض وجودها، وسلوك يحملك علىٰ احترامه، والنظر إليه نظرة تختلف عن نظرتك لبقيّة زملائه.

كنّا نعرف عنه أنّه مفرط في الذكاء، ومتقدّم في دروسه تقدّماً يبزّ فيه زملاءه كثيراً، أو ندر نظيره، وما طرق أسماعنا أنّ هناك تلميذاً في المدارس الأُخرىٰ يبلغ بعض ما يبلغه من فطنة وذكاء؛ لذا اتّخذه معلّموه نموذجاً للطالب المجدّ والمؤدّب والمطيع، فما من درس يمرّ بنا إلّا وكان حديث المعلّم عنه يطغى علىٰ ما يلقّننا من مادّة، وكان ذلك يزيدنا احتراماً له وإعجاباً به، حتّى أخذ بعض الطلبة يجهد نفسه في تقليده في مشيته وفي حديثه وفي جلوسه في الصف؛ لينال ما يناله من احترام وإعجاب، وقد بلغ احترامُ زملائه له وجميعُ تلاميذ المدرسة احترامهم لمعلّميهم إن لم يتعدّه أحياناً، فهم يتهيّبون التحدّث إليه، إلّا إذا شعروا برغبة منه في الحديث، وإلّا أن يكون هو البادئ في الحديث.

وقد تجاوز هذا الإعجاب به والحديثُ عنه جدران المدرسة إلىٰ الشارع والسوق والمدارس الأُخرىٰ وفي كلّ مكان، حتّى إنّني فوجئت يوماً أنّ أبي يدعوني إلىٰ أن أقتدي به في سلوكي وفي حديثي مع الناس، وقد كان هذا شأن كثير من الآباء مع أبنائهم لو أرادوا لهم النصح.

وممّا زاد تعرّف الناس عليه هو قيامه بإلقاء الخطب والقصائد التي كان يهيّئها له معلّموه المتمكّنون من اللغة العربيّة في المواكب

الحسينيّة التي تنظّمها المدرسة كلّ عام في يوم عاشوراء، أو في وفيات بعض الأئمّة الأطهار، حيث كان يرتقي المنبر المعدّ له في الصحن الكاظميّ؛ ليلقي القصيدة أو الكلمة في المناسبة عن ظهر القلب، ويبدو وكأنّه يرتجل مسترسلاً دون توقف أو تلكّؤ، وقد تعجب أيّها القارئ أنّ فترة حفظه لها لاتتجاوز مسيرة الموكب من المدرسة إلىٰ الصحن الشريف، وكثيراً ما كنت أسمع أنا وغيري من الطلّاب كلمات الاستحسان والتعجّب والتشجيع من قبل الناس المحتشدين حول موكب مدرستنا (مدرسة منتدىٰ النشر في الكاظميّة)، وقد أعطى ـ وهو في هذه السنّ ـ لموكبنا منزلة قد تفوق منازل المواكب الأُخرىٰ، فقد كان الناس يرافقون الموكب منذ لحظة انطلاقه من المدرسة إلىٰ الصحن الشريف حيث نجد عدداً كبيراً من الناس ينتظرون الموكب بشوق ولهفة، وكان تحشّدهم يزداد إذا كان هو الخطيب في ذلك اليوم، وأمّا إذا كان غيره ينفضّ عن الموكب الكثيرون منهم، فقد كان لإلقائه حلاوة وتأثير غريب في نفوس الجماهير يزيده روعة صغر سنّه.

في تلك السنين القليلة عرفنا باقر الصدر وليتها كانت تطول، وعرفه الناس الذين يقصدون الكاظميّة من بغداد وضواحيها؛ لحضور المواكب والمجالس الحسينيّة.

وإنّنا زملاءه في المدرسة عرفناه أكثر في مواقفه هذه، وعرفناه طالباً مثاليّاً في سلوكه وفي جميع تصرّفاته. وما أتذكر أنّه كان له حسّد من الطلّاب، بل كان حبّهم له يطغى علىٰ كلّ شيء يتودّدون

ويتقرّبون منه؛ وذلك بسبب سلوكه العقلانيّ معهم، وإضفاء حبّه وحنانه علىٰ من هو أصغر منه، واحترامه لمن هو أكبر منه، وكنّا نشعر ـ وإن كبرناه سنوات ـ لقد كان والله معجزة، وآية من آيات خلق الله، ولاأجدني مبالغاً مهما قلت عنه، وأطنبت في امتداحه، والثناء عليه، وتعداد حسناته وصفاته التي لم نجد نظيراً لها في سموّها لدىٰ غيره من كلّ تلامذة المدارس.

كان ينتحي زاوية من زوايا المدرسة انفرد هو بها، ولم يقربها غيره احتراماً له، وذلك في كلّ استراحة بعد كلّ محاضرة في الصفّ، وكان يلتفّ حوله في تلك الزاوية عدد من أترابه التلاميذ ورفاق صفّه، أو من الصفوف العليا. كنّا نراقب هذا الاجتماع، ونرقبه وهو يتحدّث إلى المحيطين وكلّهم إصغاء له، يتحدّث إليهم بهدوء، ويلفّه هدوء، ويغطّيه سكون، والكلّ صاغون إلىٰ حديثه، ساهمون مسحورون، وقد أثارت فضولنا هذه الحالة وهذا الاجتماع، فهممنا عدّة مرّات لأن ننضمّ إليهم، ولكنّ فارق السنّ ـ كما قلنا ـ كان يحول بين رغبتنا وبين تحقيقها.

وجاء ذلك الذي لم أنسه ولن أنساه، كان يوماً جديداً لم يمرَّ بنا مثله حين طغت علينا غريزة حبّ الاطّلاع، فاندفعنا ـ وكأنّنا مقادون ـ إلىٰ حيث يعقد اجتماعه، وانضممنا إلىٰ الثلّة التي كانت تحيط به، وقد كانت خطواتنا هذه مفاجأة له، سكت عندها قليلاً عن الحديث، وبعد أن ألقى علينا نظرات فاحصة كأنّه كان يريد أن يقول لنا: هل أستمرُّ في الحديث؟، وبعدها راح يواصل حديثه، حديث لم

نألفه من قبل، فلاهو توضيح ولاهو شرح لما نأخذ من دروس عن أساتذتنا؛ فقد كان حديثاً تتخلّله عبارات هي بالنسبة لنا غير مفهومة، أوصعب فهمها، ولأوّل مرّة سمعنا فيها كلمة الماركسيّة، والامبرياليّة، والديالكتيكيّة، والانتهازيّة، وكلمات أُخرىٰ أظنّها كانت تعني أسماء لفلاسفة وعلماء وشخصيّات لم يحضرني منها سوىٰ اسم (فيكتورهوغو) و(غوته)، وغابت عني أكثرها؛ إذ مرَّ عليها زمن طويل قارب الأربعين عاماً، ولأنّها كلمات كانت في حينها يصعب علينا نطقها وتلفّظها، كانت غريبة علينا جدّاً، ولم نسمع بها أو بمثلها من الأسماء في كتبنا المدرسيّة، ولم نقرأ فيها إلّا (إديسون) و (نيوتن) وغيرهما ممّن درسنا عنهم وعن اكتشافاتهم واختراعاتهم.

لقد كان يهيم في حديثه، ويسبح في بحر من الخيال والتسامي، أويغوص في بحر لجّيٍّ يلتقط منه العبارات والمعاني والأفكار.

لقد حملنا شوقنا إلىٰ المعرفة أن نكرّر انضمامنا إلىٰ مجموعته التي أطلق عليها اسم (الحوزة)، وكلّنا نرغب رغبة ملحّة في أن نفهم ما يتحدّث به. ونحن لانـدري هل أنّ هؤلاء الصبية والأطفال المحيطين به يعون ويدركون ما يتحدّث به إليهم، ويتفهّمون ذلك؟. وهذا ما كان يثير اهتمامنا بقدر ما كنّا نرغب في التزوّد من معارفه آنذاك والتي كنا نراها أشياء جديدة علينا، ولكن فيها متعة ولذة وإن لم ندرك أكثرها، وكنّا نستزيده فيزيد، ونطلب منه أن يعيد علينا ماحدّثنا به قبل يوم، فيجيب دون أن يلتمس لنفسه عذراً، أو يقابلنا برفض.

فقد كان همّه كلّ همّه أن نفهم، وأن نعي ما يحدّثنا وكأنّه نذر ساعات لعبه وسهوه ـ وهو بهذا السنّ ـ ليكون معلّماً ومفقّهاً، واصلنا حضورنا حوزته هذه حتّى كانت نهاية العام، وبدأت العطلة، فافترقنا حيث التحقنا نحن في المدرسة المتوسطة، وبقي هو في مدرسته قليلاً حتّى علمنا أنّه تركها؛ لينصرف إلىٰ الدرس.

كانت أيّاماً مضيئة وجميلة، وكانت حلماً حلواً مؤنساً أخذنا فيها عنه أشياء كثيرة ساعدتنا علىٰ أن نتفهّم ما نقرأ من كتب غير كتبنا المدرسيّة، كتب كان يزوّدنا بها هو أحياناً كلّما التقى واحداً منّا، وقليلاً ما كنّا نلتقيه إلّا في داره حيث كنّا نجده مكبّاً علىٰ قراءة كتب لانعرف حتّى أسماءها، وكتب كنّا نقتنيها من المكتبات، أو نستعيرها من الأصدقاء زملاء المدرسة، أو من المكتبات العامّة بإشارة وتوجيه منه. وكنّا نهتمّ بكلّ كتاب ينصحنا بقراءته، وإن غمض علينا شيء منه، كان يعيننا علىٰ فهمه بكلّ سرور ورحابة صدر وهو ممتن غير مانّ.

كانت لنا معه أيّام حلوة سعيدة عادت علينا بعد ذلك بمرارة لانتجرّعها، ولانتحمّل مرارتها، فقد رحل عنّا شهيدنا، اغتالته فئة ضالّة باغية، وتركنا إلىٰ حيث يرتع في نعيم دائم وسعادة أبديّة، وبقينا بعده غرقى في شقاء ما مثله شقاء، وحياة مليئة بالقسوة والظلم والإرهاب، وصارت سنوات تلك الطفولة البريئة المرحة أيّاماً قاسية، إلّا أنّه ترك فينا وعياً ومعرفة أعانتنا علىٰ أن نزيدها، ونبلغ بها حدّاً نتفهّم فيه كلّ شيء في الحياة.

تلك كانت أيّام طفولتنا وصبانا مع ذلك المعلّم (الصدر) المليء بالعلم وهو طفل، وقد تغذّينا في حوزته ونحن أطفال».

انتهى ما كتبه محمّدعلي الخليليّ عن أيّام طفولة الأُستاذ الشهيد في المدرسة الابتدائيّة.

أمّا ما جاء فيه من (أنّه كان يحفظ الخطب التي كان يهيّئها له معلّموه، فيلقي الكلمة في المناسبة عن ظهر قلب، ويبدو وكأنّه يرتجل مسترسلاً دون توقّف أو تلكّؤ)، فهذا قد يكون صحيحاً، ولكنّ الذي حدّثني به الأُستاذ الشهيد أنّه كان في أيّام صباه يرتجل خطباً للناس في المناسبات، ولاتنافي بين هذا وذاك؛ فلعلّه كان أحياناً كهذا وأحياناً أُخرىٰ كذاك.

وقبل أن نمضي في درس حياة أُستاذنا الشهيد؛ لكي نرىٰ ماذا كان بعد خروجه من المدرسة، نقرأ مقطعاً آخر من الحديث عن حياته في داخل المدرسة الابتدائيّة منقولاً عن أحد أساتذة المدرسة فقد نُشِرَ في مجلّة صوت الأُمّة العدد (١٣) للسنة الثانية (رجب / ١٤٠١ هـ) مقالٌ لشخص تحت اسم (أبو براء)، وهذا نصّه:

«شاءت الصدف أن أتّخذ لي مكاناً إلىٰ جانبه في أحد المجالس التأبينيّة التي أُقيمت تخليداً لذكرىٰ الشهيد الصدر، وفي التفاتة منّي إليه غير مقصودة وجدت عليه أمارات الألم والحزن الشديدين، أمارات لم أجدها ترتسم علىٰ وجوه الآخرين، بل لاأُغالي إذا قلت: كانت عليه سيماء الثكل، ولم ينتبه إلىٰ التفاتتي، فقد كان ساهياً منصرفاً عن كلّ ما هو حوله، ومثبتاً عينيه علىٰ صورة للشهيد الصدر

كانت معلّقة أمامه، وهو يصدر الآهة إثر الآهة، ويجذب الحسرة تلو الحسرة، وبين كلّ لحظة وأُخرىٰ تنحدر من عينيه دمعتان كان يكفكفهما بمنديل يحمله بيده، كان يبكي ويتألّم بصمت، وقد لفت نظري كثيراً رغم أنّ كلّ من كانوا في الحفل أغرقتهم فاجعة الذكرىٰ بآلامها وأشجانها، وربّما علا صوت نحيب من هنا أو هناك لبيت شعر من قصيدة شاعر، أو لعبارة من كلمة خطيب تثير في النفوس شجاها، وتحرّك عواطفها وأحاسيسها، إلّا هذا، فما سمعت منه إلّا الآهات، والتنهّدات، والأنّات الخفيّة.

إنّ كلّ الذين كانوا في الحفل أو جلّهم يعرفون الصدر، إمّا عن كثب، أو من خلال جهاده في سبيل إعلاء كلمة الحقّ، إذن لابدّ أن يكون لهذا شأن آخر، هكذا قدّرت، وقد أصاب تقديري، فسألته، وقطعت عليه وجومه، وشرود فكره، وقد جاء سؤالي كمتنفّس له وداعٍ إلى بثّ ما في جنبيه من ألم دفين، وحزن كمين، ويبدو أنّه عرفني، واطمأنّ إليّ، فراح يحدّثني وبنبرات تقطّعها الآهات والحسرات.

قال بعد تنهُّدة عميقة: إنّ علاقتي بالفقيد علاقة الأخ الكبير بأخيه الصغير الوحيد، كان ذلك في السنوات الأخيرة من الأربعينات يوم كان طالباً في المراحل الأُولى من الدراسة الابتدائيّة، وكنت معلّماً في المدرسة التي كان يتعلّم بها، وهي مدرسة منتدىٰ النشر الدينيّة الابتدائيّة في الكاظميّة، وقد رأيت أنّ هذا التلميذ يوليه المدير عناية خاصّة، ويرعاه رعاية يشوبها الاحترام والتقدير، فعجبت في بادئ

الأمر لذلك، وأخيراً اتّضح لي بأنّ هذه العناية لم يكن مبعثها لأنّه ينتمي لعائلة كريمة الحسب عرف كثير من أفرادها، واشتهروا بالعلم، والتقى، والورع، أو لأنّه يتيم فقد أباه وهو بعد صغير لم يبلغ الحلم، ولكنّ عنايته كانت موجهة إليه لأسباب أُخرىٰ. فأحببت أن أتعرّف أكثر علىٰ هذا الطفل سيّما وأنّني حديث عهد بالعلم في المدرسة المذكورة. وشاءت الصدف أن أنفرد بالسيّد المدير، فأستوضح منه عمّا كان يشغل تفكيري بشأن هذا الطفل، فأجابني: أرجو أن ترعاه كما يرعاه زملاؤك من الهيئة التدريسيّة، فقد سبق وأوصيتهم به خيراً؛ لأنّني أتوسّم فيه أن يكون له مستقبل كبير باعث علىٰ التفاخر والاعتزاز بما يقوم به وبالدرجة العلميّة التي أترقّب أنّه سيصلها ويبلغها، فرحت أرقب هذا الطفل عن كثب، فأقرّبه إليّ، وأتحدّث معه كلّما سنحت الفرصة مظهراً إليه حبّي وودّي اللذين نميا مع الأيّام، بل الساعات، فصار محبّاً لي متعلّقاً بي لايفارقني في الصفّ أثناء الدرس أو بعده أثناء فترة الاستراحة.

وقد كان طفلاً يحمل أحلام الرجال، ويتحلّى بوقار الشيوخ، وجدت فيه نبوغاً عجيباً، وذكاءً مفرطاً يدفعانك علىٰ الاعتزاز به، ويرغمانك علىٰ احترامه وتقديره، كما شهدت كلّ المدرّسين ـ أيضاً ـ يكنّون له هذا الاحترام وهذا التقدير.

لقد كان كلّ ما يُدرَس في هذه المدرسة من كافّة العلوم دون مستواه العقليّ والفكريّ، كان شغوفاً بالقراءة، محبّاً لتوسيع دائرة معرفته، ساعياً بجدٍّ إلىٰ تنمية مداركه ومواهبه الفذة، لا تقع عيناه

علىٰ كتاب إلّا وقرأه، وفقه ما يحتويه في حين يعزّ فهمه علىٰ كثير ممّن أنهوا المرحلة الثانويّة. ما طرق سمعه اسم كتاب في أدب، أو علم، أو اقتصاد، أو تأريخ، إلّا وسعىٰ إلى طلبه. كان يقرأ كلّ شيء.

وقد حدّثني أحد الزملاء ممّن كان لديهم إلمام بالماركسيّة، واطّلاع علىٰ كثير من الكتب التي كتبت فيها قائلاً لي: لقد جاءني يوماً مبدياً رغبته في أن يقرأ بعض الكتب الماركسيّة ونظريّاتها؛ ليطّلع علىٰ مكنونات هذه النظريّة، تردّدت في بادئ الأمر عن إرشاده إلىٰ ذلك؛ لأنّه طفل، وخشيت أن تتشبّع أفكاره بالماركسيّة ونظرياتها، وبعد إلحاح منه شديد، ولمّا كنت لاأُحبّ ردّ طلبه أرشدته إلىٰ بعض المجلّات والكتب المبسّطة في كتابتها عن الماركسيّة وفي عرضها لها. وقد أخذت علىٰ عاتقي تهيئة ما تيسّر لي من هذه المجلّات والكتب، وهي نادرة وعزيزة؛ لأنّها كانت آنذاك من الكتب المحرّم بيعها في المكتبات.

وبعد أن تسلّمها منّي تهلّل وجهه فرحاً، ثُمَّ أعادها إليّ بعد أن قرأها مكرّراً طلبه أن أجد له كتباً أكثر موضوعيّة، وأعمق شرحاً وعرضاً لآراء الماركسيّة، فهيّأت له ما طلب، وكنت أظنّ أنّه سوف لايفقه منها شيئاً؛ لأنّني أنا نفسي رغم مطالعاتي الكثيرة في هذا الموضوع أجد أحياناً صعوبة في فهمها. وبعد مدّة أُسبوع واحد أعادها إليّ، وطلب غيرها، وأضاف المدرّس قائلاً: أحببت أن أعرف ما الذي استفاده هذا الطفل من قراءته لهذه الكتب، وإذا به يدخل في شرح الماركسيّة طولاً وعرضاً، فأخذت عن شرحه لها كلّ ما غمض عليّ معناه عند قراءتي لها، فعجبت لهذا الطفل المعجزة،

وهو لمّا يزل في المرحلة الثالثة من الدراسة الابتدائيّة. وقد زاد في اطمئناني عند ما راح يشرح لي أنّه كان يأتي علىٰ مناقشة كلّ رأي على حدة مناقشة العالم المتبحِّر في العلم، فاطمأننت بأنّه لم يتأثّر بالماركسيّة مطلقاً، وأنّه كان يقرؤها كناقد لاكدارس لها.

وحدّثني عنه مدرّس اللّغة فقال: والله لو لاالأنظمة والقوانين ولو كانت هناك حكومة تقدّر النبوغ والكفاءة، لمنحته الشهادة الثانويّة بأعلىٰ الدرجات فتحت له أبواب الكلّيات، ليختار منها ما يشاء، وكفيته أمر الذهاب إلىٰ المدرسة والعودة منها إلىٰ البيت. إنّ إلمامه بعلوم اللّغة العربيّة يفوق حدّ التصوّر لطفل في سنّه، وكم من مرّة جعلني أقف أمامه محرجاً لاأحير جواباً، فأضطر أن أُؤجّل الجواب علىٰ سؤاله إلىٰ يوم آخر؛ لئلّا أكون في موضع العاجز عن الجواب أمام تلامذتي. وقال هذا الشيء عينه مدرّس الدين وأضاف: أنّه يصلح أن يكون مدرّساً للدين وأُصوله.

وقال كذلك مدرّسو العلوم الأُخرىٰ، مُبدِين دهشتهم وحيرتهم في نبوغ هذا الطفل ومستواه خائفين أن يقتله ذكاؤه.

كان ﷺ أوّل من يدخل الصفّ، وآخر من يخرج منه، وكان كلّه إصغاءً وانتباهاً إلىٰ ما يقوله المدرّس، وكأنّ ما يتلى شيء جديد بالنسبة له، وكأنّه لم يحفظ في ذاكرته أضعاف ما يتلى عليه في الصفّ. وما وجدته يوماً وقد ركبه الغرور، أو طغى عليه العجب بنفسه، أو تعالىٰ علىٰ زملائه التلاميذ ممّا عنده من علم ومعرفة. كان مؤدّباً جدّاً يحترم معلّميه وزملاءه، ويفرض احترامه علىٰ الجميع، وكثيراً ما كنّا نفتقده متغيّباً لشهر أو حواليه من المدرسة، ثُمَّ إذا به

يحضر عند الامتحان، فيؤدّيه، فينال الدرجة العليا، ولو كانت هناك درجة أعلىٰ، لاستحقها بجدارة..وكنّا عند تغيّبه نستفهم من الإدارة عن السبب، فيكون الجواب الذي اعتدناه: أنّه يحضر دروساً خاصّة تشغله عن حضور المدرسة. كنّا نختاره وخاصّةً مدرّس الدروس الدينيّة في درس الصلاة إماماً يؤمّ زملاءه في الصلاة، فكان واللّهِ جديراً بها يؤدّيها بخشوع العابد الزاهد المتوجّه إلىٰ ربّه العليّ الكريم. وكان يختار من بين طلّاب كلّ المدرسة؛ لإلقاء القصائد والكلمات في الصحن الكاظميّ الشريف منذ كان في الصفّ الثاني الابتدائيّ، وذلك في موكب العزاء الذي اعتادت المدرسة أن تنظّمه كلّ عام.

وليس عجيباً علىٰ مثل هذا الطفل أن يستظهر قصيدة تضمّ ثلاثين بيتاً أو أكثر، أو كلمة عن ظهر قلب خلال ربع ساعة بعدها يتلوها علينا بكلّ فصاحة متجنّباً اللّحن حتّى إذا قرئت له ملحونة.

كان شعلة ذكاء، وقدوة أدب، ومثال خلق قويم، ونفس مستقيمة. ما فاه والله بحياته في المدرسة بكلمة إلّا وبعثت في نفس سامعها النشوة والحُبُور، وما التقت عيناه لفرط خجله مرّة عيني أحد مدرّسيه، فهو لايحدّث إلّا ورأسه منحنٍ، وعيناه مسبلتان. أحببته طفلاً صغيراً بريئاً، وأجللت فيه شيخاً كبيراً، لما ألمّ به من علم ومعرفة، حتّى إنّني قلت له ذات يوم: إنّني أتوقّع أن يأتي يوم ننهل فيه من علمك ومعرفتك، ونهتدي بأفكارك وآرائك، فكان جوابه بكلّ أدب واحترام، وقد علت وجهه حمرة الخجل: عفواً أُستاذ، فأنا لاأزال وسأبقى تلميذكم وتلميذ كلّ من أدّبني وعلّمني في هذه

المدرسة، وسأبقى تلميذكم المَدين إليكم بتعليمي وتثقيفي.

ثُمَّ ختم الرجل حديثه بقوله: أتريدني بعد كلّ هذا أن لاأحزن عليه حزن الثاكل. ولكنّ الذي يبعث لنا السلوى، ويمكّننا من الصبر، ويسري عن نفوسنا أنّه ترك لنا أسفاراً يحدّثنا فيها. فهو اليوم في كلّ بيت من بيوتنا مقيم بين صفحات كتبه ومؤلّفاته نحدّثه ويحدّثنا عن آرائه وأفكاره العلميّة الخالدة وصوره المطبوعة في قلوبنا. فرحمه الله، ويا ليتنا كنّا أو سنكون بركبه سائرين. وأنهى الحديث بآهة ودمعة انحدرت من عينيه».

الآن حان لنا أن نمضي مع حياة هذا الطالب؛ كي نرىٰ ماذا جرىٰ بعد خروجه من المدرسة الابتدائيّة.

ونعود هنا مرّة أُخرىٰ إلىٰ ما استفدناه من رسالة المرحوم السيّد عبدالغني الأردبيليّ:

قرأ في الحادية عشرة من عمره المنطق، وكتب رسالة في المنطق يعترض فيها باعتراضات علىٰ بعض الكتب المنطقيّة.

وقد قرأ أكثر الأبحاث المسمّاة بالسطح العالي بلا أُستاذ.

وفي أوائل الثانية عشرة من عمره درس معالم الأُصول علىٰ يد أخيه المرحوم السيّد إسماعيل، وكان من شدّة ذكائه يعترض علىٰ صاحب المعالم بإيرادات وردت في الكفاية.

منها: أنّه ورد في بحث الضد في كتاب المعالم الاستدلال علىٰ حرمة الضدّ بأنّ ترك أحدهما مقدّمة للآخر، فاعترض عليه شهيدنا الصدر بقوله: «إذن يلزم الدور».

فقال له المرحوم السيّد إسماعيل: هذا ما اعترض به صاحب

الكفاية علىٰ صاحب المعالم.

هاجر الأُستاذ الشهيدﷺ في سنة (١٣٦٥ هـ) من الكاظميّة إلىٰ النجف الأشرف وتتلمذ علىٰ يدي علمين من أعلام النجف:

١ ـ آية الله الشيخ محمّدرضا آل ياسينﷺ.

٢ ـ آية الله السيّد أبو القاسم الخوئي الذي مازال يعيش الآن في النجف الأشرف.

وكان يحضر معه درس المرحوم آل ياسين ثلّة من العلماء الأكابر أمثال:

١ ـ آية الله الشيخ صدرا البادكوبيّ.

٢ ـ وآية الله الشيخ عباس الرميثيّ.

٣ ـ وآية الله الشيخ طاهر آل راضي.

٤ ـ وحجّة الإسلام والمسلمين السيّد عبدالكريم علي خان.

٥ ـ وحجّة الإسلام والمسلمين السيّد محمّدباقر الشخص.

٦ ـ وحجّة الإسلام والمسلمين السيّد إسماعيل الصدر.

وآخرين من أهل الفضل والعلم.

وقد انتهى بحث الشيخ آل ياسين يوماً إلىٰ مسألة أنّ الحيوان هل يتنجّس بعين النجس، ويطهر بزوال العين، أو لايتنجّس بعين النجس؟ فذكر الشيخ آل ياسينﷺ: أنّ الشيخ الأنصاريّﷺ ذكر في كتاب الطهارة: أنّ هنا ثمرةً في الفرق بين القولين تظهر بالتأمّل. وقال الشيخ آل ياسينﷺ: إنّ أُستاذنا المرحوم السيّد إسماعيل الصدر حينما انتهى بحثه إلىٰ هذه المسألة، طلب من تلاميذه أن يبيّنوا ثمرة الفرق بين القولين، فبيّنّا له ثمرة في ذلك. وأنا الآن أطلب منكم أن

تأتوا إليّ غداً بعد التفكير والتأمّل بثمرة القولين.

فحضر شهيدنا الصدر ﷺ في اليوم التالي قبل الآخرين لدىٰ أُستاذه، وقال: إنّي جئت بثمرة للقولين، فتعجّب الشيخ آل ياسين من ذلك؛ لأنّ صغر سنّه ـ وقتئذٍ ـ كان يوحي إلىٰ الشيخ آل ياسين أنّ حضوره مجلس الدرس ليس حضوراً اكتسابيّاً بالمعنى الحقيقي للكلمة، وإنّما هو حضور ترفيهيّ. فذكر شهيدنا الصدر ﷺ ما لديه من الثمرة ممّا أدهش الأُستاذ آل ياسين؛ لفرط ذكاء هذا التلميذ الصغير، ونبوغه، وقال له: أعد بيان الثمرة لدىٰ حضور باقي الطلّاب.

وحينما حضر الطلّاب الآخرون، طالبهم الشيخ الأُستاذ بالثمرة، فلم يتكلّم منهم أحد، فقال الشيخ: إنّ السيّد محمّدباقر الصدر أتى بثمرة للخلاف غير الثمرة التي نحن أتينا بها إلىٰ أُستاذنا. وهنا يبيّن شهيدنا الصدر ما لديه من الثمرة، ويثير إعجاب الحاضرين، ويعرف من ذلك الحين لدىٰ أكابر الحوزة العلميّة بالذكاء، والنبوغ العلميّ.

قال أخوه المرحوم السيّد إسماعيل الصدر ﷺ: «سيّدنا الأخ بلغ ما بلغ في أوان بلوغه».

وفي سنة (١٣٧٠ هـ) تُوفّي الشيخ آل ياسين ﷺ. وعلّق المرحوم الشيخ عبّاس الرميثيّ بتعليقته علىٰ رسالة الشيخ آل ياسين المسمّاة ببلغة الراغبين؛ ولفرط اعتقاده، وشدّة إيمانه بذكاء شهيدنا الصدر ونبوغه طلب منه أن يحضر مجلس التحشية، فلبّى الشهيد دعوة أُستاذه، واشترك في مجلس التحشية. وقد كتب شهيدنا الصدر ـ وقتئذٍ ـ تعليقة علىٰ بلغة الراغبين أيضاً. وكان يقول له الشيخ عبّاس الرميثيّ في ذاك التأريخ: إنّ التقليد عليك حرام.

وقد حضر شهيدنا الغالي من سنة (١٣٦٥ هـ) درس أُستاذه آية الله الخوئيّ فقهاً وأُصولاً، وأنهى تحصيلاته الأُصوليّة في سنة (١٣٧٨ هـ)، والفقهيّة في سنة (١٣٧٩ هـ).

وكانت مدّة تحصيلاته العلميّة من البداية إلىٰ النهاية نحو سبع عشرة سنة، أو ثماني عشرة سنة. ولكنّ هذه المدّة علىٰ رغم قصرها زمناً كانت في واقعها مدّة واسعة؛ إذ إنّ شهيدنا الصدر﵀ كان يستثمر من كلّ يوم ست عشرة ساعة؛ لتحصيل العلم، فمن حين استيقاظه من النوم في اليوم السابق إلىٰ ساعة النوم في اليوم اللّاحق كان يلاحق المطالعة والتفكير عند قيامه وقعوده ومشيه.

بدأ شهيدنا الصدر﵀ بتدريس خارج الأُصول في سنة (١٣٧٨ في يوم الثلاثاء ١٢ / جمادىٰ الآخرة)، وأنهى الدورة الأُولى في يوم الثلاثاء (١٢ / ربيع الآخر / ١٣٩١ هـ)، وكانت آخر كلماته في البحث ما يلي:

«وبهذا انتهىٰ الكلام في هذا التنبيه، وبه انتهىٰ الكلام في مبحث التعادل والتراجيح، وبه انتهت هذه الدورة من علم الأُصول».

وبدأ الشهيد بتدريس خارج الفقه علىٰ نهج العروة الوثقى في سنة (١٣٨١ هـ).

إلى هنا انتهىٰ ما استفدناه من رسالة المرحوم السيّد عبدالغني الأردبيليّ﵀.

ذكريات

عن حياة شهيدنا الصدر قدس سره

١ ـ حدّثني ﷺ ذات يوم: أنّه حينما كتب كتاب (فلسفتنا) أراد طبعه باسم جماعة العلماء في النجف الأشرف بعد عرضه عليهم متنازلاً عن حقّه في وضع اسمه الشريف علىٰ هذا الكتاب، إلّا أنّ الذي منعه عن ذلك أنّ جماعة العلماء أرادوا إجراء بعض التعديلات في الكتاب، وكانت تلك التعديلات غير صحيحة في رأي أُستاذنا الشهيد ﷺ، ولم يكن يقبل بإجرائها فيه، فاضطرّ أن يطبعه باسمه.

قال ﷺ: إنّي حينما طبعت هذا الكتاب لم أكن أعرف أنّه سيكون له هذا الصيت العظيم في العالم، والدويّ الكبير في المجتمعات البشريّة ممّا يؤدّي إلىٰ اشتهار من ينسب إليه الكتاب. وها أنا ذا أُفكّر فيما إذا كنت مطّلعاً علىٰ ذلك، وعلى مدىٰ تأثيره في إعلاء شأن مؤلّفه لدىٰ الناس، فهل كنت مستعدّاً لطبعه باسم جماعة العلماء، وليس باسمي ـ كما كنت مستعدّاً لذلك ـ أو لا؟ وأكاد أبكي خشية أنّي لو كنت مطّلعاً علىٰ ذلك لم أكن أستعدّ لطبعه بغير اسمي.

رحمك الله يا أبا جعفر، وهنيئاً لك علىٰ هذه الروح الطاهرة، والمعنويّات العالية العظيمة، في حين كنت تعيش في مجتمع يتكالب أكثر أبنائه علىٰ سفاسف الدنيا، أو زعاماتها، أو كسب مديح الناس وثنائهم، أو جمع ما يمكنهم من حطام الدنيا ونعيمها من حلال أو حرام.

٢ ـ انفصل أحد طلّابه عن درسه، وعن خطه الفكريّ الإسلاميّ، ثُمَّ بدأ يشتمه، وينال منه في غيابه إزاء الناس، وكان كثير من كلماته تصل إلىٰ مسامع أُستاذنا العظيمﷺ، وكنت ذات يوم جالساً بحضرته الشريفة، فجرىٰ الكلام عن هذا الطالب الذي ذكرناه، فقالﷺ: أنا ما زلت أعتقد بعدالة هذا الشخص، وأنّ ما يصدر عنه ناتج من خطأٍ في اعتقاده، وليس ناتجاً من عدم مبالاته بالدين.

٣ ـ ذكرﷺ ذات يوم لصفوة طلّابه: أنّ ما تعارفت عليه الحوزة من الاقتصار علىٰ الفقه والأُصول غير صحيح، ويجب عليكم أن تتثقّفوا بمختلف الدراسات الإسلاميّة، وأمرهم بمباحثة كتاب (فلسفتنا) فيما بينهم، فعقدوا بحثاً في بيتي الواقع ـ وقتئذٍ ـ في النجف الأشرف في الشارع الثاني ممّا كان يسمى بـ(الجُديدة). وفي أوّل يوم شرعوا في المباحثة وجدنا طارقاً يطرق الباب، فتحت له الباب وإذا بأُستاذنا الشهيدﷺ قد دخل، وحضر المجلس، وقال: إنّني إنّما حضرت الآن هذا المجلس؛ لأنّي أعتقد أنّه لايوجد الآن مجلس أفضل عند الله من مجلسكم هذا الذي تتباحثون فيه في المعارف الإسلاميّة، فأحببت أن أحضر هذا المجلس الذي هو أفضل المجالس عند الله.

هكذا كان يشوّق طلّابه، ويرغّبهم في تكميل أنفسهم في فهم المعارف الإسلاميّة، وهو الأب الرؤوف والعطوف الحنون علىٰ طلّابه. فوالله إنّنا قد أُيتمنا بفقد هذا الأب الكبير، فلعن الله من أيتمنا، وفجع الأُمّة الإسلاميّة بقتل هذا الرجل العظيم. اللّهمّ، مزّق الذين

شاركوا في دمه الطاهر تمزيقاً، واجعلهم طرائق قدداً، وأرِنا ذلّهم في الدنيا قبل الآخرة، وزدهم عذاباً فوق العذاب، إنّك أنت السميع المجيب.

٤ ـ حضرت بحثه في أوائل أيّام تعرّفي به في بحث الترتّب، ولم يكن ذلك منّي بنيّة الاستمرار، وبعد إنهائه لبحث الترتّب صمّمت علىٰ ترك الحضور؛ لبعض المشاكل الحياتيّة والصحّيّة التي كانت تمنعني من الاستمرار. فاطّلع ـ رضوان الله عليه ـ علىٰ تصميمي هذا، فطلب منّي أن أعدل عن هذا التصميم، وأستمرّ في الحضور في بحثه الشريف، وقال: أنا أضمن لك أنّك لو بقيت مستمرّاً في هذا البحث مدّة خمس سنين ستكون مجتهداً، فشرحت له بعض المشاكل التي كانت تحيط بي، والتي تمنعني عن الحضور. فتركت الحضور برهةً من الزمن إلىٰ أن انتهت تلك المشاكل المانعة، فاستأنفت مرّةً أُخرىٰ الحضور في بحثه الشريف، وحينما مضى علىٰ حضوري في بحثه الشريف خمس سنين أو أكثر تشرّفت بالحضور لدى الأُستاذ ذات يوم، وقلت له: أنت وعدتني بأنّي لو حضرت البحث خمس سنين سأكون مجتهداً، وها هو الحضور بهذا المقدار قد حصل، ولم يحصل الاجتهاد؟ فأجابني ـ رضوان الله عليه ـ بأنّ مفهوم الاجتهاد قد تغيّر عندك، فالاجتهاد بالمستوىٰ المتعارف عليه في الحوزة العلميّة قد حصل، ولكنّك تريد الاجتهاد علىٰ مستوىٰ هذا البحث. وبقيت مستمرّاً في بحثه الشريف إلىٰ أن قدّر الله لي الهجرة إلىٰ إيران.

٥ ـ رأيت ذات ليلة في عالم الرؤيا أنّ نبيّاً من الأنبياء عليهم السلام قد حضر بحث أُستاذنا قدس سره. وتشرّفت بعد هذا ذات يوم بلقاء أُستاذنا الشهيد في بيته الذي كان واقعاً ـ وقتئذٍ ـ في شارع الخَورنق، وحكيت له الرؤيا، فقال رحمه الله لي: إنّ تعبير هذه الرؤيا هو أنّني لن أُوفّق لتطبيق رسالتي التي نذرت نفسي لأجلها، وسيأتي تلميذ من تلاميذي يكمل الشوط من بعدي. ذكر ـ رضوان الله عليه ـ هذا الكلام في وقت لم يكن يخطر بالبال أنّه ستأتي ظروف تؤدّي إلىٰ استشهاده.

٦ ـ كان يقول ـ رضوان الله عليه ـ: إنّني في أيّام طلبي للعلم كنت أعمل في ذلك كلّ يوم بقدر عمل خمسة أشخاص مجدّين.

٧ ـ وقال ـ أيضاً رحمه الله ـ: إنّني كنت أعيش في منتهى الفقر والفاقة، ولكنّني كنت أشتغل منذ استيقاظي من النوم في كلّ يوم بطلب العلم، ناسياً كلّ شيء، وكلّ حاجة معيشيّة إلىٰ أن كنت أُفاجأ من قبل العائلة بمطالبتي بغذاء يقتاتون به فأحتار ـ عندئذٍ ـ في أمري.

٨ ـ أدركت الأُستاذ الشهيد رحمه الله فيما بعد أيّام فقره وفاقته حينما كان مدرّساً معروفاً في الحوزة العلميّة في النجف الأشرف، ومع ذلك كان يعاني الضيق المالي، وكان يدرّسنا في مقبرة آل ياسين في حرّ الصيف، ولم تكن وسيلة تبريد في تلك المقبرة، ولم يمتلكها في بيته أيضاً. وكان المتعارف ـ وقتئذٍ ـ في النجف الأشرف عدم وجود عطلة صيفيّة لطلّاب الحوزة العلميّة، فالطلبة كانوا يدرسون حتّى في قلب الحرّ الشديد.

ولا أنسىٰ أنّ المرحوم السيّد عبدالغنيّ الأردبيليّ تشرّف ذات يوم بخدمته في بيته الواقع في محلّة العمارة فيما بعد الزقاق المسمّىٰ بـ(عقد الإسلام)، وقال له: إنّ الحرّ شديد، وطلّابك يعانون الحرّ في ساعة الدرس في مقبرة آل ياسين، فأذن لنا بشراء مبرّدة نضعها في المقبرة؛ لتبريد الجوّ، ولي صديق من التركمان في شمال العراق من بيّاعي المبرّدات، وهو مستعد لتزويدكم بمبرّدة بسعر التكْلِفَة، وهو سعر يسير، ويقسّط السعر عليكم أشهراً عديدة، ولايأخذ منكم في كلّ شهر عدا دينارين، فسكت أُستاذنا الشهيد خجلاً وحياءً من أن يقول: إنّ وضعي الاقتصاديّ لايسمح بهذا. ولكن المرحوم السيّد عبدالغنيّ اعتقد أنّ السكوت من الرضا، فاستورد مبرّدة، ووضعها في المقبرة، ثُمَّ أخبر أُستاذنا الشهيد بما فعل، فرأيت وجه أُستاذنا قد تغيّر حيرة في كيفية دفع هذا المبلغ اليسير، إلّا أنّ المرحوم السيّد عبدالغنيّ لم ينتبه إلىٰ ذلك، وعلىٰ أيّ حالٍ، فقد التزم أُستاذنا الشهيد بدفع المبلغ. ولاأعرف كيف كان يؤمّن ما عليه، إلّا أنّني كنت أعلم أنّه كان يدفع كلّ شهر دينارين إلىٰ السيّد عبدالغنيّ؛ كي يدفعهما إلىٰ صاحبه أداءً للدين.

٩ـ تربيته لأطفاله، كان يقول: إنّ تربية الطفل بحاجة إلىٰ شيء من الحزم والخشونة من ناحية، وإلى اللين والنعومة وإبراز العواطف من ناحية أُخرىٰ. وقد تعارف عندنا في العوائل أنّ الأب يقوم بالدور الأوّل، والأُمّ تقوم بالدور الثاني. قال: ولكنّني اتّفقت مع (أُمِّ مرام) علىٰ عكس ذلك، فطلبت منها أن تقوم بدور الحزم

والخشونة مع الأطفال لدىٰ الحاجة؛ كي أتمحّض أنا معهم في أُسلوب العواطف، واللّين، وإبراز الحبّ والحنان؛ والسبب في ذلك أنّه كان يرىٰ نفسه أقدر علىٰ تربية أطفاله علىٰ العادات والمفاهيم الإسلاميّة، فكان يريد للأطفال أن لايروا فيه عدا ظاهرة الحبّ والحنان؛ كي يقوىٰ تأثير ما يبثّه في نفوسهم من القيم والأفكار، فلابدّ للتربية من خشونة وصلابة عن طريق الأُمّ حيث تقتضي ذلك.

كان يقول﵀: إنّي نفثت في نفس ابنتي مرام ـ وكانت وقتئذٍ طفلة صغيرة ـ الحقد علىٰ الصهاينة، قال: قد صادف أن حدّثتها ذات يوم عن ظلمهم للمسلمين من قتل، أو قصف، فبان عليها انكسار الخاطر، وتكدّر العيش، فأردفت ذلك بذكر قِصّة أُخرىٰ من حكايات قصف المسلمين لإسرائيل، فاهتزّت فرحاً، وضحكت، واستبشرت لتلك القِصّة.

وكثيراً ما كان يصل إليه﵀ من الحقوق الشرعيّة ما يصل عادة إلىٰ يد المراجع، ولكنّه﵀ قال: إنّي فهّمت ابنتي مرام أنّ هذه الأموال الموجودة لدينا ليست ملكاً لنا، فكانت هذه الطفلة البريئة تقول أحياناً: إنّ لدىٰ والدي الأموال الكثيرة، ولكنّها ليست له؛ ذلك لكي لاتتربّى علىٰ توقّع الصرف الكثير في البيت، بل تتربّى علىٰ القناعة، وعدم النظر إلىٰ هذه الأموال كأملاك شخصيّة.

١٠ ـ في الفترة التي عيّنت حكومة البعث الغاشم ستّة أيّام لتسفير الإيرانيين بما فيهم طلّاب الحوزة العلميّة من النجف إلىٰ إيران رأيت أحد طلبة العلوم الدينيّة في النجف الأشرف مودّعاً لأُستاذنا

الشهيد، فرأيت الأُستاذ يبكي في حالة وداعه إيّاه بكاء الثكلى علىٰ رغم من أنّه كان يعرف أن هذا الرجل يعدّ في صفوف المناوئين له.

١١ ـ وبعد تلك الأيّام حدّثني الأُستاذ ذات يوم، فقال: إنّني أتصوّر أنّ الأُمّة مبتلاة اليوم بالمرض الذي كانت مبتلاة به في زمن الحسين، وهو مرض فقدان الإرادة، فالأُمّة تعرف حزب البعث والرجال الحاكمين في العراق، ولاتشكّ في فسقهم، وفجورهم، وطغيانهم، وكفرهم، وظلمهم للعباد، ولكنّها فقدت قوّة الإرادة التي بها يجب أن تصول وتجاهد في سبيل الله إلىٰ أن تسقط هذه الزمرة الكافرة عن منصب الحكم، وترفع جاثوم هذا الظلم عن نفسها. وعلينا أن نعالج هذا المرض؛ كي تدبَّ حياة الإرادة في عروق هذه الأُمّة الميّتة؛ وذلك بما عالج به الإمام الحسين مرض فقدان الإرادة في نفوس الأُمّة وقتئذٍ، وهو التضحية الكبيرة التي هزّ بها المشاعر، وأعاد بها الحياة إلىٰ الأُمّة إلىٰ أن انتهى الأمر بهذا السبب إلىٰ سقوط دولة بني أُميّة.

فعلينا أن نضحّي بنفوسنا في سبيل الله، ونبذل دماءنا بكلّ سخاء في سبيل نصرة الدين الحنيف، والخطّة التي أرىٰ ضرورة تطبيقها اليوم هي: أن أجمع ثلّة من طلاّبي ومن صفوة أصحابي الذين يؤمنون بما أقول، ويستعدّون للفداء، ونذهب جميعاً إلىٰ الصحن الشريف متحالفين فيما بيننا علىٰ أن لانخرج من الصحن أحياء، وأنا أقوم خطيباً فيما بينهم ضدّ الحكم القائم، ويدعمني الثلّة الطيّبة الملتفّة حولي، ونثور بوجه الظلم والطغيان، فسيجابهنا جمع من

الزمرة الطاغية، ونحن نعارضهم (ولعلّه قال: ونحمل السلاح) إلىٰ أن يضطرّوا إلىٰ قتلنا جميعاً في الصحن الشريف. وسأستثني ثـلّة مـن أصحابي عن الاشتراك في هذه المعركة؛ كي يبقوا أحياءً من بعدي، ويستثمروا الجوّ الذي سيحصل نتيجة هذه التضحية والفداء.

قال﵀: إنّ هذا العمل مشروط في رأيي بشرطين:

الشرط الأوّل: أن يوجد في الحوزة العلميّة مستوىً من التـقبّل لعمل من هذا القبيل. أمّا لو أطبقت الحوزة العلميّة علىٰ بطلان هـذا العمل، وكونه عملاً جنونيّاً، أو مخالفاً لتقيّة واجبة، فسوف يفقد هذا العمل أثره في نفوس الأُمّة، ولا يعطي ثماره المطلوبة.

والشرط الثاني: أن يوافق أحد المراجع الكبار مسبقاً علىٰ هـذا العمل؛ كي يكتسب العمل في ذهن الأُمّة الشرعيّة الكاملة.

فلابدّ من الفحص عن مدىٰ تواجد هذين الشرطين:

أمّا عن الشرط الأوّل، فصمَّم الأُستاذ﵀ علىٰ أن يبعث رسولاً إلىٰ أحد علماء الحوزة العلميّة؛ لجسّ النبض، ليعرض عليه هذه الفكرة، ويستفسره عن مدىٰ صحّتها، وبهذا الأُسلوب سيعرف رأي عالمٍ من العلماء كنموذج لرأي يوجد في الحوزة العلميّة. وقد اختار﵀ بـهذا الصدد إرسال سماحة الشيخ محمّد مهدي الآصفي ـ حفظه الله ـ إلىٰ أحد العلماء، وأرسله بالفعل إلىٰ أحدهم؛ كي يعرض الفكرة عـليه، ويعرف رأيه، ثُمَّ عاد الشيخ إلى بيت أُستاذنا الشهيد، وأخبر الأُستاذ بأنّه ذهب إلىٰ ذاك العالم في مجلسه، ولكنّه لم يعرض عليه الفكرة؛ وكان السبب في ذلك أنّه حينما دخل المجلس رأىٰ أنّ هذا الشخص

مع الملتفّين حوله قد سادهم جوّ من الرعب والانهيار الكامل نتيجة قيام الحكومة البعثيّة بتسفير طلبة الحوزة العلميّة، ولاتوجد أرضيّة لعرض مثل هذه الفكرة عليه إطلاقاً.

وأمّا عن الشرط الثاني، فرأىٰ أُستاذنا الشهيد أنّ المرجع الوحيد الذي يترقّب بشأنه أن يوافق علىٰ فكرة من هذا القبيل هو الإمام الخمينيّ ـ دام ظلّه ـ الذي كان يعيش ـ وقتئذٍ ـ في النجف الأشرف، فلايصحّ أن يكون هذا العمل من دون استشارته، فذهب هو إلىٰ بيت السيّد الإمام، وعرض عليه الفكرة مستفسراً عن مدىٰ صحّتها، فبدا علىٰ وجه الإمام ـ دام ظلّه ـ التألّم، وأجاب عن السؤال بكلمة (لا أدري). وكانت هذه الكلمة تعني: أنّ السيّد الإمام ـ دام ظلّه ـ كان يحتمل أن تكون الخسارة التي ستوجّه إلىٰ الأُمّة من جرّاء فَقْدِ هذا الوجود العظيم أكبر ممّا قد يترتّب علىٰ هذا العمل من فائدة.

وبهذا وذاك تبيّن أنّ الشرطين مفقودان، فعدل أُستاذنا الشهيد عن فكرته، وكان تأريخ هذه القِصّة بحدود سنة (١٣٩٠ أو ١٣٩١ هـ).

١٢ ـ كان الأُستاذ الشهيد يصلّي في الحسينيّة الشوشتريّة صلاة الجماعة إماماً، فاتّفق ذات يوم أنّه غاب عن صلاة الجماعة؛ لعذر له، فطلب جمع من المؤمنين من السيّد محمّد الصدر ابن المرحوم السيّد محمّد صادق الصدر أن يؤمّ الناس في ذاك اليوم بدلاً عن الأُستاذ، فاستجاب السيّد محمّد الصدر لطلب المؤمنين (وهو من حفدة عمّ الشهيد الصدر ومن تلامذته، وكان معروفاً بالزهد، والورع، والتقوىٰ)، فصلّى الناس خلفه جماعة، ثُمَّ اطّلع أُستاذنا

الشهيد﵀ علىٰ ذلك، فبان عليه الأذىٰ، ومنع السيّد محمّد الصدر عن أن يتكرّر منه هذا العمل. وكان السبب في ذلك ـ علىٰ رغم علمه بأنّ حفيد عمّه أهلٌ، ومحلّ لإمامة الجماعة ـ أنّه تعارف لدىٰ قسم من أئمّة الجماعة الاستعانة في غيابهم بنائب عنهم يختار من أقربائهم أو أصحابهم، لالنكتة موضوعيّة، بل لأنّه من أقربائه أو أصحابه، فقد يُحمل ما وقع من صلاة حفيد العمّ في نظر الناس غير المطّلعين علىٰ حقيقة الأمر علىٰ هذا المحمل، في حين أنّه لابدّ من كسر هذه العادة، وحصر إمامة الجماعة في إطار موضوعيّ صحيح، وتحت مقياس دقيق تلحظ فيه مصالح الإسلام والمسلمين، زائداً علىٰ الشرائط الأوّليّة الفقهيّة لإمامة الجماعة، فلهذا منع حفيد العمّ عن هذا العمل مادام قابلاً في نظر الناس لتفسير غير صحيح علىٰ رغم علمه بتحقيق الشرائط والمصالح فيه.

١٣ ـ حدّثني الأُستاذ﵀ أنّه كان في فترة من الزمن أيّام طلبه للعلم يتشرّف بالذهاب يوميّاً ساعة في اليوم إلىٰ الحرم الشريف بغرض أن يفكّر في تلك الساعة في المطالب العلميّة، ويستلهم من بركات الإمام أمير المؤمنين﵇، ثُمَّ قطع هذه العادة، ولم يكن أحد مطّلعاً عليها، وإذا بامرأة في بيت الأُستاذ، ولعلّها والدته الكريمة ـ والشكّ والترديد منّي، وليس من الأُستاذ﵀ ـ رأت في عالم الرؤيا أمير المؤمنين﵇ يقول لها ما مضمونه: قولي لباقر: لماذا ترك درسه الذي كان يتتلمذ به لدينا؟!

١٤ ـ رأىٰ أحد طلّابه ذات يوم في عالم الرؤيا أنّه يمشي هو

وزميل آخر له من طلّاب السيّد الشهيد بخدمة الأُستاذ في طريقهم إلىٰ مقصد ما، وإذا بحيوانات مفترسة هجمت علىٰ السيّد الشهيد كي تفترسه، ففرّ الزميلان من بين يديه، وجاء ناس آخرون التفّوا حول الأُستاذ؛ كي يحموه من تلك السباع. فحدّث هذا الطالب بعد ذلك أُستاذنا الشهيد برؤياه، فقال له الأُستاذ ﷺ: إنّ تعبير رؤياك أنّكما ستنفصلان، وتبتعدان عنّي، ويأتي ناس آخرون يلتفّون حولي، ويكونون رفاقي في الطريق. وكان هذا الكلام غريباً علىٰ مسامع ذاك الطالب؛ لأنّه وزميله كانا آنذاك من أشدّ المعتقدين بالأُستاذ وأكثر صحبة له، ولكن ما مضت الأيّام والليالي إلّا وابتعدا عن الأُستاذ: (أحدهما بالسفر، والآخر بترك الدرس علىٰ رغم وجوده في النجف).

١٥ ـ سألت الأُستاذ ﷺ ذات يوم عن أنّه هل قلّد في حياته عالماً من العلماء، أو لا؟ فأجاب ـ رضوان الله عليه ـ بأنّي قلّدت قبل بلوغي سنّ التكليف المرحوم الشيخ محمّدرضا آل ياسين، أمّا من حين البلوغ فلم أُقلّد أحداً. ولاأذكر أنّه قال: كنت من حين البلوغ أعمل برأيي، أو قال: كنت بين العمل بالاحتياط والعمل بالرأي.

١٦ ـ حدّثني ـ رضوان الله عليه ـ بعد رجوع المرحوم آية الله العظمىٰ السيّد الحكيم ﷺ من لندن، إذ كان ذاهباً إلىٰ لندن في أواخر حياته للعلاج: أنّه رأىٰ ذات يوم آية الله الحكيم قبل مرضه في حرم الإمام أمير المؤمنين ﷺ، فألهم أُستاذُنا ﷺ أنّ هذه آخر رؤية له للسيّد الحكيم، ولن يتوفّق لرؤيته مرّة أُخرىٰ إلىٰ أن يُتوفّى السيّد

الحكيم. وبعد ذلك بأيّام قلائل تمرّض السيّد، واستمرّ به المرض إلىٰ أن ذهبوا به إلىٰ لندن للعلاج، ولم يشف من مرضه، وحينما رجع السيّد من لندن إلىٰ مطار بغداد، وفي أثناء نزوله من سلّم الطائرة حاول أُستاذنا أن يلقي نظرةً علىٰ السيّد الحكيم؛ ليثبت بذلك أنّ ما أُلهم به كان وهماً لاقيمة له، فيأمل أن يشفى السيّد من مرضه، ويعيش صحيحاً سالماً، إلّا أنّه لم يوفّق الأُستاذ لرؤية السيّد إلىٰ أن توفّي بنفس المرض، قدّس الله روحه الزكيّة.

١٧ ـ زار (زيد حيدر) عضو القيادة القوميّة في حزب البعث السيّد الشهيد ذات يوم بصحبة (عبدالرزّاق الحبّوبيّ)[١]، وتكلّم الأُستاذ الشهيد معه في جملةٍ من المؤاخذات علىٰ الدولة بالقدر الذي كانت الظروف تسمح بالكلام معه فيها، وكان يعتبر هذا في تلك الأحوال موقفاً جريئاً من الأُستاذ، وقد حضر المجلس ثلّة من طلّاب السيّد الشهيد وأصحابه، وكنت أنا أحد الحضّار، ولكن بما أنّ طول الزمان أنساني أكثر مضامين ما دار في تلك الجلسة أكتب هنا ما كتبه أبو محمّد(الشيخ عبد الحليم) حفظه الله، ولم يكن ـ وقتئذٍ ـ حاضراً في المجلس، ولكنّ الأُستاذ الشهيد قصّ عليه القِصّة. قال الشيخ عبد الحليم:

«تحدّث السيّد الشهيد قبالي عن طبيعة الحديث الذي دار بينه وبين زيد حيدر وكان الحبّوبيّ حاضراً، قال: دخلت الغرفة وكان

---

(١) كان عبدالرزّاق الحبّوبيّ ـ وقتئذٍ ـ محافظ كربلاء، أو قائمّقام النجف.

فيها زيد حيدر، وبعد دقائق دخل الحبّوبيّ الغرفة، فسلّم عليّ، وابتسم كأنّه كان مستحياً؛ لأنّه كان يصلّي في الغرفة الثانية، ويتظاهر بالخجل من تأخيرها إلى ذلك الوقت عصراً. وبدأت الحديث مع زيد بحضور الحبّوبيّ، وشرحت دور الحوزة العلميّة والعلماء في تحريك الأُمّة، وفي تربية الأُمّة، فعلماء الدين الشيعة يختلفون عن علماء المسيحيّة مثلاً؛ إذ إنّ الأُمّة مرتبطة بالعالم الشيعيّ، وبدأتُ بسرد الأحداث التأريخيّة التي تدلّ على دور العلماء، فثورة العشرين اختلط فيها دم العالم بدم العامل والفلّاح ودم الأُمّة والشعب حيث قاد العلماء الثورة. والسيّد شرف الدين قاوم الاستعمار الفرنسيّ في لبنان، وبعد ذلك تعرّض لحرق مكتبته وكتبه المخطوطة وغيرها، وكانت عصارة جهده، وعصارة حياته، وأعزّ شيء عنده (وكذلك على ما أتذكر أنّه ذكر قِصّة التنباك)، ثُمَّ عرَّجت على دور الحوزة العلميّة في الوقت الحاضر، وذكرت له أنّ كثيراً من أبناء الشعب يراجعونني في جواز أو حرمة التأخّر عن الدوام الرسميّ، فإذا أفتيت لهم بالجواز أو الحرمة، فإنّه يؤثّر بالدولة، وكذلك يسألني الكثير من المقلّدين في مسألة جواز سرقة أموال الدولة؟ فإذا أفتيت بالجواز، فسوف يؤثّر بالدولة، و... ثُمَّ بيّنت أنّ الدولة حاليّاً لا تتعاون مع العلماء حتّى في المسائل الشرعيّة؛ فإنّ مذبحاً كبيراً في بغداد غير موجّه إلى القبلة، وماذا يضرّ الدولة إذا كان المذبح على القبلة؟! في حين أنّه إذا كان الذبح غير شرعيّ فلن يشترى كثيرٌ من اللحوم.

يقول الشهيد﵀: وفي هذا المقطع من الحديث التفت الحبّوبيّ قائلاً: إنّي أتعجّب أن يكون الذبح هنا غير شرعيّ! علماً بأنّي عند ما أُسافر إلىٰ الخارج أُحاول الحصول علىٰ لحم مذبوح علىٰ الطريقة الإسلاميّة، فكيف يكون ذبح العراق غير شرعيّ؟! وبعد ذلك تحدّثت عن محاولة الدولة لشقّ طريق يقتضي بموجبه أو اقتضى تهديم مقام عليّ بن محمّد السمريّ أحد نواب الإمام المهدي﵇، وللشيعة ارتباط تأريخي بهذا المكان، والآن بعض أجزاء مقامه محلّات ودكاكين.

هذا مضمون ما أتذكّر، والله العالم».

انتهى ما كتبه الشيخ عبدالحليم ـ حفظه الله ـ مع تغيير يسير في العبارة.

ومن جملة ما قاله الأُستاذ الشهيد﵀ في حديثه مع زيد حيدر: إنّ الدولة لو أرادت أن تعرف آراء الشعب ونظريّاته، يجب أن تراجع العلماء؛ فإنّهم هم معدن أسرار الأُمّة، ومحطّ ثقتهم، وهم لسان الأُمّة.

وفي نهاية المجلس خاطب الحبّوبيّ زيد حيدر، وقال له: انظر إلىٰ هذا الرجل (يشير إلىٰ السيّد الشهيد الصدر﵀) كيف يتكلّم بكلام لطيف، فلنجعله عالماً للبعثيّين. وهنا ضحك الحضّار، فقال لهم الحبّوبيّ: لماذا تضحكون؟ فقال الأُستاذ الشهيد﵀: أنا عالم المسلمين، ولست عالم البعثيّين.

المقام العلميّ الشامخ لأُستاذنا الشهيد قدس سره

تتميّز الأبحاث العلميّة لأُستاذنا الشهيد من سائر الأبحاث العلميّة المألوفة بالدقّة الفائقة، والعمق الذي يقلّ نظيره من ناحية، وبالسعة والشمول لكلّ جوانب المسألة المبحوث عنها من ناحية أُخرىٰ. حتّى إنّ الباحث الجديد لها قلّما يحصل علىٰ مَنفذٍ للتوسيع أوالتعميق الزائدين علىٰ ما أتىٰ به الأُستاذ.

إضافةً إلىٰ كلّ هذا نرىٰ من مميّزات أُستاذنا العلميّة أنّ أبحاثه لم تقتصر علىٰ ما تعارفت عليه أبحاث العلماء في النجف الأشرف ـ وقتئذٍ ـ من الفقه والأُصول، بل شملت سائر المرافق الفكريّة الإسلاميّة: كالفلسفة، والاقتصاد، والمنطق، والأخلاق، والتفسير، والتأريخ، وفي كلّ مجال من هذه المجالات ترىٰ بحثه مشتملاً علىٰ نفس الامتيازين الملحوظين في أبحاثه الأُصوليّة والفقهيّة: من العمق والشمول.

ففي علم الأُصول نستطيع أن نعتبر المرحلة التي وصل إليها مستوىٰ البحث الأُصوليّ علىٰ يد الأُستاذ عصراً رابعاً من العلم وتطوّراته التي مرّ بها علم الأُصول علىٰ وفق مصطلحات أُستاذنا في كتاب (المعالم الجديدة للأُصول) حيث قسّم ـ رضوان الله عليه ـ الأعصر التي مرّ بها علم الأُصول من المراحل التي بلغ التمايز

النوعيّ فيما بينها إلىٰ ما ينبغي جعله حدّاً فاصلاً بين عصرين، قسّمها إلىٰ ثلاثة أعصر:

الأوّل: ما أسماه بالعصر التمهيديّ، قال: «وهو عصر وضع البذور الأساسيّة لعلم الأُصول، ويبدأ هذا العصر بابن أبي عقيل، وابن الجنيد، وينتهي بظهور الشيخ ﷺ».

والثاني: ما أسماه بعصر العلم، قال: «وهو العصر الذي اختمرت فيه تلك البذور وأثمرت، وتحدّدت معالم الفكر الأُصوليّ، وانعكست علىٰ مجالات البحث الفقهيّ في نطاق واسع. ورائد هذا العصر: هو الشيخ الطوسيّ، ومن رجالاته الكبار: ابن إدريس، والمحقّق الحلّي، والعلّامة، والشهيد الأوّل، وغيرهم من النوابغ».

والثالث: ما أسماه بعصر الكمال العلميّ، قال: «وهو العصر الذي افتتحته في تأريخ العلم المدرسة الجديدة التي ظهرت في أواخر القرن الثاني عشر علىٰ يد الأُستاذ الوحيد البهبهانيّ، وبدأت تبني للعلم عصره الثالث بما قدّمته من جهود متظافرة في الميدانين: الأُصوليّ والفقهيّ».

ثُمَّ قسّم ـ رضوان الله عليه ـ العصر الثالث من عصور علم الأُصول إلىٰ ثلاث مراحل، بإمكانك أن تراجع تفصيل ذلك في المعالم الجديدة، قال ﷺ: «ولا يمنع تقسيمنا هذا لتأريخ العلم إلىٰ عصور ثلاثة إمكانيّة تقسيم العصر الواحد من هذه العصور إلىٰ مراحل من النمو، ولكلّ مرحلة رائدها وموجّهها، وعلىٰ هذا الأساس نعتبر الشيخ الأنصاريّ ﷺ ـ المتوفّىٰ سنة (١٢٨١ هـ ق) ـ

رائداً لأرقى مرحلة من مراحل العصر الثالث، وهي المرحلة التي يتمثّل فيها الفكر العلميّ منذ أكثر من مئة سنة حتّى اليوم».

وقد بيّن ﷺ كلّ هذا بعد توضيح أنّ بذرة التفكير الأُصوليّ وجدت لدىٰ فقهاء أصحاب الأئمّة عليهم السلام منذ أيّام الصادقين عليهما السلام.

أقول: إنْ كان الفارق الكيفيّ بين بعض المراحل وبعض حينما يعتبر طفرة وامتيازاً نوعيّاً في هويّة البحث يجعلنا نصطلح علىٰ ذلك بالأعصر المختلفة للعلم، فالحقّ إنّ علم الأُصول قد مرّ علىٰ يد أُستاذنا الشهيد بعصر جديد، فلو أضفناه إلىٰ الأعصر التي قسّم إليها فترات العلم في المعالم الجديدة، لكان هذا عصراً رابعاً هو عصر ذروة الكمال، ترىٰ فيه من الأبحاث القيّمة والجواهر الثمينة والدرر المضيئة ما يبهر العقول، وهي تشتمل علىٰ مباحث فريدة في نوعها، وفيها ما تكون تارةً جديدة علىٰ الفكر الأُصوليّ تماماً، أي: إنّها لم تبحث من قبل.

وأُخرىٰ تكون مغيّرة لما اختاره الأصحاب في أبحاثهم السابقة ببرهان قاطع وأُسلوب فائق.

وثالثة تكون معدّلةً لنفس ما اختاره الأصحاب، ومُصلحةً له ببيان لم يسبق له نظير.

فمن القسم الأوّل: ما جاء به من البحث الرائع لسيرة العقلاء، وسيرة المتشرّعة، فقد تكرّر لدىٰ أصحابنا المتأخّرين ـ رضوان الله عليهم ـ التمسّك بالسيرة لإثبات حكم ما، ولكن لم يسبق أحد أُستاذنا ﷺ ـ فيما أعلم ـ في بحثه للسيرة، وإبراز أسس كشفها،

والقوانين التي تتحكّم فيها، والنكات التي ينبني الاستدلال بها على أساسها، بأسلوب بديع، ومنهج رفيع، وبيان متين.

ومن هذا القسم ـ أيضاً ـ بحثه القيّم عمّا أسماه بنظريّة التعويض، وقد بحثه في ضمن مباحث حجّيّة خبر الواحد وإن كان أقرب إلى فن البحوث الرجاليّة منه إلى الأُصول، ووضّح فيه كيف أنّنا نعوّض أحياناً المقطع السنديّ المشتمل على الضعف البارز في سند الحديث بمقطع آخر غير بارز لدى الناظر بالنظرة الأوّليّة. وهذا الأمر وإن وجدت بذوره لدى من تقدّم على الأُستاذ ﷺ لم أر أحداً قبله يتعرّض له على مستوى البحث العلميّ، ويدقّق في أُسس هذا التعويض وأقسامه.

ومن القسم الثاني: بحثه البديع في حجّيّة القطع الذي أثبت فيه أنّ رأس الخيط في البحث إنّما هو مولويّة المولى وحدودها، وانحدر من هذا المبدأ إلى الآثار التي تترتّب على ذلك، وانتهى إلى إبطال ما بنى عليه المحقّقون جيلاً بعد جيل من (قاعدة قبح العقاب بلا بيان)، وآمن بمنجزيّة الاحتمال، وأنّ البراءة التي نؤمن بها هي البراءة الشرعيّة، أمّا البراءة العقليّة، فلا.

ومن هذا القبيل إبطاله لحكومة الأُصول بعضها على بعض حينما تكون متوافقة في النتيجة، كحكومة استصحاب الطهارة على قاعدة الطهارة، أو الأصل السببيّ على الأصل المسبّبيّ الموافق له، وكذلك إبطاله لحكومة الأمارة على الأصل لدى توافقهما في النتيجة.

ومنه ـ أيضاً ـ إبطاله لما اشتهر من جريان أصالة الطهارة في

ملاقي بعض أطراف الشبهة المحصورة علىٰ تفصيل يأتي في محلّه إن شاء الله.

ومنه ـ أيضاً ـ بحثه البديع في الوضع، وإبرازه لنظريّة القرن الأكيد.

ومن القسم الثالث: بحثه الرائع عن حقيقة المعاني الحرفيّة، حيث يوافق فيه علىٰ أصل ما اختاره المحقّقون المتأخّرون: من كون المعاني الحرفيّة هي المعاني النسبيّة، والمغايرة هويّة للمعاني الاسميّة، ولكن مع إدخال تعديل وإصلاح جوهريّين علىٰ ما أفاده الأصحاب رضوان الله عليهم.

ومن هذا القبيل بحثه الذي لم يسبق له نظير في الجمع بين الأحكام الظاهريّة والواقعيّة، حيث اختار نفس ما أثبته المحقّقون من إمكانيّة الجمع بينهما، وعدم التنافي والتعارض فيما بينهما، ولكن مع التعديل الجوهريّ لطريقة الاستدلال، وكيفيّة الجمع.

وقبل أن أترك هذه النقطة لايفوتني أن أُشير إلىٰ أنّ من أبحاثه البديعة ـ أيضاً ـ أبحاثه عن الترتّب، وعن التزاحم، وعن قاعدة لاضرر التي تعارف البحث عنها في الأُصول علىٰ رغم أنّها قاعدة فقهيّة.

وهو ـ رضوان الله عليه ـ إضافة إلىٰ ما لديه من تحقيقات جديدة، ومطالب فريدة في نوعها في علم الأُصول من أوّله إلىٰ آخره، كانت له محاولتان جديدتان في أُسلوب عرض علم الأُصول علىٰ الحوزة العلميّة، وتربية الطلّاب عليها:

الأُولىٰ : التغيير في ترتيب مباحث الأُصول، وتبويبها، والتقديم والتأخير فيما بينها، وطريقة تقسيم الأبحاث، وهذا ما انعكس عملاً في كتبه الموسومة بـ(دروس في علم الأُصول)، وفيما كتبه تلميذه السيّد محمود الهاشميّ تقريراً لبحث الأُستاذ، وهو الكتاب المسمّى بـ(تعارض الأدلّة الشرعيّة)، وذلك إيماناً منه﵀ بأنّ الترتيب الذي تعارف لدى السابقين لمباحث علم الأُصول ليس ترتيباً فنّياً قائماً علىٰ أساس نكات طبيعيّة لتقديم وتأخير الأبحاث، فانتهج هو﵀ منهجاً جديداً في ترتيب علم الأُصول راعىٰ فيه نكاتٍ فنيّةً للتقديم والتأخير.

والثانية : صياغة علم الأُصول فيما يسمّى بالسطح العالي في حلقات مترتّبة علىٰ وفق المراحل التي ينبغي أن يمرّ بها الطالب؛ إذ كان يعتقد ـ رضوان الله عليه ـ أنّ ما درجت عليه الحوزات العلميّة من دراسة عدّة من الكتب الأُصوليّة كتمهيد للوصول إلىٰ ما يسمّى ببحث الخارج كان صحيحاً، ولكن ما تعارفوا عليه من انتخاب كتب متعدّدة تمثّل مراحل مختلفة من العصور الماضية لعلم الأُصول ليس علىٰ ما ينبغي، والطريقة الفضلى هي: أن يصاغ آخر التطوّرات العلميّة في ضمن مراحل متدرّجة؛ لتنمية الطالب وتعليمه، كما هو الأُسلوب المتعارف في المناهج الحديثة لسائر العلوم، وهذا ما جسّده ـ رضوان الله عليه ـ في كتبه المسمّاة بـ(دروس في علم الأُصول) الممنهجة علىٰ ثلاث مراحل تحت عنوان الحلقات.

وفي علم الفقه ترىٰ إبداعاته ـ رضوان الله عليه ـ لاتقلّ عن

إبداعاته في علم الأُصول، وقد طبع من أبحاثه الفقهيّة أربعة مجلّدات باسم (بحوث في شرح العروة الوثقى) فيها من التحقيقات الرشيقة ما لاتحصىٰ ممّا لم يسبقه بها أحد، وأُشير هنا كمثالٍ إلىٰ بحثين من أبحاثه التي ينبهر بها الفقيه الألمعيّ:

أحدهما: بحثه الرائع في تحقيق نكات قاعدة الطهارة الوارد في المجلّد الثاني من البحوث المشتمل علىٰ عمق وشمول لاتراهما في أبحاث أُخرىٰ عن تلك القاعدة.

والثاني: بحثه القيّم في مسألة اعتصام ماء البئر عن كيفيّة التخلّص من الروايات الدالّة علىٰ الانفعال. وهو وارد ـ أيضاً ـ في المجلّد الثاني من البحوث، حيث ساق البحث بأُسلوب فائق لم أره لدىٰ باحثي المسألة قبله.

ولم يوفّق ـ رضوان الله عليه ـ لكتابة الكثير عن الفقه المستدلّ ما عدا المجلّدات الأربعة في الطهارة، وما درّسه من الفقه المستدلّ أكثر ممّا كتبه، كما قد درّس قسماً من أبحاث الخمس وغير ذلك.

والذي كان يصبو إليهﷺ هو تطوير بحث الفقه من عدّة جوانب، وفّق لبعضها بمقدار ما كتب أو درّس، ولم يوفّق للبعض الآخر. وتلك الجوانب هي ما يلي:

١ ـ تعميق دراسته بنحو لم يسبق له مثيل، وقد وفّق لذلك بمقدار ما كتب أو درّس.

٢ ـ تبديل النزعة الفرديّة والنظرة الموضعيّة إلى النزعة الاجتماعيّة والنظرة العالميّة في البحوث التي تتطلّب ذلك. وهاتان

النظرتان أو النزعتان لهما الأثر البالغ في كيفيّة فهم القضايا الفقهيّة.

فمثلاً: أخبار التقيّة والجهاد تُفهم بإحدىٰ النظرتين بشكل، وبالنظرة الأُخرىٰ بشكل آخر، وأدلّة حرمة الربا قد تفهم بإحدىٰ النظرتين بشكل يمكن معه تحليل نتيجة الربا ببعض الحيل، وتفهم بالنظرة الأُخرىٰ بشكل آخر لا يؤدّي إلىٰ هذه النتيجة. وما إلىٰ ذلك من الأمثلة الواسعة في الفقه.

٣ ـ توسيع أُفق البحث الفقهيّ لشتّى أبواب الحياة بالشكل الملائم لمتطلّبات اليوم، وبأُسلوب يتجلّى به أنّ الفقه يعالج كلّ مناحي الحياة، ويواكب الوضع البشريّ الفرديّ والاجتماعيّ حتّى النهاية، وبشكل يتّضح أنّ البحث الفقهيّ متحرّك يواكب حركة الحياة. وقد شرع ﷺ في رسالته العمليّة المسمّاة بـ(الفتاوىٰ الواضحة) لتجسيد هذا الجانب، إلّا أنّ استشهاده قد حال بينه وبين إكمال الكتاب.

٤ ـ تطوير منهجة عرض المسائل، وتبويبها بالشكل المنعكس في مقدّمة الفتاوىٰ الواضحة.

٥ ـ وكان ﷺ عازماً علىٰ أن يبحث فقه المعاملات بشكل مقارن بين فقه الإسلام والفقه الوضعيّ؛ كي يتجلّى أنّ الفقه الإسلاميّ هو الجدير بإدارة الحياة، وإسعادها دون غيره، وقد حالت جريمة البعث الكبرىٰ بينه وبين إتحافنا بهذا البحث القيّم.

وفي الفلسفة ألّف الأُستاذ الشهيد ﷺ كتاب (فلسفتنا) الذي قارع فيه الفلسفات المادّيّة والمدارس الفلسفيّة الحديثة الملحدة، بالأخصّ الديالكتيكيّة الماركسيّة، بأُسلوب بديع، وببراهين قويمة،

ومناهج رائعة، وهذا الكتاب قد أصدره بجهود تظافرت مدّة عشرة أشهر فحسب.

والرأي الذي اعتنقهﷺ في (فلسفتنا) في نظريّة المعرفة قد عدل عنه إلىٰ رأي آخر في كتابه المسمّى بـ(الأُسس المنطقيّة للاستقراء) يختلف عن رأيه الأوّل في عددٍ مهمٍّ من أقسام المعرفة البشريّة.

وقد بدأ أخيراً بتأليف كتاب فلسفيّ معمّق، ومقارن بين آراء الفلاسفة القدامى والفلاسفة الجدد، وبدأ ببحث تحليل الذهن البشريّ، ولم يوفّق لإتمامه، ولانعلم مصير ما كتبه في ذلك، ولعلّه صودر من قبل البعث العميل الكافر مع ما صودر من كتبه وممتلكاته.

وفي المنطق قد تعرّض الأُستاذ الشهيدﷺ في ضمن أبحاثه الأُصوليّة لدىٰ مناقشته للأخباريّين في مدىٰ حجّيّة البراهين العقليّة لنمط التفكير المنطقيّ الأرسطيّ، ونقده بما لم يسبقه به أحد، وبعد ذلك طوّر تلك الأبحاث وأكملها، وأضاف إليها ما لم يكن يناسب ذكره في ضمن الأبحاث الأُصوليّة، فأخرجها بأروع صياغة باسم كتاب (الأُسس المنطقيّة للاستقراء). ومن جملة ما أوضحه في هذا الكتاب: عدم بداهة قسم من العلوم التي يقول المنطق الأرسطيّ ببداهتها، كالمحسوسات بالحسّ الظاهريّ، والمتواترات، والتجريبيّات، والحدسيّات، وأنّ هذه العلوم إنّما تبتني علىٰ أساس حساب الاحتمالات، وليس علىٰ أساس البداهة والضرورة.

وفي الأخلاق تعرّض الأُستاذ الشهيدﷺ لأرقى بحثٍ أخلاقيّ علميّ في ضمن أبحاثه الأُصوليّة لدىٰ البحث عن الحسن والقبح

العقليّين بمنهج لم يسبق له نظير.

وفي التفسير تعرّض ـ رضوان الله عليه ـ في أواخر حياته لأبحاث تفسيريّة قيّمة تختلف في أُسلوبها عن نمط التفاسير التجزيئيّة المتعارفة، أعطاها عنوان (التفسير الموضوعيّ)، وتلك أبحاث ألقاها في محفل عام للبحث، ولم يكن الحضور فيه خاصّاً بفضلاء طلّابه أو المحقّقين العلماء؛ ولذا لم يكن من المتوقّع أن يلقي هذه الأبحاث بما هو المأمول منه من مستوىٰ العمق والدقّة؛ إذ ذلك يناسب الحضور الخاصّ، وليس الحضور العامّ، ومع ذلك ترىٰ في تلك الأبحاث من العمق والتحليل الدقيق ما يبهر العقول، ويدلّ علىٰ مدىٰ شموخ المستوىٰ الفكريّ لهذا المفكّر العظيم.

وفي الاقتصاد ألّف أُستاذنا الشهيدﷺ كتاب (اقتصادنا)؛ لنقد المذاهب الاقتصاديّة الماركسيّة والرأسماليّة، وتوضيح خطوط تفصيليّة عن الاقتصاد الإسلاميّ. ولاأقول: إنّه لم يوجد قبله كتاب في الاقتصاد الإسلاميّ بهذا المستوىٰ فحسب، بل أقول: لم يوجد حتّى يومنا هذا الذي مضى علىٰ تأليف كتاب (اقتصادنا) نحو ربع قرن مَنْ كتب بمستواه.

وفي التأريخ كتبﷺ تأريخاً تحليليّاً عن قِصّة (فدك)، وكان عمره ـ وقتئذٍ ـ نحو سبع عشرة سنة، وترىٰ في هذا الكتاب ـ الذي يمثّل السنين الأُولى من بلوغه سنّ التكليف ـ ما يعجبك من روعة التأليف، وعمق التحقيق والتدقيق، وممّا يزيدك إعجاباً بهذا الكتاب أنّه جاء فيه بالمناسبة بعض المناقشات الفقهيّة الدقيقة لما ورد في

كلمات أكابر الفقهاء، وهذا ما لا يصدر عادة إلّا عن العلماء المحقّقين الكبار في سنين متأخّرة من أعمارهم الشريفة.

فلقد ناقش ﷺ في كتاب (فدك) ما وقع من بعض أكابر العلماء كصاحب الجواهر ـ رضوان الله عليه ـ من الاستدلال علىٰ نفوذ علم القاضي بكون العلم أقوىٰ من البيّنة المعلوم إرادة الكشف منها، ناقش ذلك بقوله:

«وأُلاحظ أنّ في هذا الدليل ضعفاً ماديّاً؛ لأنّ المقارنة لم تقم فيه بين البيّنة وعلم الحاكم بالإضافة إلىٰ صلب الواقع، وإنّما لوحظ مدىٰ تأثير كلٍّ منهما في نفس الحاكم، وكانت النتيجة ـ حينئذ ـ أنّ العلم أقوىٰ من البيّنة؛ لأنّ اليقين أشدّ من الظنّ، وكان من حقّ المقارنة أن يلاحظ الأقرب منهما إلىٰ الحقيقة المطلوب مبدئيّاً الأخذ بها في كلّ مخاصمة، ولا يفضّل علم الحاكم في هذا الطور من المقايسة علىٰ البينة؛ لأنّ الحاكم قد يخطأ كما أنّ البيّنة قد تخطأ، فهما في شرع الواقع سواء، كلاهما مظنّة للزلل والاشتباه».

وأيضاً ذكر المرحوم الشيخ آقا ضياء العراقيّ ـ الذي يعتبر من أكابر المحقّقين في العصر المتأخر ـ ذكر في كتابه ردّاً علىٰ من استدلّ لنفوذ علم القاضي بأدلّة القضاء بالحقّ والعدل: «أنّه قد يكون المراد بالحقّ والعدل هو الحقّ والعدل وفق مقاييس القضاء، لاالحقّ والعدل وفق الواقع، وكون علم القاضي من مقاييس القضاء أوّل الكلام» واستشهد ﷺ علىٰ ذلك بالرواية الدالّة علىٰ عقاب رجل قضى بالحقّ وهو لا يعلم، ببيان: أنّه لو كان موضوع القضاء هو الحقّ

الواقعيّ لاالحقّ وفق مقاييس القضاء، لكان قضاء من قضى بالحقّ ـ وهو لايعلم ـ صحيحاً وضعاً وتكليفاً، ولاعقاب عليه إلّا بملاك التجرّي.

وأورد عليه أُستاذنا الشهيد ﷺ في كتاب (فدك) أنّ هذه الرواية لاتدلّ علىٰ عدم موضوعيّة الواقع للحكم، غاية ما هناك أن نقيّد الأدلّة التي ظاهرها كون موضوع الحكم هو الحقّ والعدل الواقعيين بالعلم، بمقتضى دلالة هذه الرواية علىٰ عقاب من قضى من دون علم، فيصبح الواقع جزءَ موضوع، والعلم به جزءاً آخر للموضوع، ولابأس بذلك.

وعلىٰ أيّة حالٍ، فهذا كتاب تاريخيّ تحليليّ بديع عن قِصّة واحدة من التأريخ، وهي قِصّة (فدك).

هذا، وبعد رَدح من الزمن جاءت لأُستاذنا الشهيد أبحاث في منتهى الروعة في تحليل تأريخ حياة أئمّتنا الأطهار عليهم السلام من زاوية عملهم لإعلاء كلمة الله علىٰ وجه الأرض، كان يلقيها علىٰ طلّابه في أيّام وفيات الأئمّة عليهم السلام كأُطروحة شاملة متناسقة لكلٍّ أئمّة أهل البيت عليهم السلام في المنهج الذي نهجوه لخدمة الإسلام الحنيف.

وجميع أبحاثه ـ رضوان الله عليه ـ ترىٰ فيها إضافةً إلىٰ الدقّة والعمق مع السعة والشمول منهجيّةً فنيّةً رائعةً في طريقة العرض.

مؤلّفاته قدّس سرّه

يحضرني الآن من مؤلّفاته ـ رضوان الله عليه ـ ما يلي:

١ ـ فدك في التأريخ، طبع في سنة (١٣٧٤ هـ).

٢ ـ غاية الفكر في علم الأُصول، طبع منها جزء واحد في سنة (١٣٧٤ هـ).

وقد ذكر السيّد الشهيد﵀ في أوّل هذا الجزء أنّه شرع في تأليف هذا الكتاب قبل ثلاث سنين تقريباً.

٣ ـ فلسفتنا، طبع في سنة (١٣٧٩ هـ).

٤ ـ اقتصادنا، طبع في سنة (١٣٨١ هـ) في مجلّدين.

٥ ـ المعالم الجديدة للأُصول، طبعت في (سنة ١٣٨٥ هـ) لكلّية أُصول الدين.

٦ ـ الأُسس المنطقيّة للاستقراء، طبعت بتأريخ (١٣٩١ هـ).

٧ ـ البنك اللاربوي في الإسلام، طبع قبل الأُسس المنطقيّة للاستقراء.

٨ ـ المدرسة الإسلاميّة، ألّف منها جزءين:

أ ـ الإنسان المعاصر والمشكلة الاجتماعيّة.

ب ـ ماذا تعرف عن الاقتصاد الإسلاميّ؟

٩ ـ بحوث في شرح العروة الوثقى، ألّف منها أربعة أجزاء، وكان

تأريخ الطبعة الأُولى لأوّل جزء منها سنة (١٣٩١ هـ).

١٠ ـ دروس في علم الأُصول، في ثلاث حلقات، والحلقة الثالثة منها في مجلّدين، طبعت في سنة (١٣٩٧ هـ).

١١ ـ بحث حول المهدي عليه السلام.

١٢ ـ بحث حول الولاية.

١٣ ـ الإسلام يقود الحياة، ألّف منه ستّ حلقاتٍ في سنة (١٣٩٩ هـ) بمناسبة نجاح الثورة الإسلاميّة في إيران:

أ ـ لمحة فقهيّة تمهيديّة عن مشروع دستور الجمهوريّة الإسلاميّة في إيران.

ب ـ صورة عن اقتصاد المجتمع الإسلاميّ.

ج ـ خطوط تفصيليّة عن اقتصاد المجتمع الإسلاميّ.

د ـ خلافة الإنسان، وشهادة الأنبياء.

ه ـ منابع القدرة في الدولة الإسلاميّة.

و ـ الأُسس العامّة للبنك في المجتمع الإسلاميّ.

١٤ ـ بحث في المرجعيّة الصالحة والمرجعيّة الموضوعيّة، وسيأتي نصّ ذلك ـ إن شاء الله ـ في ضمن هذه الترجمة.

١٥ ـ الفتاوىٰ الواضحة: رسالة عمليّة ألّف منها جزءاً واحداً، ثُمَّ أضاف إليها في الطبعة الثانية مقدّمة بعنوان (موجز في أُصول الدين) بحث فيها بحثاً مختصراً رائعاً عن المرسل، والرسول، والرسالة، كما يوجد في آخر الكتاب بحث بديع وممتع بعنوان (نظرة عامّة في العبادات).

١٦ ـ تعليقة على رسالة عمليّة للمرحوم آية الله العظمى السيّد محسن الحكيم، وهي الرسالة المسمّاة بـ(منهاج الصالحين).

ومن طرائف الأُمور: أنّ الأُستاذ الشهيد مضت عليه برهة من الزمان كان له مقلِّدون كثيرون في شتّى المدن العراقيّة، ولعلّه في خارج العراق أيضاً، وكان يمتنع عن طبع رسالة عمليّة؛ لأنّه كان شاباً آنذاك، ولعلّ قسماً من المجتمع لم يكن يستسيغ طبع رسالة عمليّة لعالم شابّ مع وجود مراجع كبار متقدّمين في السنّ. فكان بعض مقلّديه يضطرون إلى استنساخ تعليقته على الجزء الأوّل من منهاج الصالحين بخط اليد، وما زلت أنا محتفظاً في مكتبتي بنسخة منها استنسختها بيدي.

وبعد فترة من الزمن اقتنع ـ رضوان الله عليه ـ بأنّه حان وقت الطبع، فطبع تعليقته على الجزء الأوّل من منهاج الصالحين، وأكملها في الطبعة الثالثة بإضافة التعليق على الجزء الثاني من المنهاج.

١٧ ـ تعليقة على صلاة الجمعة من الشرائع، ما زالت غير مطبوعة، ولديّ نسخة استنسختها بيدي.

١٨ ـ تعليقة على الرسالة العمليّة للمرحوم آية الله العظمى الشيخ محمّدرضا آل ياسين المسمّاة بـ(بلغة الراغبين) علّق عليها في وقت كان عمره الشريف نحو سبع عشرة سنة، وما زالت التعليقة غير مطبوعة.

١٩ ـ تعليقة على مناسك الحجّ لأُستاذه آية الله العظمى السيّد الخوئيّ، وهي غير مطبوعة، وما زلت محتفظاً بنسخة خطيّة منها. وقد

كتب ﷺ هذه التعليقة عند ما أراد التشرّف بالذهاب إلىٰ الحجّ.

٢٠ ـ موجز أحكام الحجّ: وهو رسالة عمليّة في الحجّ.

وهناك كتاب باسم (المدرسة القرآنيّة) ليس بقلمه الشريف، ولكنّه استنساخ لمحاضراته الممتعة التي أفادها في التفسير الموضوعيّ للقرآن الكريم، وهي عبارة عن أربع عشرة محاضرة، والمحاضرة الأخيرة ليست في التفسير، وإنّما هي في الوعظ والإرشاد، وقد ألقى هذه المحاضرات في أواخر عمره المبارك، وأنا ـ وقتئذٍ ـ كنت في قم المقدّسة، فلم أحظ بشرف درك هذه المحاضرات القيّمة، لكنّني ما زلت محتفظاً بنسخة صوتيّة منها، وقد ضجّ الناس في المحاضرة الأخيرة منها بالبكاء.

وهناك محاضرات أُخرىٰ له ﷺ في حياة الأئمّة عليهم السلام كُتِبَ قسم منها استنساخاً من الشريط الصوتيّ لأبحاثه.

وهناك كتب أُخرىٰ لتلامذته بعنوان تقرير أبحاثه الشريفة.

وهناك كتابات متفرّقة له ـ رضوان الله عليه ـ من قبيل بعض افتتاحيّات مجلّة (الأضواء) التي طبعت بعد ذلك باسم (رسالتنا) وغيرها.

وقبل أن أنتقل إلىٰ موضوع آخر أودّ أن أقول: إنّ مطالعة تأليفاته القيّمة كافية في معرفة مدىٰ مواكبة هذا الرجل العظيم لأحوال الوقت ومشاكله ووضعه للحلول الشافية لها، فحقّاً إنّ أُستاذنا الشهيد لم يكن من أُولئك المفكّرين التقليديّين الذين لا يفكّرون إلّا فيما تعارف بحثه في الأزمنة السالفة، بل كان عالماً بزمانه، طبيباً روحيّاً

يعالج في كتبه أمراض المجتمع الحاضر، مواكباً لمشاكل الأُمّة الإسلاميّة وآلامها وآمالها، يقارع الفلسفات المادّية الحديثة بكتاب (فلسفتنا)، ويثبّت التلازم بين الإيمان بالعلم الحديث والتجربة وبين الإيمان بالله تعالىٰ، بما له من منطق رصين في كتاب (الأُسس المنطقيّة للاستقراء)، ويعارض الأُصول الاقتصاديّة الكافرة الحديثة مع إعطاء البديل الإسلاميّ في كتاب (اقتصادنا) وفي كتيّبات اقتصاديّة، وحينما يُستفتى من قبل بعض المؤمنين في الكويت عن طريقة تأسيس البنك بلا ربا يؤلّف في الجواب كتاباً في البنك اللاربوي، وحينما يتحقّق انتصار الإسلام في إيران يكتب ستّ حلقات لتغطية الحاجات الفكريّة الإسلاميّة المستجدّة في إيران علىٰ أساس الانتصار، وما إلىٰ ذلك ممّا يدلّ علىٰ مواكبته ـ رضوان الله عليه ـ للحياة ولحاجات المسلمين بحكمة وحنكة فائقتين.

رعايته ﷺ لمشاريع إسلاميّة

- ١ ـ مدرسة العلوم الإسلاميّة.
- ٢ ـ جماعة العلماء في النجف الأشرف.
- ٣ ـ كلّيّة أُصول الدين.

لم تكن رعاية أُستاذنا الشهيد ـ رضوان الله عليه ـ تختصّ بالمشاريع الإسلاميّة التي تكون من تأسيسه أو تنسب إليه في عرف المجتمع، بل كان لايبخل عن بذل الرعاية لكلِّ مشروع إسلاميّ حتّى غير المنتسب إليه ما لم يأبَ أصحابه عن ذلك، ومن أمثلة ذلك مايلي:

١ ـ مدرسة العلوم الإسلاميّة :

كانت هذه مدرسة علميّة مؤسّسة من قبل المرجع المرحوم آية الله العظمى السيّد محسن الحكيم تغمّده الله برحمته، وهي مدرسة ذات صفوف منظّمة لطلّاب العلوم الدينيّة، وكانت لأُستاذنا الشهيد﵀ رعاية أبويّة خاصّة لهذه المدرسة عن طريق عدد من طلّابه الأفاضل الذين كانوا يشرفون علىٰ هذه المدرسة أو يدرّسون فيها.

٢ ـ جماعة العلماء في النجف الأشرف :

كان هذا مشروعاً إسلاميّاً قام به ثلّة من العلماء الأكابر في النجف الأشرف في عهد عبد الكريم قاسم، وكان أُستاذنا الشهيد﵀ آنذاك في عنفوان شبابه، ولم يكن عضواً في جماعة العلماء، وعلىٰ رغم

ذلك كان يرعى بأُبوّته هذا المشروع المبارك، وكان يرتبط بشكل وآخر بعقليّته المتميّزة الجبّارة، وهنا أترك الحديث لسماحة السيّد محمّدباقر الحكيم حفظه الله؛ لكي يحدّثنا بعض الكلام عن جماعة العلماء، فإليك بعض المقاطع من مقاله الذي نشر في مجلّة الجهاد العدد الرابع عشر الصادر بتأريخ جمادىٰ الآخرة من سنة (١٤٠١ هـ)، قال حفظه الله:

«لابدّ من أجل أن نفهم عمق الأحداث التي سوف أتناولها، والمواجهة التي وقعت بين الإمام الشهيد الصدر ـرضوان الله عليه ـ وحزب البعث في العراق من أن نرجع إلىٰ بدايات سنة (١٣٧٨)، أي: بعد التغيير في الحكم الذي حصل في العراق بعد انقلاب الرابع عشر من تموز عام (١٩٥٨ م).

فقد ظهرت علىٰ سطح المسرح السياسيّ في العراق مجموعة من التيّارات السياسيّة والفكريّة بعد أن حصل الشعب العراقيّ نتيجة الانقلاب علىٰ بعض المكاسب السياسيّة والاجتماعيّة.

وقد احتدم الصراع في المرحلة الأُولى بين التيّار الماركسيّ ـالذي كان يقوده الحزب الشيوعيّ العراقيّ، والذي كان يحصل علىٰ الدعم المعنويّ من قائد الانقلاب عبد الكريم قاسم ـ من جانب، ومجموعة التيّارات السياسيّة الأُخرىٰ من جانب آخر، كالتيّار القوميّ الذي كان يجمع بين الناصريّين والبعثيّين وغيرهم، والذي كان له وجود سياسيّ في الحكم وفي الشارع بسبب الدعم الذي كان يحصل عليه من الجمهوريّة العربيّة المتحدة حينذاك بقيادة

جمال عبد الناصر، وكالتيار الإسلاميّ الذي كانت تتعاطف معه جماهير واسعة من الشعب العراقيّ المسلم دون أن يكون له وجود سياسيّ قويّ عدا بعض الأحزاب السياسيّة الإسلاميّة الصغيرة.

وقد وجد علماء النجف الأشرف أنّ من الضروريّ أن يُطرح الإسلام كقوّة فكريّة وسياسيّة أصيلة تنتمي إلىٰ السماء، وتمتدّ جذورها في الشعب المسلم.

وولدت من أجل ذاك أُطروحة (جماعة العلماء) التي يمكن أن نقول بحقٍّ: إنّ وجودها يرتبط بشكل رئيسيّ بعقليّة السيّد الشهيد الصدر، واهتمامات المرجعيّة الدينيّة وطموحاتها الكبيرة التي كانت تتمثّل بالمرحوم الإمام السيّد محسن الحكيم ﷺ إضافة إلىٰ الشعور بالحاجة الملحّة إلىٰ مثل هذه الأطروحة لدىٰ قطّاع واسع من الأُمّة. وعلىٰ الرغم من أنّ السيّد الشهيد ـ رضوان الله عليه ـ لم يكن أحد أعضاء جماعة العلماء؛ لصغر عمره، إلّا أنّه كان له دور رئيسيّ في تحريكها وتوجيهها كما ذكرت ذلك في مذكّراتي عن جماعة العلماء في النجف الأشرف.

ومن خلال ذلك تمكّن علماء النجف الأشرف أن يطرحوا الخطّ الإسلاميّ الصحيح، ويعملوا علىٰ إيجاد القوّة السياسيّة الإسلاميّة المتميّزة.

وقد باشرت جماعة العلماء ـ بالرغم من قوّة الأحداث، وعدم توفّر الخبرة السياسيّة الكافية، وتخلّف الوعي الإسلاميّ السياسيّ في الأُمّة ـ عملها من أجل إرساء قواعد هذا الخطّ الأصيل، وذلك

من خلال بعض المنشورات، والاحتفالات الجماهيريّة، والاتّصالات ببعض قطّاعات الشباب، وإصدارها لمجلّة الأضواء الإسلاميّة التي كانت تشرف عليها لجنة توجيهيّة مكوّنة من شباب العلماء كان لها اتّصال وثيق بالسيّد الشهيد الصدر... بعد مضيّ أقلّ من عامّ تمكّنت جماعة العلماء من بناء قاعدة إسلاميّة شابّة؛ ولذا قرّرت هذه الجماعة إصدار نشرة الأضواء الإسلاميّة كأداة للتعبير عن وجودها من ناحية، ولمواصلة السير في الطريق الذي رسمته من ناحية أُخرىٰ... وقد بعثت مجلّة الأضواء من خلال خطّها الفكريّ والسياسيّ، ومن خلال ما رسمته من معالم الطريق الإسلاميّ وخطوطه العريضة وبالأخصّ الخطوط التي كانت ترسم في ضمن موضوع (رسالتنا) الذي كان يكتبه السيّد الشهيد الصدر باسم جماعة العلماء وبإذنها طبعاً، بعثت الروح الإسلاميّة في قطّاعات واسعة من الجماهير... وسافرت إلىٰ لبنان في سنة (١٣٨٠ هـ) إذ كانت طموحاتنا أن ننقل أفكارنا إلىٰ ذلك البلد، وودّعت السيّد الأُستاذ الشهيد حيث كان في الكاظميّة حينذاك بعد أن عشت معه أيّاماً، وكنت أُراسله باستمرار في رسائل طويلة، وكان يجيبني بأُخرىٰ يتحدّث فيها عن عواطفه الفيّاضة، وهمومه الإسلاميّة. هذه الرسائل التي أرىٰ فيها أنّها أعزّ ما أحتفظ به من ذكريات تلك الأيّام.

وفي هذه الرسائل بدأ السيّد الأُستاذ الشهيد يحدّثني عن هجمة قاسية شرسة قام بها حزب البعث، تستّرت ببعض أهل العلم من

أعضاء جماعة العلماء وغيرهم الذين انكشف لهم حقيقة هذا الحزب، كما تكشّفت لنا حقيقته نتيجة الوعي الإسلاميّ الذي بعثه السيّد الشهيد فينا... فلقد كانت الواجهة في هذه الهجمة بعض مَنْ ينتسب إلىٰ أهل العلم، ولكن كانت يد حزب البعث وراءها؛ إذ يطرح السيّد الأُستاذ في بعض رسائله أنّ المحامي (حسين الصافي) الذي كان معمّماً من قبل، ومن عائلة علميّة، وله صلات شخصيّة وطيدة ببعض أهل العلم، ومسؤول حزب البعث العربي في النجف الأشرف كان وراء هذه الحملة، وتحدّث إلى بعض الأشخاص لإثارتهم.

فقد كتب السيّد الشهيد في صفر من سنة (١٣٨٠ هـ) يقول:

«... لقد كان بعدك أنباء وهنبثة، وكلام وضجيج، وحملات متعدّدة جنّدت كلّها ضد صاحبك بغية تحطيمه... ابتدأت تلك الحملات في أوساط الجماعة التوجيهيّة المشرفة علىٰ الأضواء، أو بالأحرىٰ لدىٰ بعضهم، ومن يدور في فلكهم، فأخذوا يتكلّمون، وينتقدون، ثُمَّ تضاعفت الحملة وإذا بجماعة تنبري من أمثال حسين الصافي ـ ولاأدري ما إذا كانت هناك علاقة سببيّة وارتباط بين الحملتين أو لا ـ تنبري هذه الجماعة... فتذكر عنّي وعن جماعة ممّن تعرفهم شيئاً كثيراً من التهم من الأُمور العجيبة...».

ومن الملاحظ أنّه استعمل البعثيّون في هذه الحملة أُسلوبين رئيسيين:

الأوّل: أُسلوب الاتّهام بأنّ هذه المجلّة لاتعبّر عن رأي جماعة العلماء، وإنّما هي تعبّر عن رأي تنظيم سياسيّ دينيّ سريّ، ويستغل

اسم جماعة العلماء. وقد كان الاتّهام بالتنظيم السياسيّ في تلك الفترة الزمنيّة يعتبر تهمة شنيعة بسبب التخلّف السياسيّ الدينيّ في أوساط المتديّنين، وبالأخصّ أهل العلم منهم.

الثاني: موضوع (رسالتنا) الذي يكتب باسم جماعة العلماء، وكان يكتبه السيّد الشهيد الصدر دون أن يعرضه علىٰ أحد منهم؛ فقد كتب السيّد الشهيد في نفس الفترة يقول:

«كما أنّ هناك زحمة من الإشكالات والاعتراضات لدىٰ جملة من الناس، أو الآخونديّة في النجف علىٰ النشرة، وخاصّة (رسالتنا) باعتبار أنّها كيف تنسب إلىٰ جماعة العلماء مع أنّها لم توضع من قبلهم، ولم يطّلعوا عليها سلفاً؟! وأنّ في ذلك هدراً لكرامة العلماء، هذا في الوقت الذي يقول الأخ...: إنّ الكلمة في بغداد متّفقة علىٰ أنّ (رسالتنا) كتابة تجديد وابتكار تمتاز بمستواها الخاصّ من بقيّة الأضواء».

وقد كتب في (٦ / ربيع الأوّل / ١٣٨٠): «لا أستطيع أن أذكر تفصيلات الأسماء في مسألة جماعة العلماء وحملتها علىٰ الأضواء... ولكن أكتفي بالقول إنّ بعض الجماعة كان نشيطاً في زيارة أعضاء جماعة العلماء؛ لإثارتهم علىٰ الأضواء وعلى (رسالتنا)، حتّى لقد قيل: إنّ الشيخ الهمدانيّ الطيّب القول قد شوّهت فكرته عن الموضوع... وهذا الذي حصل بالنسبة إلىٰ الشيخ الهمدانيّ حصل بالنسبة إلىٰ جملة من الطلبة مع الاختلاف في بعض الجهات...».

وقد كتب أيضاً: «فإنّني أُجيبك عن سؤالك فيما يخصّ من موقف الخال، فإنّ الشيخ الخال كان في الكاظميّة بعيداً عن الأحداث نسبيّاً، ولم يطّلع إلّا علىٰ سطحها الظاهريّ، وهو ماضٍ في تأييده للأضواء ومساندته لها، وقد طلب... أن يكتب إلىٰ بعض جماعة العلماء؛ لتطييب خاطرهم، وجلب رضاهم عن الأضواء... فكتب إلىٰ... وأخبره بأنّ الأضواء لم تكن تصدر إلّا بعد مراقبته وإشرافه، وأنّها تُناط الآن... وأخبره بأنّ كاتب (رسالتنا) سوف ينقطع عن الكتابة...»[1].

وأيضاً كتب السيّد الشهيد: «فقد حدّثني شخص في الكاظميّة أنّه اجتمع به في النجف الأشرف، فأخذ يذكر عنّي له سنخ التّهم التي كالها حسين الصافي من دون مناسبة مسوِّغة. وعلىٰ كلّ حال عسى أن يكون له وجه صحّة في عمله إن شاء الله».

وقد كانت لهذه الإثارة دور كبير في تحريك جماعة العلماء بالخصوص ضدّ السيّد الشهيد والمجلّة، بخلاف الأُسلوب الأوّل؛ فإنّ دوره الأساسيّ كان في أوساط المتشدّدين من أهل العلم البعيدين عن التيّار الإسلاميّ وهمومه ومشاكل الأُمّة وانحرافاتها الفكريّة والسياسيّة؛ ولذا كان تأثيره في جماعة العلماء محدوداً... وقد أحسن السيّد الأُستاذ الشهيد الصدر في معالجة الموقف بهدوء؛ إذ تمكّن أن يثبت ـ حينذاك ـ أنّه لاينتمي إلىٰ تنظيم سياسيّ معيّن،

---

(١) وبالفعل انقطع الأُستاذ الشهيد عن كتابة رسالتنا؛ ولهذا ليس جميع الأعداد لرسالتنا صادراً عن الأستاذ الشهيد.

وأنّه مُنحِت اللجنةُ التوجيهيّةُ لجماعة العلماء الإشرافَ الفعليَّ علىٰ المجلّة، وعلىٰ موضوع (رسالتنا)، وتمسّك بالصبر والسكوت؛ فقد كتب يقول: «وأمّا واقع الأضواء هنا، فهو واقع المجلّة المجاهدة في سبيل الله، وقد هدأت ـ والحمد لله ـ حملة جماعة العلماء عليها بعد أن تمّ إشعارهم بأنّهم المشرفون عليها، غير أنّ حملة هائلة ـ علىٰ ما أسمع ـ يشنّها جملة من الطلبة، ومن يسمّىٰ بأهل العلم، أو يحسب عليهم، وهي حملة مخيفة، وقد أدّت ـ علىٰ ما قيل ـ إلىٰ تشويه سمعة الأضواء في نظر بعض أكابر الحوزة، حتّى كان جملة ممّن يسمّيهم المجتمع الآخونديّ مقدّسين أو وجهاء لايتورّعون عن إلصاق التّهم بالأضواء، وكلّ من يكتب فيها...».

ومن الجدير بالذكر: أنّه كان الإخوان في اللجنة التوجيهيّة يتسامحون في تقديم ما يكتبونه إلىٰ الجماعة للإشراف المباشر عليه خوفاً من ملاحظات تبديها الجماعة تمسّ الصيغ الجديدة التي كانوا يقدّمونها للأفكار الإسلاميّة التي كانت تمدّ التيّار الإسلاميّ الواعي بالوقود والعطاء.

ولكنّ التجربة التي مارسوها بعد الضجّة دلّت علىٰ أنّ جماعة العلماء كانت علىٰ درجة من الوعي تجعلها لاتعارض مثل هذه الأفكار، بل تمنحها التأييد والقبول؛ لأنّه يشهد ـ رضوان الله عليه ـ بعد ذلك في تاريخ (١٨ ربيع الأوّل) بأنّ: «أُسرة الأضواء التي لاغبار عليها بوجهٍ من الوجوه مورد للاطمئنان الكامل، وهم

يعرضون مقالاتهم علىٰ الثلاثة[١]، ولم يصادفوا لحدّ الآن مشكلة مبدئيّة في هذا المقام، والحمد لله ربّ العالمين».

«حدسي أنّ الأضواء سوف تستمرّ إن شاء الله تعالىٰ؛ لأنّها تتمتّع الآن برصيد قويّ من الداخل والخارج، فمن الخارج بلغت عدد الاشتراكات... ومن الداخل تتمتّع برضا جماعة العلماء».

وهكذا تمكّن السيّد الشهيد ـ رضوان الله عليه ـ بحكمته وصموده وصبره أن يواصل طريقه مع إخوانه وتلامذته في الجهاد، وأن يقفوا جميعاً في وجه هذه الهجمة الشرسة التي استغلّت أخسّ المشاعر في الإنسان، واستعملت أخبث الأساليب. وتمكّن بسبب ذلك الخطّ الإسلاميّ الأصيل أن يستمرّ في تفاعله مع الأُمّة والتأثير فيها».

انتهى ما أردت نقله من مقاطع من مقال سماحة السيّد الحكيم حفظه الله.

٣ ـ كلّية أُصول الدين :

وكانت كلّية أُصول الدين هي الأُخرىٰ من المشاريع التي لم تكن تنسب في عرف المجتمع ـ وقتئذٍ ـ إلىٰ أُستاذنا الشهيد، ولكنّها كانت تحظى برعايته الأبويّة البارّة، وقد كتب الأُستاذ كتاب (المعالم الجديدة في علم الأُصول)؛ لأجل هذه الكلّية كي يدرّس فيها.

وقد جاء في كتاب الجهاد السياسيّ ما نصّه: «كان السيّد الشهيد مشاركاً في مشروع تأسيسها وافتتاحها، ثُمَّ كان مساهماً بالقسط

---

(١) الظاهر أنّ المقصود هم: آية الله الشيخ مرتضى آل ياسين، وآية الله الشيخ حسين الهمدانيّ، وآية الله الشيخ خضر الدجيليّ تغمّدهم الله برحمته.

الأوفر في منهجها، وطريقة عملها، وشؤونها المهمّة والثقافيّة بالخصوص. وفيما عدا ذلك فإنّ السيّد الشهيد قد كتب مادّة (علوم القرآن) للسنة الأُولى ونصف السنة الثانية، وظلّت هذه المادّة تدرّس مدّة الأربع سنوات الأُولى، وكتب مادّة الاقتصاد الإسلاميّ والذي كان يدرّس في الكلّية أيضاً، كما أنّ مساهمة السيّد الشهيد في مجلّة رسالة الإسلام التي تصدرها الكلّية كانت مساهمة فعّالة».

طلّابه قدّس سرّه

ربّىٰ ـ رضوان الله عليه ـ جيلين من العلماء النوابغ:

الجيل الأوّل: نخبة من الفضلاء الأذكياء التحقوا بدرسه في أوّل أوأوائل الدورة الأُولى لأبحاثه الأُصوليّة، وبعضهم كان متشرِّفاً بالتلمذة لديه من قبل ذلك، حيث كان يحضر درس أُستاذنا الشهيد في (كفاية الأُصول) للآخوند الخراسانيّ﵀ قبل شروعه في تدريس ما يسمّى ببحث الخارج، فتخرّجوا علىٰ يده﵀ علىٰ مستوىٰ الاجتهاد، أو ما يقرب من الاجتهاد.

والجيل الثاني: نخبة ثانية من الفضلاء الأذكياء التحقوا بدرسه في أواخر الدورة الأُولى لأبحاثه الأُصوليّة، واستمرّوا معه في الدورة الثانية إلىٰ أن تخرّجوا علىٰ يده﵀ علىٰ مستوىٰ الاجتهاد، أو ما يقرب منه.

وهناك طلّاب آخرون استفادوا ـ أيضاً ـ من منهله العذب، بالخصوص في الدورة الثانية التي أصبح الحضور فيها عامّاً تقريباً.

وله ـ رضوان الله عليه ـ صفوة من الطلّاب من الجيلين اللذين أشرنا إليهما، ومن غيرهما، وصل مستوىٰ تبادل العواطف بينهم وبين أُستاذهم إلىٰ ما قد يصعب تصوّره علىٰ غيرهم الذين لم يعيشوا تلك الحالة التي لاتوصف، فأُولئك الصفوة كانوا مخلصين لأُستاذهم،

ومحبّين إيّاه بأشدّ من حبّهم لآبائهم وأولادهم، وكانوا يفدونه بأنفسهم.

كان يتشرّف بعضهم بخدمة الأُستاذ في بيته الواقع في سوق العمارة قريباً من مدرسة السيّد البروجرديّ الصغرى، في البُرْهة التي كانوا يحسّون فيها بأنّ النهار مظلم أمامهم كالليل أو أشدّ ظلاماً علىٰ أثر طغيان البعث الكافر وعتوّه، وعلى رغم هذا حينما كانوا يجلسون بحضور الأُستاذ في بيته، ويصغون إلىٰ دُرر الكلام التي ينثرها عليهم، كانوا ينسون كلّ شيء، غارقين في الالتذاذ بصحبته بما يفوق الوصف، كأنّهم في دار الخلد.

أمّا الأُستاذ فكان يغمر أُولئك الصفوة بحنانه ورأفته، وعواطفه النبيلة، وحسّه المرهف العظيم، لم يعرف نظيره من الآباء والأُمّهات تجاه أولادهم.

وأكتفي هنا بتسجيل مثال واحد يجسّد لك مدىٰ عواطفه الشفّافة الرقيقة تجاه تلاميذه البررة، ألا وهي الرسالة الصوتيّة التي أرسلها إلىٰ مَنْ هاجر من طلّابه إلىٰ إيران ـ وقتئذٍ ـ فراراً من البعث الكافر، وإليكم نصّ الرسالة:

بسم الله الرحمن الرحيم

«السلام عليكم أيّها الأحبّة من أبيكم البعيد عنكم بجسمه، القريب منكم بقلبه، الذي يعيشكم في أعماق نفسه، وفي كلّ ذكرياته؛ لأنّكم تعبير حيّ حاضر عن تأريخه وماضيه، وامتداد نابض بواقعه وحاضره، وأمل كبير لمستقبل هذه الأُمّة.

يا صفوة الأحبّة نبلاً ووفاءً وإخلاصاً وحبّاً، يا من افتقدتهم، أو افتقدت قربهم ـ على الأصحّ ـ وأنا أحوج ما أكون إليهم، وأشدّ ما أكون طلباً لعونهم. يا من بنيتهم ذرّة فذرّة، وواكبت نموّهم الطاهر قطرة فقطرة، وعشت معهم السرّاء والضرّاء، واليسر والبلاء، ولم ينفصلوا عنّي في أيّ لحظة من لحظات الليل العبوس، أو النهار المشرق، يا من أجدهم رغم ابتعادهم، وأجدهم في كلّ ما حولي رغم خلوّ الديار منهم، وكيف لا أجدكم يا أولادي معي وكلّ شيء في نفسي أو خارج نفسي يذكّر بكم، ويشير إليكم، وينبّه إلى أيّامكم؟! وهل هناك أقوى دلالةً وأعمق إشارة في هذا المجال من الفراغ الذي خلّفتموه في هذه الرحاب، في هذه الديار؟! هذا الفراغ الذي يصرخ بأسمائكم باستمرار؛ لأنّه فراغ رهيب عاطفيّاً ومنطقيّاً. إنّ بصمات أصابعكم على كلّ حياتي أينما التفتُّ، أينما توجّهت وجدت لهذا أو ذاك منكم، فأين الطيّبون البررة؟ وأين أُولئك الذين كان هذا الإنسان الذي رعاهم يجد في قربه منهم معنىً من معاني حياته، وامتداداً من امتدادات أمله؟ أين الأوّلون الذين سبقوا إخوانهم بالهجرة قبل سنين؟ وأين الباقون واللّاحقون الذين تتابعوا خلال سنين جماعاتٍ ووحداناً؟ إنّ مثلَ أبيكم ـ كما كتبت إلى أحدكم[1] ـ مثلُ الشجرة تنمو أغصانها وتُورِق، وتمتدّ في الفضاء عالياً، ولكن تتمزّق من داخلها، جذورها وأعصابها الممتدّة في الأرض.

---

(١) كان هذا المضمون مكتوباً في رسالة منه ﷺ إليّ.

إنّ لحظات سوف تبقى خالدات، وكلّ لحظاتكم خالدات في نفس أبيكم. إنّ لحظة وقوفك أيّها السعيد[١] في فوهة السلّم وأنت تودّعني وتبكي، إنّ تلك اللحظة ما نسيتها، ولن أنساها أبداً؛ لأنّها اللحظة التي تصوّر البنوّة البارّة. إنّ تلك اللحظة التي ودّعتني فيها يا آقاي أخلاقيّ[٢] وأنت تعيش لحظة من أحرج لحظاتك، ودّعتني وكنتُ أحسّ بأنّك تنتزع انتزاعاً، وأنّك تتمزّق تمزّقاً، إنّ تلك اللحظة لا يمكن أن أنساها.

إنّ تلك اللحظة التي لم تستطع فيها يا أبا أحمد[٣] أن تودّعني، أو أن أُلقي نظرةً أخيرةً عليك، إنّ تلك اللحظة تمزّقني أنا تمزّقاً وتمزيقاً. ولئن كنت أعيش مأساة فراقكم أيّها الأحبّة فأنا ـ في الوقت نفسه ـ أشعر من خلال هذه المأساة بانتصاركم؛ لأنّكم أثبتّم من خلالها كلّ ما يودّ الأب أن يراه في أبنائه من ثبات، ونبل، وشهامة، وإخلاص، ووفاء، وهذا أقصى ما يسعد الأب، وما يشعره بامتداده في أبنائه، فأنتم معي علىٰ الرغم من الزمان، وعلىٰ الرغم من المكان، ولتكن هذه المعيّة في الله، ومن أجل الله، تعبيراً حيّاً عن لقائنا باستمرار إلىٰ أن يجتمع الشمل، وتعود الأغصان إلىٰ الشجرة الأُمّ.

---

(١) المقصود هو الشيخ سعيد النعمانيّ أحد مخلصيه الأعزّاء، وهو يعيش اليوم في طهران.

(٢) هو الشيخ عبّاس الأخلاقي أحد طلّابه البررة، وهو اليوم يعيش في قم المقدّسة.

(٣) هو السيّد عبدالهادي الشاهروديّ أحد طلّابه المخلصين، وهو يعيش في(علي آباد كتول)، ويقيم صلاة الجمعة هناك.

إنّ مقوّمات الصمود والثبات والاستمرار في الحياة هي الحبّ، والأمل، والثقة، ونحن جميعاً نملك هذه العناصر الثلاثة، نسأل الله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ أن يقرّ عيني بكم، ويرعاكم بعينه التي لاتنام، ويجعل منكم دائماً وأبداً المستوىٰ الأمثل في سلوكه، وورعه، وإيمانه، ودرسه وعلمه؛ لكي تكونوا المَثَل والقدوة والامتداد والأمل الكبير في حياة المسلمين. والسلام عليكم من قلبٍ لايملّ الحديث معكم، ورحمة الله وبركاته».

وكان الأُستاذ﵀ حينما سجّل هذه الرسالة في شريط تسجيل لإرسالها إلىٰ طلّابه كانت الدموع تجري من عينيه علىٰ ما قاله الشيخ محمّدرضا النعمانيّ: وهو أحد طلّابه الأعزّاء، قال حفظه الله: «لو تراه وهو يتحدّث ـ وأنا الوحيد الذي رأيته يتحدّث ـ والدموع تجري من عينيه، وأراه يعصر بيديه، ولو لاوجودي معه في الغرفة، فلست أدري ماذا سيصنع، وماذا سيقول؟ فهو حياءً منّي تماسك، وصبر حتّى خرجت هذه الكلمة».

ولست أنا بصدد سرد أسماء طلّابه الأعزاء، وقد وردت أسماء بعضهم في ثنايا كتابنا هذا، ولو كنت بصدد ذلك لصعب علىٰ ذاكرتي حصرهم، وهم كثيرون ومنتشرون في بلاد الله العريضة، ولكنّي أذكر هنا اسمين ممّن تتلمذوا علىٰ يده في درس الكفاية، واستمرّوا معه فيما اصطلح عليه في الحوزات العلميّة ببحث الخارج، وأذكر اسماً واحداً من الجيل الثاني الذين التحقوا ببحثه الشريف في أواخر الدورة الأُولىٰ:

١ ـ السيّد محمّد باقر الحكيم :

ابن المرحوم آية الله العظمىٰ السيّد محسن الحكيم﵀ تتلمذ علىٰ يد الأُستاذ الشهيد في درس الكفاية، واستمرّ معه في بحث الخارج، وحضر قسماً كبيراً من البحث فقهاً وأُصولاً، واعتقل من قبل البعث الكافر المسيطر علىٰ العراق الجريح مرّتين، وحكم عليه في المرّة الثانية بالسجن المؤبّد، وبعد مضيّ سنة ونصف تقريباً علىٰ سجنه شمله ما يسمّى بالعفو العامّ من قبل الدولة، وبعد فترة من الزمن خرج من العراق إلىٰ سورية، واليوم يعيش في إيران الإسلام، ويمارس دوره السياسي رئيساً للمجلس الأعلىٰ للثورة الإسلاميّة في العراق.

٢ ـ السيّد نورالدين الإشكوريّ :

ابن المرحوم حجّة الإسلام السيّد علي الإشكوريّ رضوان الله عليه، تتلمذ على يد الأُستاذ الشهيد في الكفاية، واستمرّ معه في بحث الخارج فقهاً وأُصولاً إلىٰ أن ذهب كعالم دين إلىٰ (ذي الكفل)، ثُمَّ انتقل كعالم ـ أيضاً ـ إلىٰ الكاظميّة، كان يمارس نشاطه الدينيّ مع الناس، ويدرّس في نفس الوقت ثلّة من علماء الكاظميّة وبغداد، ثُمَّ انتقل مرّة أُخرىٰ إلىٰ (ذي الكفل)، وبعده انتقل إلىٰ الحلّة، واستمرّ في نشاطه الدينيّ مع الناس في الحلّة، والإشراف علىٰ وضع عدد من علماء الحلّة إلىٰ أن سفّرته الحكومة الجائرة في العراق إلىٰ إيران، وعندئذٍ مارس فترة من الزمن نشاطه العلميّ في قم المقدّسة، ثُمَّ انتقل كعالم دين إلىٰ قزوين، ثُمَّ نفته حكومة الشاه المقبور من مقرّ

عمله إلىٰ بلد من البلاد الواقعة في الجانب الشمالي لخراسان يسمّى (درّ گز) قريباً من الحدود الروسيّة، ثُمَّ أُفرج عنه في أواخر أيّام الشاه التي أُفرج فيها عن باقي العلماء المبعّدين أيضاً؛ نتيجة الضعف الذي أُصيبت به الحكومة في مقابل الثورة الإسلاميّة. وهو اليوم يعيش في كرج، ويمارس عمله كعالم دين في تلك المنطقة.

٣ ـ السيّد محمود الهاشميّ :

ابن المرحوم الحجّة السيّد علي الحسينيّ صاحب كتاب الدراسات، التحق ببحث الأُستاذ في أواخر الدورة الأُولىٰ، واستمرّ معه في الدورة الثانية إلىٰ قسم ممّا يسمّى بالمباحث العقليّة إلىٰ أن هاجر إلىٰ إيران، وحضر في تلك المدّة أبحاثه الفقهيّة أيضاً. اعتقل من قبل حزب البعث في العراق، وعذّب تعذيباً لايطاق بتهمة انتمائه إلىٰ حزب الدعوة الإسلاميّة، ثُمَّ أُفرج عنه بعنوان البراءة من التهمة، وحظي أخيراً بإجازة الاجتهاد من قبل أُستاذنا الشهيد في (٢٧ / ربيع الآخر / ١٣٩٩ هـ).

وهو اليوم يمارس نشاطه العلميّ في قم المقدّسة، ويمارس نشاطه السياسيّ ناطقاً رسميّاً للمجلس الأعلىٰ للثورة الإسلاميّة في العراق.

الأخلاق الفاضلة لأستاذنا الشهيد قدس سره

لا أستطيع أن أقول شيئاً تحت هذا العنوان عدا كلمة واحدة، وهي: أنّ أخلاقه الفاضلة كانت تذكّرنا بما سجّل التأريخ عن الأنبياء والمرسلين، والأئمّة المعصومين عليهم السلام، وحكاه لنا القرآن الكريم عن الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله بقوله تعالىٰ: ﴿ **وإنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيم** ﴾ وبقوله تعالىٰ: ﴿ **فَبِما رَحْمَةٍ مِنَ اللَّه لِنْتَ لَهُمْ، وَ لَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ القَلْبِ لانْفَضّوْا مِنْ حَوْلِك** ﴾.

وقد يتراءىٰ للقارئ الكريم أنّي مبالغ فيما قلت، غير أنّك تستطيع أن تستدلّ علىٰ ذلك ببعض الحكايات التي مضىٰ ذكرها تحت عنوان (ذكريات عن حياته)، وكذلك بعض الحكايات التي سيأتي ذكرها ـ إن شاء الله ـ في فصل استشهاده نقلاً عن الشيخ محمّد رضا النعماني حفظه الله.

أولاده

تزوّج ﷺ إحدىٰ بنات عمّه، وهي أُخت السيّد موسى الصدر رئيس المجلس الشيعيّ الأعلىٰ في لبنان، ورزقهما الله تعالىٰ خمس بناتٍ، وابناً واحداً سمّي بجعفر، وهو رابع الأولاد.

استراتيجيّته قدس سره السياسيّة في العمل الإسلاميّ

- العمل المرحليّ لحزب الدعوة.
- المرجعيّة الصالحة والمرجعيّة الموضوعيّة.
- الحوزة العلميّة والتحزّب.
- أساس الحكم.

إنّ الأُستاذ الشهيد﵀ مرّ بأدوار عديدة في عمله الإسلاميّ، والتطوّر المشهود في أساليب عمله يرجع إلىٰ عدّة أسباب:

١ ـ إنّ العمل المتكامل في فترة طويلة نسبيّاً يتطلّب بطبيعته المرحليّة التطوّر والتغيّر بمرور الزمن، بمعنى: أنّ ما يصحّ من العمل في مرحلةٍ منه ربّما لايصحّ في المرحلة المسبقة، والعكس صحيح أيضاً.

٢ ـ إنّ تبدّل العوامل الخارجيّة الذي ربّما لايكون من أوّل الأمر بالحسبان، يؤثّر لامحالة في طريقة العمل.

٣ ـ إنّ أصل النظريّة في أُسلوب العمل قد تنضج وتتكامل وتتطوّر في ذهن الإنسان بمرور الزمان، ممّا يؤثّر في أُسلوب العمل، ويؤدّي إلىٰ تطويره.

إنّ أُستاذنا الشهيد﵀ أسّس في أوائل شبابه حزباً إسلاميّاً باسم (حزب الدعوة الإسلاميّة)، وكان هذا في وقته تقدّماً ملحوظاً في الوعي السياسيّ بالنسبة إلىٰ مستوىٰ الوعي المتعارف آنئذٍ في الحوزة العلميّة في النجف الأشرف، حتّى إنّ كثيراً من المتديّنين بالتديّن الجافّ آنذاك كان يرمي من ينتمي إلىٰ حزب إسلاميّ ـ فضلاً عمّن يؤسّس حزباً إسلاميّاً ـ بالانحراف عن خطّ الإسلام

الصحيح، وبالارتباط بالاستعمار الكافر، وكلّ من كان يدّعي ضرورة إقامة الحكم الإسلاميّ كان يُتّهم بمثل هذه الاتّهامات؛ لأنّ إقامة الحكم الإسلاميّ لاتكون في نظرهم إلّا بعد ظهور الإمام صاحب الزمان عجلّ الله فرجه.

أمّا تأريخ تأسيسه﵀ لهذا الحزب، ففي شهر ربيع الأوّل من سنة (١٣٧٧هـ)، علىٰ حسب ما قاله الحاجّ محمّد صالح الأديب حفظه الله، وهو يعدّ أحد أعضاء النواة الأُولى، أو يعتبر إحدىٰ اللبنات الأوّليّة لبناء صرح الحزب.

وقال الحاجّ محمّد صالح الأديب أيضاً: إنّ السيّد الشهيد﵀ خرج من التنظيم بعد تأسيسه إيّاه نحو أربع سنين ونصف، أو خمس سنين.

وكانت قِصّة خروجه من التنظيم علىٰ ما حدّثنا الحاجّ الأديب ـ حفظه الله ـ مايلي:

«كثر الكلام من قبل بعض المغرضين لدىٰ المرحوم آية الله العظمىٰ السيّد الحكيم﵀ علىٰ الشهيد الصدر﵀ بحجّة تأسيسه للحزب، أخيراً جاء (حسين الصافي) ـ وهو رجل بعثيّ لئيم ـ إلىٰ المرحوم آية الله الحكيم﵀، وقال: إنّ السيّد الصدر وآخرين ممّن ذكر أسماءهم قد أسّسوا حزباً باسم حزب الدعوة الإسلاميّة، وبهذا سيهدمون الحوزة العلميّة، وبدأ يهدّد ويتكلّم ضدّ من أسماهم مؤسّسين للحزب، فنهره آية الله العظمىٰ السيّد الحكيم، وقال له: أفأنت أحرص علىٰ مصالح الحوزة العلميّة من السيّد الصدر؟! ثُمَّ أخرجه من بيته بذلٍّ وهوانٍ، ثُمَّ أرسل ـ رضوان الله عليه ـ أحد

أولاده إلىٰ السيّد الصدر، وقال له عن لسان والده: إنّ دعم كلّ الوجودات الإسلاميّة والأعمال الإسلاميّة هو من شأنك، وممّا ينبغي لك أن تقوم به، أمّا أن تُحسب علىٰ جهة إسلاميّة معيّنة وحزب خاصّ، فهذا ممّا لا ينبغي لمن هو مثلك في المقام العلميّ والاجتماعيّ الشامخ، والذي يجب أن يكون دعامة لكلّ الأعمال الإسلاميّة من دون التأطّر بإطار خاصّ، قال السيّد الشهيد سأُفكّر وأتأمّل في الأمر.

وفي اليوم الثاني أرسل رسالة مفصّلة إلىٰ حزب الدعوة عن طريق الحاجّ محمّد صالح الأديب، وكانت خلاصة ما هو مكتوب في الرسالة بعد التأكيد الشديد علىٰ ضرورة استمراريّة عمل حزب الدعوة الإسلاميّة والإشادة الكبيرة بذلك: أنّ آية الله الحكيم طلب منّي أن لا أكون في التنظيم، وأنا أفهم أنّ هذا رأي إلزاميّ له، وعليه فأتوقّف الآن عن الانتماء إلى التنظيم، طالباً منكم الاستمرار بجدّ في هذا العمل، وأنا أدعمكم في عملكم الإسلاميّ المبارك». انتهىٰ ما أخذته من الحاجّ صالح الأديب حفظه الله.

وبعد ذلك مضت الأيّام والليالي إلىٰ أن تصدّىٰ السيّد الشهيد الصدر للمرجعيّة بالتدريج من بعد وفاة المرحوم آية الله العظمىٰ الحكيم، وطرح أخيراً فكرته عن ضرورة الفصل بين جهاز المرجعيّة الصالحة، والتنظيم الحزبيّ؛ بسبب أنّ المرجعيّة الصالحة هي القيادة الحقيقيّة للأُمّة الإسلاميّة، وليس الحزب، وإنّما الحزب يجب عليه أن يكون ذراعاً من أذرع المرجعيّة، ويأتمر بأوامرها،

والتشابك بين التنظيم الإسلاميّ والجهاز المرجعيّ يربك الأُمور.

وما يدرينا لعلّ الأُستاذ الشهيد﵀ كان مؤمناً بهذه الفكرة منذ تأسيسه للحزب، وإن أجّل إبرازها إلىٰ الوقت المناسب، فلم يكن هناك تناقض بين المرحلتين من عمله.

وقد أنشأ﵀ في بيته في ضمن العشرة الأخيرة من سنيّ عمره المبارك مجلساً أُسبوعيّاً كان يضمّ عِبْنَة طلّابه، وكان يتداول معهم البحث في مختلف الأُمور الاجتماعيّة والقضايا الأساسيّة، وكانت تطرح في هذه الجلسات الكثير من مشاكل المسلمين في شتّى أرجاء العالم، وكان يبرز لمن يحضر هذه الجلسات مدىٰ تبنّي الأُستاذ الشهيد لتلبية حاجات المسلمين في كلّ مكان من البلاد الإسلاميّة وغيرها، وتفكيره الدائب في كلّ ما ينفع الإسلام والمسلمين، وتخطيطه الحكيم للحوزات العلميّة، ولملء الشواغر العلمائيّة في كلّ بلد يوجد فيه تجمّع إسلاميّ، ولإرشاد العاملين ضدّ الكفر والطاغوت في جميع البلدان، ولتنشيط الحيويّة في المسلمين جميعاً وما إلىٰ ذلك، ولست هنا بصدد سرد الأبحاث التي كانت تدار في تلك الجلسات الأُسبوعيّة إلّا با! قدار الراجع من تلك الأبحاث إلىٰ ما نحن بصدده من بيان استراتيجيّته﵀ في العمل السياسيّ، وهي ثلاثة أُمور:

أوّلاً: موقفه من العمل المرحليّ المعروف عن حزب الدعوة الإسلاميّة الذي تبنّاه هو﵀ عند تأسيس الحزب.

ثانياً: أُطروحته للمرجعيّة الصالحة والمرجعيّة الموضوعيّة.

ثالثاً: رأيه في مدىٰ صحّة اشتراك الحوزة العلميّة في الأحزاب السياسيّة الإسلاميّة.

العمل المرحليّ لحزب الدعوة

أمّا الأوّل: وهو العمل المرحليّ لحزب الدعوة الإسلاميّة الذي تبنّاه هو ـ رضوان الله عليه ـ لدىٰ تأسيسه للحزب، فالمعروف اليوم عن حزب الدعوة أنّه يؤمن بمراحل أربع للعمل:

١ ـ مرحلة تكوين الحزب وبنائه، والتغيير الفكريّ للأُمّة.

٢ ـ مرحلة العمل السياسيّ التي يتمّ بضمنها جلب نظر الأُمّة إلىٰ الأُطروحة الإسلاميّة للحزب، ومواقفه السياسيّة، وتبنّيها لتلك المواقف، ودفاعها عنها.

٣ ـ مرحلة استلام الحكم.

٤ ـ مرحلة رعاية مصالح الإسلام والأُمّة الإسلاميّة بعد استلام الحكم.

ولكنّ الذي نقله الأُستاذ ـ رضوان الله عليه ـ في تلك المجالس الأُسبوعية لطلّابه هي المراحل الثلاث الأُولى، وهو المثبت في النشرات الأوّليّة للحزب، ولم يتعرّض للمرحلة الرابعة.

وعلىٰ أيّة حال، فقد تناول الأُستاذ ﷺ هذا العمل المرحليّ بالبحث، ولم يكن غرضه من ذلك شجب أصل كبرىٰ المرحليّة في العمل؛ فإنّها من أوّليّات العمل الاجتماعيّ، وقد طبّقها ـ رضوان الله عليه ـ فيما كتبه

عن عمل المرجعيّة الصالحة، وإنّما الذي بيّنه في بحثه عن ذلك هو النقاش في مصداق معيّن بلحاظ الانتقال من المرحلة الأُولى إلىٰ المرحلة الثانية، وخلاصة ما قاله بهذا الصدد هي: أنّنا حينما نعيش بلداً ديمقراطيّاً يؤمن باحترام الشعب وآرائه، ولاتجابههم السلطة بالتقتيل والتشريد بلا أيّ حساب وكتاب، يكون بالإمكان افتراض حزبٍ ما يبدأ عمله بتكوين بنية ذاتيّة بشكل سرّيّ، ثُمَّ يبدأ في مرحلة سياسيّة علنيّة، ومحاولة كسب الأُمّة إلىٰ جانبه، وجرّها إلىٰ تبنّي تلك المواقف السياسيّة، ولكنّ الواقع في مثل العراق ليس هكذا، ففي أيّ لحظة تحسّ السلطة الظالمة بوجود حزب إسلاميّ منظّم يعمل علىٰ وفق هذه المراحل لتحكيم الإسلام، تقتل وتشرّد وتسجن وتعذّب العاملين، وتخنق العمل في تلك البلاد قبل أن يتمّ تعاطف الأُمّة معه وتحرّكها إلىٰ جانبه، فما لم يصادف هناك تحوّل آخر دوليّ في العالم يقلب الحسابات ليس بإمكان الحزب أن ينتقل من مرحلته الأُولى إلىٰ المرحلة الثانية. قال﵀ هذا الكلام بحدود سنة (١٣٩٢ هـ).

والذي تحقّق بعد ذلك في واقعنا المعاش هو انتصار المرجعيّة الصالحة في إيران بقيادتها للأُمّة الإسلاميّة الخاضعة لها، ولو لاقيام الدولة المباركة في إيران بجهود الأُمّة جميعاً وبقيادة المرجعيّة الرشيدة المتمثّلة في الإمام الخمينيّ ـ دام ظلّه ـ لم يكن هناك معقل للإسلاميّين يلجأون إليه، ولم تكن أرض لهم ينطلقون منها في عملهم، ولكنّ الله تعالىٰ قد منّ علىٰ العباد بهذه الدولة التي لولاها لما

بقي حتّى اليوم في العراق مسجد للصلاة، أو مرقد لإمام معصوم، فضلاً عن بقاء عمل إسلاميّ منظّم فيه.

المرجعيّة الصالحة والمرجعيّة الموضوعيّة

وأمّا الثاني: فقد بحث طيلة عدّة أسابيع أُطروحة لما أسماه (بالمرجعيّة الصالحة)، ولما أسماه (بالمرجعيّة الموضوعيّة)، وأردف ذلك ببيان بعض المقترحات التي ينبغي أن تقوم بها المرجعيّة الصالحة، وبعد انتهائه عن هذا البحث أمرني بكتابة كلّ ما جرىٰ فيه، فامتثلت أمره، وكتبت ما تلخّص في تلك الأبحاث، فأخذه الأُستاذ، وأعاد هو بصياغته الخاصّة كتابة أبحاث المرجعيّة الصالحة والمرجعيّة الموضوعيّة، ولكن لم يكتب المقترحات التي كان قد أردف البحث بها.

ونحن هنا نتعرّض أوّلاً لذكر ما كتبه بقلمه الشريف في ترسيم وضع المرجعيّة الصالحة والمرجعيّة الموضوعيّة مع تغيير يسير لفظيّ كوضع بعض العناوين الجانبيّة في الأثناء، ثُمَّ نتعرّض لخلاصة المقترحات التي كان قد أردف البحث بها، ولم يكتبها:

أمّا ما كتبه بقلمه الشريف، فهو ما يلي:

بسم الله الرحمن الرحيم

إنّ أهمّ ما يميّز المرجعيّة الصالحة تبنّيها للأهداف الحقيقيّة التي يجب أن تسير المرجعيّة في سبيل تحقيقها لخدمة الإسلام، وامتلاكها

صورة واضحة محدّدة لهذه الأهداف، فهي مرجعيّة هادفة بوضوح ووعي تتصرّف دائماً علىٰ أساس تلك الأهداف بدلاً من أن تمارس تصرّفات عشوائيّة، وبروح تجزيئيّة، وبدافع من ضغط الحاجات الجزئيّة المتجدّدة.

وعلىٰ هذا الأساس كان المرجع الصالح قادراً علىٰ عطاء جديد في خدمة الإسلام، وإيجاد تغيير أفضل لصالح الإسلام في كلّ الأوضاع التي يمتدّ إليها تأثيره ونفوده.

أهداف المرجعيّة الصالحة :

ويمكن تلخيص أهداف المرجعيّة الصالحة رغم ترابطها وتوحّد روحها العامّة في خمس نقاط:

١ ـ نشر أحكام الإسلام علىٰ أوسع مدىً ممكن بين المسلمين، والعمل لتربية كلّ فرد منهم تربية دينيّة تضمن التزامه بتلك الأحكام في سلوكه الشخصيّ.

٢ ـ إيجاد تيّار فكريّ واسع في الأُمّة يشتمل علىٰ المفاهيم الإسلاميّة الواعية، من قبيل المفهوم الأساسيّ الذي يؤكّد أنّ الإسلام نظام كامل شامل لشتّىٰ جوانب الحياة، واتّخاذ ما يمكن من أساليب لتركيز تلك المفاهيم.

٣ ـ إشباع الحاجات الفكريّة الإسلاميّة للعمل الإسلاميّ، وذلك عن طريق إيجاد البحوث الإسلاميّة الكافية في مختلف المجالات الاقتصاديّة والاجتماعيّة والمقارنات الفكريّة بين الإسلام وبقيّة

المذاهب الاجتماعيّة، وتوسيع نطاق الفقه الإسلاميّ على نحو يجعله قادراً على مدّ كلّ جوانب الحياة بالتشريع، وتصعيد الحوزة ككلٍّ إلى مستوى هذه المهامّ الكبيرة.

٤ ـ القيمومة على العمل الإسلاميّ، والإشراف على ما يعطيه العاملون في سبيل الإسلام في مختلف أنحاء العالم الإسلاميّ: من مفاهيم، وتأييد ما هو حقّ منها، وإسناده وتصحيح ما هو خطأ.

٥ ـ إعطاء مراكز العالميّة من المرجع إلى أدنى مراتب العلماء الصفة القياديّة للأمّة بتبنّي مصالحها، والاهتمام بقضايا الناس ورعايتها، واحتضان العاملين في سبيل الإسلام.

ووضوح هذه الأهداف للمرجعيّة وتبنّيها وإن كان هو الذي يحدّد صلاح المرجعيّة، ويحدث تغييراً كبيراً في سياستها العامّة، ونظراتها إلى الأمور، وطبيعة تعاملها مع الأمّة، ولكن لا يكفي مجرّد وضع هذه الأهداف ووضوح إدراكها لضمان الحصول على أكبر قدر ممكن من مكاسب المرجعيّة الصالحة؛ لأنّ الحصول على ذلك يتوقّف ـ إضافة إلى صلاح المرجع ووعيه واستهدافه ـ على عمل مسبق على قيام المرجعيّة الصالحة من ناحية، وعلى إدخال تطويرات على أسلوب المرجعيّة ووضعها العمليّ من ناحية أخرى.

أمّا فكرة العمل المسبق على قيام المرجعيّة الصالحة، فهي تعني: أنّ بداية نشوء مرجعيّة صالحة تحمل الأهداف الآنفة الذكر تتطلّب وجود قاعدة قد آمنت بشكل وآخر بهذه الأهداف في داخل الحوزة وفي الأمّة، وإعدادها فكريّاً وروحيّاً للمساهمة في خدمة

الإسلام وبناء المرجعيّة الصالحة؛ إذ ما لم توجد قاعدة من هذا القبيل تشارك المرجع الصالح في أفكاره وتصوّراته، وتنظر إلىٰ الأُمور من خلال معطيات تربية ذلك الإنسان الصالح لها، وجود المرجع الصالح وحده غير كافٍ لإيجاد المرجعيّة الصالحة حقّاً، وتحقيق أهدافها في النطاق الواسع.

وبهذا كان لزاماً علىٰ من يفكّر في قيادة تطوير المرجعيّة إلىٰ مرجعيّة صالحة أن يمارس هذا العمل المسبق بدرجة ما، وعدم ممارسته هو الذي جعل جملة من العلماء الصالحين ـ بالرغم من صلاحهم ـ يشعرون عند تسلّم المرجعيّة بالعجز الكامل عن التغيير؛ لأنّهم لم يمارسوا هذا العمل المسبق، ولم يحدّدوا مسبقاً الأهداف الرشيدة للمرجعيّة والقاعدة التي تؤمن بتلك الأهداف.

تطوير أُسلوب المرجعيّة :

وأمّا فكرة تطوير أُسلوب المرجعيّة وواقعها العمليّ، فهي تستهدف:

أوّلاً: إيجاد جهاز عمليّ تخطيطيّ وتنفيذيّ للمرجعيّة يقوم علىٰ أساس الكفاءة، والتخصّص، وتقسيم العمل، واستيعاب كلّ مجالات العمل المرجعيّ الرشيد في ضوء الأهداف المحدّدة.

ويقوم هذا الجهاز بالعمل بدلاً من الحاشية التي تعبّر عن جهاز عفويّ مرتجل يتكوّن من أشخاص جمعتهم الصدف والظروف الطبيعيّة؛ لتغطية الحاجات الآنيّة بذهنيّة تجزيئيّة وبدون أهداف

محدّدة واضحة.

ويشتمل هذا الجهاز على لجانٍ متعدّدةٍ تتكامل وتنمو بالتدريج إلى أن تستوعب كلّ إمكانات العمل المرجعيّ. ويمكن أن نذكر اللجان التالية كصورة مُثلى وهدف أعلى ينبغي أن يصل إليه الجهاز العمليّ للمرجعيّة الصالحة في تطوّره وتكامله:

١ ـ لجنة أو لجان لتسيير الوضع الدراسيّ في الحوزة العلميّة، وهي تمارس تنظيم دراسة ما قبل (الخارج)، والإشراف على دراسات الخارج، وتحدّد الموادّ الدراسيّة، وتضع الكتب الدراسيّة، وتجعل بالتدريج الدراسة الحوزويّة بالمستوى الذي يتيح للحوزة المساهمة في تحقيق أهداف المرجعيّة الصالحة، وتستحصل معلومات عن الانتسابات الجغرافيّة للطلبة، وتسعى في تكميل الفراغات وتنمية العدد.

٢ ـ لجنة للإنتاج العلميّ، ووظائفها إيجاد دوائر علميّة لممارسة البحوث، ومتابعة سيرها، والإشراف على الإنتاج الحوزويّ الصالح وتشجيعه، ومتابعة الفكر العالميّ بما يتّصل بالإسلام، والتوافر على إصدار شيء كمجلّة أو غيرها، والتفكير في جلب العناصر الكفوءة إلى الحوزة، أو التعاون معها إذا كانت في الخارج.

٣ ـ لجنة أو لجان مسؤولة عن شؤون علماء المناطق المرتبطة، وضبط أسمائهم وأماكنهم ووكالاتهم، وتتبّع سيرهم وسلوكهم واتّصالاتهم، والاطّلاع على النقائص والحاجات والفراغات، وكتابة تقرير إجماليّ في وقت رتيب أو عند طلب المرجع.

٤ ـ لجنة الاتّصالات، وهي تسعى لإيجاد صلات بالمرجعيّة في المناطق التي لم تتّصل بالمركز، ويدخل في مسؤوليّتها إحصاء المناطق، ودراسة إمكانات الاتّصال بها، وإيجاد سفرة تفقّديّة إمّا علىٰ مستوىٰ تمثيل المرجع أو علىٰ مستوىٰ آخر، وترشيح المناطق التي أصبحت مستعدّة لتقبّل العالم، وتولّي متابعة السير بعد ذلك، ويدخل في صلاحيّتها الاتّصال في الحدود الصحيحة مع المفكّرين والعلماء في مختلف أنحاء العالم الإسلاميّ، وتزويدهم بالكتب، والاستفادة من المناسبات كفرصة الحجّ.

٥ ـ لجنة رعاية العمل الإسلاميّ والتعرّف علىٰ مصاديقه في العالم الإسلاميّ، وتكوين فكرة عن كلّ مصداق، وبذل النصح والمعونة عند الحاجة.

٦ ـ اللجنة الماليّة التي تعني بتسجيل المال وضبط موارده، وإيجاد وكلاء ماليّين، والسعي في تنمية الموارد الطبيعيّة لبيت المال، وتسديد المصارف اللازمة للجهاز مع التسجيل والضبط.

ولا شكّ في أنّ بلوغ الجهاز إلىٰ هذا المستوىٰ من الاتّساع والتخصّص يتوقّف علىٰ تطوّر طويل الأمد، ومن الطبيعيّ أن يبدأ الجهاز محدوداً وبدون تخصّصات حدّية تبعاً لضيق نطاق المرجعيّة، وعدم وجود التدريب الكافي.

والممارسة والتطبيق هو الذي يبلور القابليات من خلال العمل، ويساعد علىٰ التوسيع والتخصّص.

وثانياً: إيجاد امتداد أُفقيّ حقيقيّ للمرجعيّة يجعل منها محوراً

قويّاً تنصبّ فيه قوىٰ كلّ ممثّلي المرجعيّة والمنتسبين إليها في العالم؛ لأنّ المرجعيّة حينما تتبنّى أهدافاً كبيرةً، وتمارس عملاً تغييريّاً واعياً في الأُمّة لابدّ أن تستقطب أكبر قدر ممكن من النفوذ؛ لتستعين به في ذلك، وتفرض بالتدريج وبشكل وآخر السير في طريق تلك الأهداف علىٰ كلّ ممثّليها في العالم.

وبالرغم من انتساب كلّ علماء الشيعة تقريباً إلىٰ المرجع في الواقع المعاش يلاحظ بوضوح أنّه في أكثر الأحيان انتساب نظريّ وشكليّ لايخلق المحور المطلوب كما هو واضح.

وعلاج ذلك يتمّ عن طريق تطوير شكل الممارسة للعمل المرجعيّ، فالمرجع تأريخيّاً يمارس عمله المرجعيَّ كلّه ممارسة فرديّة؛ ولهذا لاتشعر كلّ القوىٰ المنتسبة إليه بالمشاركة الحقيقيّة معه في المسؤوليّة، والتضامن الجادّ معه في المواقف، وأمّا إذا مارس المرجع عمله من خلال مجلس يضمّ علماء الشيعة والقوىٰ الممثّلة له دينيّاً، وربط المرجع نفسه بهذا المجلس، فسوف يكون العمل المرجعيّ موضوعيّاً، وإن كانت المرجعيّة نفسها بوصفها نيابة عن الإمام قائمة بشخص المرجع، غير أنّ هذه النيابة القائمة بشخصه لم تُحدّد له أُسلوب الممارسة، وإنّما يتحدّد هذا الأُسلوب في ضوء الأهداف والمصالح العامّة.

وبهذا الأُسلوب الموضوعيّ من الممارسة يصون المرجع عمله المرجعيّ من التأثّر بانفعالات شخصه، ويعطي له بعداً وامتداداً واقعيّاً كبيراً؛ إذ يشعر كلّ ممثّلي المرجع بالتضامن والمشاركة في تحمّل

مسؤوليّات العمل المرجعيّ وتنفيذ سياسة المرجعيّة الصالحة التي تقرّر من خلال ذلك المجلس. وسوف يضمّ هذا المجلس تلك اللجان التي يتكوّن منها الجهاز العمليّ للمرجعيّة، وبهذا تلتقي النقطة السابقة بهذه النقطة.

ولئن كان في أُسلوب الممارسة الفرديّة للعمل المرجعيّ بعض المزايا ـ كسرعة التحرّك، وضمان درجة أكبر من الضبط، والحفظ، وعدم تسرّب عناصر غير واعية إلىٰ مستوىٰ التخطيط للعمل المرجعيّ ـ فإنّ مزايا الأُسلوب الآخر أكبر وأهمّ.

ونحن نطلق علىٰ المرجعيّة ذات الأُسلوب الفرديّ في الممارسة اسم المرجعيّة الذاتيّة، وعلىٰ المرجعيّة ذات الأُسلوب المشترك والموضوعيّ في الممارسة اسم المرجعيّة الموضوعيّة.

وهكذا يظهر أنّ الفرق بين المرجعيّة الذاتيّة والمرجعيّة الموضوعيّة ليس في تعيين شخص المرجع الشرعيّ الواقعيّ؛ فإنّ شخص المرجع دائماً هو نائب الإمام، ونائب الإمام هو المجتهد المطلق العادل الأعلم الخبير بمتطلّبات النيابة، وهذا يعني: أنّ المرجعيّة من حيث مركز النيابة للإمام ذاتيّة دائماً، وإنّما الفرق بين المرجعيّتين في أُسلوب الممارسة.

وثالثاً: امتداداً زمنيّاً للمرجعيّة الصالحة لاتتّسع له حياة الفرد الواحد.

فلابدّ من ضمان نسبيّ لتسلسل المرجعيّة في الإنسان الصالح المؤمن بأهداف المرجعيّة الصالحة؛ لئلّا ينتكس العمل بانتقال

المرجعيّة إلىٰ من لا يؤمن بأهدافها الواعية، ولابدّ ـ أيضاً ـ من أن يُهيَّأ المجال للمرجع الصالح الجديد؛ ليبدأ ممارسة مسؤوليّاته من حيث انتهى المرجع العامّ السابق، بدلاً من أن يبدأ من الصفر، ويتحمّل مشاقّ هذه البداية وما تتطلّبه من جهود جانبيّة، وبهذا يتاح للمرجعيّة الاحتفاظ بهذه الجهود للأهداف، وممارسة ألوان من التخطيط الطويل المدىٰ.

ويتمّ ذلك عن طريق شكل المرجعيّة الموضوعيّة؛ إذ في إطار المرجعيّة الموضوعيّة لا يوجد المرجع فقط، بل يوجد المرجع كذات، ويوجد الموضوع، وهو المجلس بما يضمّ من جهاز يمارس العمل المرجعيّ الرشيد، وشخص المرجع هو العنصر الذي يموت، وأمّا الموضوع فهو ثابت، ويكون ضماناً نسبيّاً إلىٰ درجة معقولة بترشيح المرجع الصالح في حالة خلوّ المركز، وللمجلس وللجهاز ـ بحكم ممارسته للعمل المرجعيّ، ونفوذه وصلاته، وثقة الأُمّة به ـ القدرة دائماً علىٰ إسناد مرشّحه، وكسب ثقة الأُمّة إلىٰ جانبه.

وهكذا تلتقي النقطتان السابقتان مع هذه النقطة في طريقة الحلّ.

مراحل المرجعيّة الصالحة :

وللمرجعيّة الصالحة ثلاث مراحل:

١ ـ مرحلة ما قبل التصدّي الرسميّ للمرجعيّة المتمثّل بطبع رسالة عمليّة، وتدخل في هذه المرحلة ـ أيضاً ـ فترة ما قبل المرجعيّة إطلاقاً.

٢ ـ مرحلة التصدّي بطبع الرسالة العمليّة.

٣ ـ مرحلة المرجعيّة العليا المسيطرة علىٰ الموقف الدينيّ.

وأهداف المرجعيّة الصالحة ثابتة في المراحل الثلاث، وفي المرحلة الأُولى يتمّ إنجاز العمل المسبق الذي أشرنا سابقاً إلىٰ ضرورته؛ لقيام المرجعيّة الصالحة.

وطبيعة هذه المرحلة تفرض أن تمارس المرجعيّة ممارسة أقرب إلىٰ الفرديّة بحكم كونها غير رسميّة، ومحدودة في قدرتها، وكون الأفراد في بداية التطبيق والممارسة للعمل المرجعيّ، فالمرجعيّة في هذه المرحلة ذاتيّة، وإن كانت تضع في نفس الوقت بذور التطوير إلىٰ شكل المرجعيّة الموضوعيّة عن طريق تكوين أجهزة استشاريّة محدودة، ونوع من التخصّص في بعض الأعمال المرجعيّة.

وأمّا في المرحلة الثانية، فيبدأ عمليّاً تطوير الشكل الذاتيّ إلىٰ الشكل الموضوعيّ، لكن لا عن طريق الإعلان عن أُطروحة المرجعيّة الموضوعيّة بكاملها، ووضعها موضع التنفيذ في حدود المستجيبين؛ لأنّ هذا وإن كان يولّد زخماً تأييديّاً في صفوف بعض الراشدين في التفكير، ولكنّه من ناحية يفصل المرجعيّة الصالحة عن عدد كبير من القوىٰ والأشخاص غير المستعدّين للتجاوب في هذه المرحلة، ومن ناحية أُخرىٰ يضطرّها إلىٰ الاستعانة بما هو الميسور في تقديم صيغة المرجعيّة الموضوعيّة، وهذا الميسور لايكفي كمّاً ولاكيفاً لملء حاجة المرجعيّة الموضوعيّة.

بل الطريق الطبيعيّ في البدء بتحقيق المرجعيّة الموضوعيّة

ممارسةُ المرجعيّة الصالحة لأهدافها ورسالتها عن طريق لجان وتشكيلات متعدّدة بقدر ما تفرضه بالتدريج حاجات العمل الموضوعيّة، وقدرات المرجعيّة البشريّة والاجتماعيّة، ويربط بالتدريج بين تلك اللجان والتشكيلات، ويوسّع منها حتّى تتمخّض في نهاية الشوط عن تنظيم كامل شامل للجهاز المرجعيّ.

ويتأثّر سير العمل في تطوير أُسلوب المرجعيّة وجعلها موضوعيّة بعدّة عوامل في حياة الأُمّة: فكريّة وسياسيّة، وبنوعيّة القوىٰ المعاصرة في الحوزة للمرجعيّة الموضوعيّة، ومدىٰ وجودها في الأُمّة، ومدىٰ علاقتها طرداً أو عكساً بأفكار المرجعيّة الصالحة، ولابدّ من أخذ كلّ هذه العوامل بعين الاعتبار والتحفّظ من خلال مواصلة عمليّة التطوير المرجعيّ عن تعريض المرجعيّة ذاتها لانتكاسة تقضي عليها، إلّا إذا لوحظ وجود مكسب كبير في المحاولة ولو باعتبارها تمهيداً لمحاولة أُخرىٰ ناجحة يفوق الخسارة التي تترتّب علىٰ تفتّت المرجعيّة الصالحة التي تمارس تلك المحاولة.

انتهى ما جرىٰ علىٰ قلم أُستاذنا الشهيد لترسيم وضع المرجعيّة الصالحة والمرجعيّة الموضوعيّة، وقد طبع هذا البحث أكثر من مرّة، إحداها ما جاء في مجلّة صوت الأُمّة العدد الخامس للسنة الأُولى.

أمّا المقترحات التي كان قد أردف البحث بها ولم يكتبها، فنحن هنا نتعرّض لخلاصة من تلك المقترحات، وهي ما يلي:

١ ـ اقتراح إنشاء حوزات علميّة فرعيّة في المناطق التي تساعد

علىٰ ذلك، ترفد بها الحوزة العلميّة الأُمّ.

٢ ـ اقتراح إيجاد علماء في الفقه والأُصول والمفاهيم الإسلاميّة في سائر أصناف الناس، فليكن لنا في ضمن الأطبّاء علماء، وفي ضمن المهندسين علماء، وما إلىٰ ذلك من الأصناف، ولا يشترط في هؤلاء العلماء التخصّص والاجتهاد في الفقه والأُصول، ويكون كلّ من هؤلاء مصدر إشعاع في صنفه، يبثّ العلم والمعرفة وفهم الأحكام الشرعيّة والمفاهيم الإسلاميّة فيما بينهم[١].

٣ ـ ربط الجانب الماليّ للعلماء والوكلاء في الأطراف بالمرجعيّة الصالحة، فلايعيش الوكيل علىٰ ما تدرّ عليه المنطقة من الحقوق الشرعيّة، بل يسلّم الحقوق كاملة إلىٰ المرجعيّة، وتموّله المرجعيّة ليس بالشكل المتعارف في بعض الأوساط من إعطاء نسبة مئويّة من تلك الأموال كالثلث أو الربع، ممّا يجعل علاقة الوكيل بالمرجعيّة سنخ علاقة عامل المضاربة بصاحب رأس المال، بل بالشكل الذي

---

(١) قال الشيخ محمّدرضا النعمانيّ حفظه الله : «وقد بدأ السيّد الشهيد بتنفيذ هذه الفكرة ولو بشكل متواضع حين كبرت مرجعيّته وامتدّت؛ إذ بدأ يشجّع عدداً من الأطباء والمهندسين والأساتذة علىٰ دراسة الفقه والأُصول والمنطق وكافّة الموادّ الدراسيّة المقرّرة والمتعارفة في الحوزة العلميّة، وبنفس الوقت شجّع بعضهم علىٰ الانخراط في الحوزة العلميّة، وترك تخصّصاتهم السابقة، وكان السيّد الشهيد يستهدف من تشجيع بعضهم علىٰ الانخراط في الحوزة العلميّة ما يلي:

١ ـ الإسراع في تربية علماء يملكون ثقافة عصريّة إلىٰ جانب ثقافتهم الحوزويّة.

٢ ـ الارتفاع بالمستوىٰ الاجتماعيّ للحوزة العلميّة؛ إذ إنّ وجود عناصر ذات مستوىً رفيع في نظر المجتمع كالأطبّاء والمهندسين سوف يغيّر من نظرة أُولئك الذين يحملون انطباعاً سلبيّاً عن الحوزة العلميّة».

يغطي مصاريف الوكيل عن طريق عطاءَين من قبل المرجعيّة:

الأوّل: راتب شهريّ مقطوع يكفل له قدراً معقولاً من حاجاته الضروريّة.

والثاني: عطاء مرن وغير محدّد يختلف من شهر إلى شهر، وربّما لايعطى في بعض الأشهر، وقد يضاعف أضعافاً مضاعفةً في بعض الأشهر، ويكون المؤثّر في تقليل وتكثير هذا العطاء عدّة أُمور:

أحدها: احتياجاته بما هو إنسان، أو بما هو عالم في المنطقة: فإنّها تختلف من شهر إلى شهر.

والثاني: مقدار ما يقدّمه للمرجعيّة من أموال وحقوق شرعيّة.

والثالث: مقدار ما يقدّمه للمنطقة من أتعاب وجهود.

والرابع: مقدار ما ينتج في تلك المنطقة من نصر للإسلام.

هذه الأُمور الأربعة قد تؤثّر ـأيضاًـ في تحديد مقدار العطاء المتمثّل في الراتب المقطوع[1].

---

(١) قال الشيخ محمّدرضا النعمانيّ حفظه الله: «وفعلاً فقد نفّذ شهيدنا العظيم هذه الفكرة، ولم تبقَ مجرّد فكرة، فبعد أن تحسّن الوضع الماليّ للمرجعيّة بدأ السيّد الشهيد بإعطاء رواتب لوكلائه ولو بشكل محدود، وقد كانت لتنفيذ هذه الفكرة آثار إيجابيّة عظيمة، يمكن تلخيصها بما يلي:

١ ـ استقلال العالم استقلالاً تامّاً، فهو لم يعد بحاجة إلى محاباة أصحاب الأموال الذين كانوا قد يحوّلون العالم إلى أداة بأيديهم، وأصبح العالم ينفّذ إرادة المرجعيّة وما تتطلّبه مصلحة الإسلام.

٢ ـ بدأ الكثير من المدن والمناطق تطالب المرجعيّة بعالم يقيم لديها؛ إذ إنّ العقبة التي كانت تقف أمامهم هو الفقر والحاجة الماليّة لكثير من أهالي هذه المناطق؛ إذ لم تكن لديهم القدرة الماليّة على تغطية شؤون العالم الدينيّة، ومن الواضح للجميع الآثار السلبيّة التي تترتّب على عدم وجود ممثّل للمرجعيّة في المدن والمناطق».

٤ ـ دعم المرجعيّة الصالحة لمكتب صالح ونظيف من بين المكاتب، وهي التي كانت تسمّى في النجف (بالبرّانيّات)، بحيث يصبح ما يصدر عن ذاك المكتب ممثّلاً في نظر الناس بدرجة ضعيفة لرأي المرجعيّة، وفائدة ذلك: أنّ المرجعيّة الصالحة قد تريد أن تنشر فكرة سياسيّة أو اجتماعيّة أو غير ذلك من دون أن تتبنّاها مباشرة؛ لمصلحة في عدم التبنّي المباشر، أو تريد أن تفاوض السلطة في أمر من الأُمور بشكل غير مباشر، فذاك المكتب يتبنّى أمثال هذه الأُمور.

الحوزة العلميّة والتحزّب

وأمّا الثالث: وهو رأيه في مدىٰ صحّة اشتراك الحوزة العلميّة في الأحزاب السياسيّة الإسلاميّة، فقد رسم ـ رضوان الله عليه ـ في تلك الأبحاث الأُسبوعيّة خطوطاً ثلاثة، ذكر أنّ اثنين منها خطّان ثابتان، وواحداً منها خطّ متحرّك:

الخطّ الأوّل: ضرورة الفصل بين جهاز المرجعيّة الصالحة والعمل الحزبيّ.

والخطّ الثاني: عدم البأس باشتراك طلّاب الحوزة العلميّة غير المرتبطين بجهاز المرجعيّة الصالحة في العمل الحزبيّ الإسلاميّ.

وهذان خطّان ثابتان.

والخطّ الثالث: ـ وهو ما أسماه بالخطّ المتحرّك ـ أنّ من كان

عضواً في جهاز المرجعيّة الصالحة وهو في نفس الوقت عضو في حزب الدعوة الإسلاميّة، ويكون انسحابه من صفوف الحزب مؤدّياً إلىٰ إرباك الوضع في داخل الحزب، يبقى محتفظاً بارتباطه بالحزب إلىٰ حينما يرىٰ أنّ انفصاله لايؤدّي إلىٰ مثل هذا الارتباك، فعندئذٍ ينفصل عن الحزب.

وكان تأريخ تحديده لهذه الخطوط الثلاثة بحدود أوائل سنة (١٣٩٣هـ).

وبعد هذا حينما اعتقلت السلطة الكافرة في العراق ثلّةً من العلماء الأعلام، وثلّةً من المؤمنين الكرام، وكان في ضمنهم الشهداء الخمسة الشيخ عارف وصحبه، وكان في ضمنهم ـ أيضاً ـ السيّد الهاشميّ، وكنت أنا وقتئذٍ في إيران، وأفرجت السلطة بعد ذلك عن جماعة منهم السيّد الهاشميّ، وبقي جماعة آخرون في الاحتجاز، أصدر الأُستاذ الشهيد كلمته المعروفة التي ذكر فيها فصل الحوزة العلميّة كاملة عن العمل الحزبيّ، وكان هذا بتأريخ (١٠ / شعبان / ١٣٩٤ هـ).

وكتبت ـ بعدئذٍ ـ رسالةً إلىٰ أُستاذنا الشهيد أستفسره فيها عمّا هو المقصود الواقعيّ بهذه الكلمة، فذكرت له: أنّ المحتملات عندي أربعة:

١ ـ أن يكون المقصود بهذه الكلمة: لحاظ مصلحة في أصل ذِكرها ونشرها كتقيّة (وعلىٰ حسب تعبير علماء الأُصول تكون المصلحة في الجعل).

٢ ـ أن يكون المقصود بهذه الكلمة: أُولئك العلماء والطلّاب المرتبطون بمرجعيّتكم، وإن اقتضت المصلحة إبرازها علىٰ شكل العموم.

٣ ـ أن يكون المقصود بهذه الكلمة: فصل طلّاب الحوزة العلميّة في العراق عن العمل الحزبيّ درءاً للخطر البعثيّ الخبيث عنهم، الذي يؤدّي إلىٰ إبادتهم.

٤ ـ أن يكون المقصود بها: فصل جميع الحوزات العلميّة في كلّ زمان ومكان عن العمل الحزبيّ الإسلاميّ (وعلىٰ حسب تعبير الأُصوليّين: تكون القضيّة قضيّة حقيقيّة، وليست خارجيّة). وعلىٰ الاحتمال الأخير يكون تعليقي علىٰ هذه الكلمة: أنّ هذا الإجراء سيؤدّي في طول الخطّ إلىٰ انحراف الحركة الإسلاميّة الحزبيّة عن مسار الإسلام الصحيح نتيجة ابتعادهم في أجوائهم الحزبيّة عن العلماء الأعلام.

فكتب لي ـ رضوان الله عليه ـ في الجواب: أنّي قصدت المعنى الأوّل والثاني والثالث، دون الرابع.

وكان هذا كلّه قبل انتصار الثورة الإسلاميّة في إيران.

أمّا بعد انتصار الثورة الإسلاميّة في إيران، فقد عزم الأُستاذ الشهيد ﷺ علىٰ تصعيد معارضته لحكومة البعث في العراق، ونزوله إلىٰ الميدان بشكل سافر نسبيّاً، وبهذا لم يبقَ مورد لمسألة الاهتمام بدرء الخطر البعثيّ الذي كان أحد ملاكات تلك الكلمة (أعني: فصل

الحوزة العلميّة عن العمل الحزبيّ)؛ فإنّ الحوزة العلميّة الواعية ستقع لامحالة وجهاً لوجه أمام السلطة الجائرة، والخطر محدق علىٰ أيّ حال. وفي هذا التأريخ جاء السيّد الهاشميّ ـ حفظه الله ـ إلىٰ إيران، وأخبرني بأنّ السيّد الأُستاذ بعث علىٰ أحد الوجوه البارزة آنئذٍ لحزب الدعوة الإسلاميّة، وقال له فيما قال: إنّ كلمتي التي أصدرتها في انفصال الحوزة عن العمل الحزبيّ قد انتهى أمدها.

أقول: إنّي لاأفهم من هذا الكلام انتهاء أمد هذه الكلمة بالقياس إلىٰ جهاز المرجعيّة الصالحة المفروض فيها أن تكون فوق الحركات والأحزاب، وتكون في موقع الأُبوّة والقيادة للأُمّة بجميع أجنحتها وأفرادها، وإنّما أفهم منه انتهاء أمد هذه الكلمة باعتبار المعنى الثالث من المعاني الثلاثة التي قصدها بها.

أساس الحكم

أمّا رأي الأُستاذ الشهيد ﷺ في أساس الحكومة الإسلاميّة في زمان غيبة المعصوم، فقد مرّ ـ أيضاً ـ بمراحل عديدة، فحينما أسّس حزب الدعوة الإسلاميّة كان يرىٰ أنّ أساس الحكومة الإسلاميّة في زمن الغيبة هي الشورىٰ، وهذا ما أثبته فيما كتبه لحزب الدعوة باسم (الأُسُس)، مستدلاًّ بقوله تعالىٰ: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾، وبعد ذلك ترك هذا الرأي، وقال أخيراً بمبدأ ولاية الفقيه تمسّكاً بالتوقيع

المعروف عن الإمام صاحب الزمان عجّل الله فرجه : «أمّا الحوادث الواقعة فارجعوا فيها إلىٰ رواة أحاديثنا؛ فإنّهم حجّتي عليكم»، وقد انعكس هذا الرأي في رسالتيه العمليّتين: (الفتاوى الواضحة، والتعليق علىٰ منهاج الصالحين).

وقد بحثنا هذين المبدأين، وهما: مبدأ الشورىٰ، ومبدأ ولاية الفقيه في كتابنا (أساس الحكومة الإسلاميّة) بتفصيل.

اعتقالاته قدس سره

- الاعتقال الأوّل .
- الاعتقال الثاني .
- الاعتقال الثالث .
- الاعتقال الرابع .

اعتقل ـ رضوان الله عليه ـ بسبب ظلم البعث الكافر الحاقد على الدين المسيطر على العراق أربع مرّات:

الاعتقال الأوّل

اعتقل في سنة (١٣٩٢ هـ)، وكان ذلك ـ في الظنّ الغالب ـ في شهر رجب، أو في أواخر جمادى الآخرة، والقِصّة كما يلي:

ذكر ـ رضوان الله عليه ـ ذات يوم أنّه بلغني خبر يقول: إنّ البعثيّين سيعتقلونني في هذه الليلة، وفي صبيحة تلك الليلة عرفنا أنّه لم يقع شيء من هذا القبيل.

وفي الليلة الثانية ابتلي صدفةً بالتسمّم أو ما يشبهه، ممّا كان يحتمل أداؤه إلى الموت، فطلب إيصاله إلى المستشفى، وكنت أنا والمرحوم السيّد عبد الغنيّ ﷺ بخدمته، ولا أذكر ما إذا كان شخص آخر ـ أيضاً ـ معنا أو لا، فأخذناه إلى مستشفى النجف، وبعد فترة من الزمن جاءت زوجته أُمّ جعفر وأُخته بنت الهدى إلى المستشفى لعيادته، ثُمَّ رجعتا إلى البيت، ورجعت أنا ـ أيضاً ـ إلى بيتي، وبقي معه في المستشفى المرحوم السيّد عبدالغنيّ الأردبيليّ ﷺ، واطّلعنا

بعد ذلك علىٰ أنّ الأمن العراقيّ طوّق في تلك الليلة بيت الأُستاذ، واقتحم البيت لغرض اعتقاله، فقال لهم الخادم (وكان خادمه وقتئذٍ محمّدعلي المحقّق): إنّ السيّد غير موجود، ولا أعلم أين ذهب السيّد.

فبدؤوا بضرب الخادم؛ ليعترف لهم بمكان السيّد، إلّا أنّه أبىٰ وأصرّ علىٰ إنكاره برغم علمه بمكان السيّد، وجاءت أُختة (بنت الهدىٰ)، وقالت لهم:

إنّ السيّد مريض، وقد انتقل إلىٰ مستشفى النجف، فانتقل الأمن إلىٰ مستشفى النجف، وطوّقوا المستشفى، وطالبوا المشرفين علىٰ المستشفى بتسليم السيّد، فقالوا لهم: إنّ السيّد مريض وحالته خطرة، وإذا أردتم نقله فنحن لانتحمّل مسؤوليّة ذلك إذا ما مات بأيديكم، وأخيراً وقع الاتّفاق علىٰ أن ينقل السيّد تحت إشراف الأمن إلىٰ مستشفى الكوفة، علىٰ أن يكون معه المرحوم السيّد عبدالغنيّ الأردبيليّ بعنوان مرافق المريض، وهكذا كان، فقد نقلوا السيّد الأُستاذ إلىٰ مستشفى الكوفة، ووضعوه في ردهة المعتقلين، وعند الصباح ذهب السيّد محمّد الغرويّ إلىٰ مستشفى الكوفة؛ كي يطّلع علىٰ حال السيّد الأُستاذ، فالتقى بالمرحوم السيّد عبدالغنيّ ﷺ، فقال له: إنّ الأمن قد وضعوا قيد الحديد علىٰ يده الكريمة، فأخبرني السيّد الغرويّ بذلك، فذهبت أنا إلىٰ بيت السيّد الإمام الخمينيّ ـ دام ظلّه ـ حيث كان ـ وقتئذٍ ـ يعيش في النجف الأشرف، وتشرّفت بلقائه، وحكيت له القِصّة.

ثُمَّ كثرت في صبيحة ذاك اليوم مراجعة الناس ـ بالخصوص طلّاب العلوم الدينيّة والعلماء العظام، أمثال المرحوم آية الله الشيخ مرتضى آل ياسين، والمرحوم الحجّة السيّد محمّد صادق الصدر ـ إلىٰ مستشفى الكوفة يطالبون بلقاء السيّد، والجلاوزة يمنعونهم عن ذلك، ودخل البعض علىٰ السيّد برغم منع الجلاوزة، وكاد أن يستفحل الاضطراب في وضع الناس، فخشيت الحكومة من نتائج الأمر، فرفعت القيد عن يد السيّد، وبعد فترة وجيزة أطلقت سراح السيّد الأُستاذ، ووضع في القسم العادي (غير ردهة المعتقلين) في مستشفى الكوفة، وبعد ذلك رجع إلىٰ مستشفى النجف، وبعد أن تحسّنت حالته الصحيّة رجع إلىٰ البيت، وازدادت زيارة الناس والوفود إليه، واستمرّ الأمر بهذا الوضع إلىٰ أيّام شهادة الإمام موسى الكاظم عليه السلام، حيث أقام السيّد الشهيد في بيته مأتماً للإمام الكاظم عليه السلام كعادته في كلّ سنة، وكان المجلس يغصّ بأهله، وكان الخطيب في ذاك المأتم السيّد جواد شبّر. وكان يقول السيّد الأُستاذ رحمه الله: إنّ هذا الاعتقال قد أثّر في انشداد الأُمّة إلينا أكثر من ذي قبل، وتصاعد تعاطفها معنا.

وكان المفهوم لدينا ـ وقتئذٍ ـ أن مرض السيّد رحمه الله كان رحمةً وسبباً في تأخير تنفيذ ما يريده البعثيّون من أخذه معتقلاً إلىٰ بغداد، إلىٰ أن اشتهرت القِصّة، وضجّ الناس، واضطرّت الحكومة إلىٰ إطلاق سراحه من دون الذهاب به إلىٰ بغداد.

الاعتقال الثاني

اعتقلﷺ سنة (١٣٩٧ هـ)، في شهر صفر، في أعقاب انتفاضة الأربعين، وكنت أنا ـ وقتئذٍ ـ في إيران.

قال الشيخ محمّدرضا النعمانيّ: «لقد اهتمّ السيّد الشهيد بالتخطيط لانتفاضة صفر سنة (١٣٩٧ هـ)؛ ولذا كان ـ رضوان الله عليه ـ أمرني بتقديم الأموال إلىٰ المواكب كافّة، وأن لا أردّ أيّ طلب من أيّ موكب أو (تكية) صغيرة كانت أو كبيرة، وكان يقول: إنّ هذه المواكب شوكة في عيون حكّام الجور، إنّ هذه المواكب وهذه المظاهر هي التي زرعت في نفوس وقلوب الأجيال حبّ الحسينﷺ وحبّ الإسلام، فيجب أن تبقى علىٰ رغم حاجتها إلى تهذيب وتعديل يناسب العصر.

كان السيّد الشهيد يتابع أحداث الانتفاضة متابعة دقيقة، سواء في داخل النجف أو في الطريق بين النجف وكربلاء، وكان ـ رضوان الله عليه ـ في غاية السرور حين تتوارد عليه الأنباء بنجاح الانتفاضة وشجاعة الزوّار في تحدّي السلطة الجائرة، وكذلك أنباء وقوف بعض قطعات الجيش العراقيّ، وعدد من أعضاء حزب البعث الحاكم إلىٰ جانب الثوار الأبطال، وكان ـ رضوان الله عليه ـ يأمل أن يستفيد في المستقبل من هذه العواطف والمواقف.

لكنّ السلطة البعثيّة الجائرة كعادتها في قمع الانتفاضات بالنار

شنّت حملة واسعة من الاعتقالات والتصفيات الجسديّة، ولم تكن لتتخطّى شهيدنا العظيم، رضوان الله عليه، و لكن كيف؟ ولماذا قرّرت السلطة اعتقاله، في الوقت الذي لم تكن للسيّد الشهيد نشاطات محسوسة، أو ظاهرة يمكن أن تبرّر بها جريمة الاعتقال أمام الأُمّة؟

إنّ ممّا لاشكّ فيه أنّ السلطة كانت مضطربة وخائفة من أحداث النجف، خائفة من روح التحدّي العظيمة التي أبداها زوّار سيّد الشهداء عليه الصلاة والسلام.

وخائفة من إصرارهم علىٰ تنفيذ قرار الذهاب مشياً علىٰ الأقدام من النجف إلىٰ كربلاء.

وخائفة من مواقف الغيارىٰ والشرفاء من أبناء النجف الذين وقفوا وجهاً لوجه قبال محافظ النجف ـ آنذاك ـ المجرم جاسم الركابيّ، حين أبلغهم بقرار السلطة منع المشاة من الذهاب إلىٰ كربلاء، ليقولوا له: والله سنذهب مشياً علىٰ الأقدام، ونزور الحسين عليه السلام، وكان في طليعتهم الشهيد السعيد عبّاس عجينة رحمه الله.

وعبّرت عن خوفها حين تراجعت عن قرار المنع علىٰ لسان محافظ النجف في الساعات الأخيرة قبل انطلاق مسيرة المشاة إلىٰ كربلاء، وحين ظلّ رجال السلطة يتوسّلون بالعلماء والمراجع لدعوة المشاة إلىٰ عدم التنديد بالسلطة وسبّ الرئيس المقبور البكر ونائبه المجرم صدام...

لقد شعرت السلطة أنّها أُهينت ولطّخت سمعتها وكسرت شوكتها بإقدام أبناء العراق البررة، أنصار الحسين عليه السلام الذين قدّموا العديد من الشهداء في هذه المناسبة، وكان لابدّ للسلطة الحاقدة أن تنتقم،

وتفرّغ حقدها وغضبها، وتتأر من الأُمّة، ومن أبناء النجف بالذات، ومن المرجعيّة الواعية الرشيدة وما تمثّله من قيم، وما ترمز إليه من معانٍ، فأرادت أن تنتقم من الأُمّة، فشنّت حملات إرهابيّة واسعة من الاعتقالات، أدّت إلى استشهاد عدد من أنصار الحسين ﷺ، نظير الشهيد (صاحب آلبو كِلل) ورفاقه، والحكم بالسجن المؤبّد على عدد آخر من الأنصار.

وأرادت أن تنتقم بحقد من المرجعيّة، فكان اعتقال السيّد الشهيد، رضوان الله عليه، ففي الساعة التاسعة صباحاً جاء أحد ضبّاط الأمن المجرمين إلى دار السيّد الشهيد تمهيداً لمجيء مدير أمن النجف المجرم (أبو سعد)، وحين اجتمع هذا الأخير بالسيّد الشهيد قال له: إنّ السيّد عزّت الدوريّ ـ وكان وزيراً للداخليّة آنذاك ـ يودّ لقاءك في بغداد.

ذهب السيّد الشهيد ﷺ إلى بغداد معتقلاً. وهناك التقى بمدير الأمن العامّ؛ ليبلغه رسالة حقد من القيادة العفلقيّة، وسيلاً من كلمات التهديد والوعيد بألوان من الانتقام. وفي هذه المرّة عذّب السيّد الشهيد وضرب، وبقيت آثاره عليه بعد الإفراج عنه حتّى كان لايقوى على صعود السلّم إلّا بصعوبة كان يخفيها. لقد سمعت هذا منه، وكان يقول: كنت أحرص على كتمان ذلك؛ كي لايؤدّي إلى انهيار أو خوف البعض ممّن لم يوطّن نفسه على الصمود والثبات.

وفي نفس اليوم أُفرج عن السيّد الشهيد، فعاد إلى النجف، وكتم ما أصابه.

وحين عاد السيّد الشهيد من الاعتقال سألته عمّا جرى له في

التحقيق حول انتفاضة صفر، فكان من جملة ما قال: إنّ مدير الأمن العامّ قال له: إنّنا نعلم أنّك وراء هذه الأعمال العدوانيّة، ونعلم أنّك قدّمت إليهم الأموال، لكنّنا نعرف كيف ننتقم منك في الوقت المناسب، وظلّ يهدّدني بالإعدام، ويقول:

لو لا انشغالنا بالقضاء على هؤلاء المشاغبين، لنفّذنا الإعدام الآن. ولكن سترىٰ بعد حين مصيرك». انتهىٰ النقل عن الشيخ النعمانيّ.

الاعتقال الثالث

اعتقل‏ في سنة (١٣٩٩ هـ)، في السادس عشر أو السابع عشر من رجب على حسب الاختلاف الواقع في الهلال آنذاك. واُطلق سراحه في نفس اليوم.

ولعلّ خير ما كتب عن اعتقال السيّد الشهيد‏ في رجب، وما اكتنفه من أحداث سابقة ولاحقة، هو ما كتبه الشيخ محمّدرضا النعمانيّ حفظه الله. وإليك نصّ كلام الشيخ مع تغيير يسير:

توجّس السلطة وخوفها

في الفترة التي سبقت أحداث رجب، وتلت انتصار الثورة الإسلاميّة في إيران، منيت السلطة البعثيّة العميلة بخوف ورعب شديدين، فقد أحسّت أنّ حدث انتصار الثورة الإسلاميّة في إيران يشكّل خطورة كبرى تهدّد مستقبل الحكم، ولانعجب من ذلك؛ لأنّ العراق هو البلد الأوّل المرشّح لثورة إسلاميّة اُخرى. فكلّ شيء في العراق كان يسير بهذا الاتّجاه، ولعلّ موقف السلطة من مرجعيّة السيّد الشهيد، ومن الحوزة العلميّة، ومن الحركة الإسلاميّة في العراق عام (١٩٧٤ م) وما قبله، أوضح مؤشّرٍ على هذه الحقيقة، فالأحداث كانت تسير باتّجاه إقامة حكومة إسلاميّة، ولم يكن

يخفى ذلك على السلطة.

ومن ظواهر الرعب: تأكيد السلطة العميلة على لسان مدير الأمن العامّ (البرّاك) للسيّد الشهيد، أنّ (القيادة) تؤيّد الثورة الإسلاميّة في إيران، ولا تقف منها إلّا موقف المساند، وأشار إلى البرقيّة التي بعثها البكر المقبور إلى الإمام الخمينيّ ـ دام ظلّه ـ بعد انتصار الثورة، وقال: إنّ العراق كان من الدول الأُولى التي أيّدت الثورة الإسلاميّة في إيران، وفي هذا اللقاء قال السيّد الشهيد: إذا كان موقفكم من الثورة الإسلاميّة في إيران بهذا المستوى، فلماذا منعتم العراقيين عن تأييد الثورة الإسلاميّة في إيران من خلال التظاهرات التي منعتموها، واعتقلتم المتظاهرين، على رغم كونهم لم يستهدفوا إلّا تأييد الثورة الإسلاميّة في إيران؟!...

فقال البرّاك: إنّ المواقف السياسيّة ومنها الموقف تجاه الثورة الإسلاميّة في إيران تحدّد من قبل (القيادة السياسيّة)، فهي وحدها المسؤولة عن ذلك، وليس من حقّ أحد أن يعارض أو يؤيّد إلّا من خلال القرار السياسيّ الذي تتّخذه القيادة السياسيّة.

فقال السيّد الشهيد: إنّك قلت قبل قليل: إنّ القيادة السياسيّة أيّدت الثورة، وإنّ العراق كان من أوائل الدول المؤيّدة لها، أ ليس موقف الجماهير ينسجم مع هذا القرار؟!

فقال البرّاك: نعم، ولكنّ اتّخاذ مواقف سياسيّة من مسؤوليّتنا، وليس لأحد أن يتدخّل في هذه الأُمور.

ومن الواضح: أنّ صدور هذا الكلام عن السلطة المغرورة

والغارقة في بحر الكبرياء والعظمة الفارغة لا يصدر إلّا بسبب الخوف والرعب الذي خيّم على قلوبهم، وإلّا فإنّ أعمالهم وممارساتهم تدلّ على عكس ذلك، فهم الذين تجاهلوا الثورة الإسلاميّة وأحداثها الرائعة، ولم تواكب وسائل إعلامهم أحداث الثورة، إلّا بعد أن أصبحت الثورة الخبر الأوّل الذي يتصدّر كلّ نشرات الأخبار العالميّة، وأصبح تجاهلها يعتبر نكسة إعلاميّة وحالة شاذّة.

وهم الذين قالوا على لسان المجرم صدام التكريتيّ: «الشاه باقٍ باق» على أمل أن يبقى الشاه.

وهم الذين أرادوا منع الإمام الخمينيّ ـ دام ظلّه ـ من قيادة الثورة من النجف، واضطرّوه إلى مغادرة العراق.

وهم الذين قمعوا التظاهرات التي أيّدت الثورة الإسلاميّة في إيران، والتي خرجت بعد صلاة المغرب من جامع الخضراء في النجف الأشرف. فكيف يمكن أن نوفّق بين ما يدّعيه البرّاك وغيره وبين الممارسات العمليّة السلبيّة تجاه الثورة ومؤيّديها؟! ومن مظاهر الرعب هو تشويش إذاعة طهران الناطقة باللّغة العربيّة التي تُسمَع في كافّة أنحاء العراق.

إنّ إذاعة الجمهوريّة الإسلاميّة (القسم العربيّ) أصبحت بعد انتصار الثورة الإسلاميّة المحطّة الأُولى والرئيسيّة بالنسبة إلى العراقيّين، وبدأت تشقّ طريقها في التأثير بالعراقيّين، ليس في أوساط المتديّنين والموالين للثورة الإسلاميّة فقط، بل حتّى في

أوساط البعثيّين أنفسهم، فقبل قرار منع الاستماع إليها ومعاقبة المخالفين كانت مجـ كبيرة من كوادر حزب البعث الحاكم يستمعون لها في مقرّات الحزب نفسه، وبلغ تعلّق العراقيّين بإذاعة طهران حدّاً أقلق السلطة، فقد بدأت المفاهيم والأفكار التي تطرحها الإذاعة تنتشر بسرعة وتَشيع، وظلّ نشيد (خميني أي إمام، خميني أي إمام) يتردّد في مدارس العراق، علىٰ رغم كونه باللّغة الفارسيّة، ولم تجد السلطة من سبيل إلّا إصدار قرار بمنع الاستماع لإذاعة طهران، ومعاقبة المخالفين، وكذلك تشويش المحطّة؛ كي لا يتيسّر الاستماع إليها.

ومن المؤشّرات المهمّة في هذا المجال: الزيارات المتكرّرة التي قام بها مختلف المسؤولين للسيّد الشهيد، بهدف إظهار حالة من الودّ والمحبّة، علىٰ أمل بناء علاقات جيّدة يُستهدف منها إنهاء حالة المعارضة لهم من قبل المرجعيّة بعد ذلك الشوط الطويل من السعي المتواصل لتصفية السيّد الشهيد، والقضاء علىٰ مرجعيّته الرشيدة قبل انتصار الثورة الإسلاميّة في إيران. وفي الوقت نفسه كثّفت مديريّة الأمن العامّة مراقبتها للسيّد الشهيد بشكل لم يسبق له نظير.

وأتذكّر في هذا المجال أنّ السلطة بعثت أحد عملائها في بداية حرب نفسيّة؛ ليخبر السيّد الشهيد بأنّه علم من مصادر موثوقة أنّ السلطة تنوي عدم التساهل مع السيّد الشهيد لو أنّه حاول القيام بأعمال ضدّ السلطة، وأنّ نهاية السيّد الصدر ستكون حتميّة في أوّل اعتقال يقع، ثُمَّ التمس من السيّد الشهيد ـ حرصاً علىٰ حياته

وسلامته!! ـ أن لا يقوم بشيء. وفي تلك الفترة كثرت أمثال هذه الأعمال من قبل أشخاص كنّا نعرف خبث سريرة بعضهم، وسذاجة البعض الآخر ممّن لا يعي أبعاد الدور الذي كلّف به.

وعلىٰ كلّ حال، فإنّ الظواهر والمؤشّرات التي برزت في تلك الفترة كانت تدلّل ـ بما لا يقبل الشكّ ـ علىٰ أنّ حالة من الخوف والذعر قد سيطرت علىٰ الحكّام، وأفقدتهم رشدهم، وجعلتهم يتخبّطون ويتناقضون في مواقفهم وتصريحاتهم. ومن الجدير أن نشير إلىٰ التعميم الذي أصدرته قيادة الحزب العميل عن موقفها الحقيقيّ تجاه الثورة الإسلاميّة في إيران بعد أن تفشّت ظاهرة تأييد الثورة الإسلاميّة حتّى في داخل صفوف حزب البعث، فقد أكّد التعميم أنّ مواقف (بعض الرفاق) من الثورة الإسلاميّة لا يوافق موقف الحزب والقيادة السياسيّة، وطلب منهم اتّخاذ موقف سلبيّ من الثورة الإسلاميّة باعتبارها (رجعيّة)، وحرّضهم علىٰ ترويج الإشاعات ضدّ الثورة، وذكر نموذجاً لذلك: هو مطالبة الجمهوريّة الإسلاميّة الدول الاستكباريّة بإرجاع الأموال التي سرقها الشاه المقبور، وأودعها في بنوكهم، فصوّر (التعميم) هذا الحدث بأنّه السبب الأساس الذي دفع الإمام الخمينيّ ـ دام ظلّه ـ إلىٰ الثورة ضدّ الشاه، وطلب منهم (توعية) الشعب علىٰ هذه الحقيقة.

كلّ ذلك من أجل إطفاء وهج الثورة في نفوس مختلف صفوف الشعب العراقيّ، بما فيها أوساط حزب البعث الحاكم.

ولكنّ الحقيقة: أنّ السلطة لم تحقّق من أعمالها المكاسب التي

توخّتها، بل يمكن أن نقول: إنّ المردودات السلبيّة كانت كبيرة جداً، فقد توضّحت الصورة، وعرفت الجماهير الموقف الحقيقيّ للسلطة من الثورة الإسلاميّة، ممّا زاد من إصرار الجماهير المسلمة على التمسّك بموقفها المؤيّد والمساند للثورة الإسلاميّة في إيران.

لماذا ركّزت السلطة مراقبتها للسيّد الشهيد؟

السلطة البعثيّة العميلة وأجهزتها الإرهابيّة ركّزت مراقبتها ـ بعد انتصار الثورة الإسلاميّة ـ للسيّد الشهيد، وراقبته مراقبة شديدة ودقيقة؛ فقد بذلت السلطة كلّ ما يمكن، واعتمدت مختلف الوسائل والأساليب لمعرفة كلّ صغيرة وكبيرة عن السيّد الصدر، رضوان الله عليه، وتركّزت الجهود في تعرّف نوع الصلة بين السيّد الشهيد وبين الثورة الإسلاميّة وقائدها العظيم الإمام الخمينيّ دام ظلّه ... هل ستقوم الثورة بدعم الحركة الإسلاميّة في العراق بهدف قيام جمهوريّة إسلاميّة في العراق؟ هل سيتمّ تنسيق وتعاون بين الشهيد الصدر وبين الإمام الخميني دام ظلّه؟ هل ستقوم إيران بتحرير العراق عسكريّاً وإسقاط الحكم البعثيّ العميل بعلم السيّد الصدر وإشرافه؟

أسئلة كثيرة كانت تراود السلطة عن نوع العلاقة ومستوى التنسيق بين السيّد الشهيد والإمام القائد... وهي بلا شكٍّ تُقلق السلطة، وتجعلها تحسب كلّ صيحة عليها.

ولنا أن نتسائل: هل توجّس السلطة وموقفها الحائر مجرّد تصوّرات واحتمالات، أو يستند إلىٰ أدلّة ملموسة، أو ظواهر لايمكن تفسيرها أو تبريرها إلّا بهذا الاتّجاه؟

ولا أُريد أن أُجيب عن ذلك إلّا بمضمون بعض مجريات التحقيق والاستجواب الذي أُجري مع السيّد الشهيد حين اعتقل في (١٧ رجب عام ١٣٩٩ هـ).

وملخّص مجريات التحقيق مع شهيدنا الغالي في هذا المجال تركّزت علىٰ ما يلي:

١ ـ حين رفض الإمام السيّد الخمينيّ ـ دام ظلّه ـ شروط السلطة العميلة التي أرادت فرضها عليه في مقابل البقاء في العراق، قرّر سماحته مغادرة العراق إلىٰ الكويت، وتمّ سفره المبارك في ساعة مبكّرة صباحاً، وحين علم السيّد الشهيد بقرار الإمام القائد قرّر ـ رضوان الله عليه ـ زيارة الإمام برغم ما يترتّب علىٰ ذلك من آثار وحسّاسيّات أمنيّة من ناحية السلطة العميلة، حيث كانت قوّات الأمن قد طوّقت منزل السيّد الإمام والشارع والأزقّة المؤدّية إليه. وقرّر السيّد الشهيد الذهاب إلىٰ منزل الإمام قبل أن يطّلع علىٰ سفر الإمام إلىٰ البصرة، وتحدّث في ذلك الوقت بكلام معناه: أنّ الذهاب إلىٰ منزل الإمام في هذه الظروف ضرورة دينيّة؛ لأنّه تأييد ومساندة للإمام في هذا الظرف الصعب.

وذهب الشهيد الغالي إلىٰ منزل الإمام، وجلس مدّة من الزمن، وهو المرجع الوحيد الذي وقف هذا الموقف المشرّف في وقت عزّ

فيه من يجرؤ علىٰ التقرّب من الزقاق الذي يقع فيه منزل الإمام، فضلاً عن الدخول فيه.

وأتذكّر أنّ البعض قالوا للسيّد الشهيد: إنّ قوّات الأمن يمنعون من يريد الوصول إلىٰ منزل السيّد الإمام، فردّ السيّد الشهيد قائلاً: علىٰ كلّ حال سأذهب، وليحدث ما يحدث.

وقد سئل السيّد الشهيد حين اعتقل في رجب عن السبب الذي جعله يتحدّى السلطة في تلك الظروف العصيبة، ويذهب إلىٰ زيارة بيت الإمام.

٢ ـ السلسلة القيّمة التي كتبها السيّد الشهيد (الإسلام يقود الحياة) كلمحة فقهيّة تمهيديّة عن مشروع دستور الجمهوريّة الإسلاميّة في إيران، وصورة عن اقتصاد المجتمع الإسلاميّ، وغير ذلك.

إنّ هذه السلسلة عبرّت بوضوح عن موقف السيّد الشهيد، وتفاعله مع الثورة الإسلاميّة في إيران وقائدها العظيم الإمام الخمينيّ دام ظلّه، وإن شئت فاقرأ ما جاء في (لمحة فقهيّة عن مشروع دستور الجمهوريّة الإسلاميّة)، حين يبيّن السيّد الشهيد المسؤوليّة التأريخيّة للثورة الإسلاميّة في إيران علىٰ صعيد الجمهوريّة، وعلى صعيد العالم، فيقول:

«وفي الخارج تستهدف الدولة:

أوّلاً: حمل نور الإسلام ومشعل هذه الرسالة العظيمة إلىٰ العالم كلِّه.

ثانياً: الوقوف إلىٰ جانب الحقّ والعدل في القضايا الدوليّة،

وتقديم المَثَل الأعلىٰ للإسلام من خلال ذلك.

ثالثاً: مساعدة كلّ المستضعفين والمعذَّبين في الأرض، ومقاومة الاستعمار والطغيان وبخاصّة في العالم الإسلاميّ الذي تعتبر إيران جزءاً لا يتجزّأ منه. إنّ دولة القرآن العظيمة لا تستنفد أهدافها...».

ولم يكن يخفى علىٰ السلطة مغزىٰ هذه الكلمات القيّمة عن مسؤوليّة الجمهوريّة الإسلاميّة تجاه العراق، وباقي دول العالم الإسلاميّ؛ ولذا سئل السيّد الشهيد عن دوافع كتابة هذه الحلقات.

٣ ـ بعث السيّد الشهيد أحد تلاميذه[1] إلىٰ الجمهوريّة الإسلاميّة؛ ليكون حلقة وصل بين السيّد الشهيد والإمام السيّد الخمينيّ دام ظلّه؛ لغرض التنسيق ومواكبة حركة الثورة الإسلاميّة، وقد أحسّت السلطة بذلك فأثارها؛ ولذلك ركّز في التحقيق مع السيّد الشهيد علىٰ هذه النقطة.

وقد سألت السيّد الشهيد ﷺ عن جوابه، فقال: لم أجب بشيء؛ لأنّي أعلم أنّ السلطة تعرف هذا الموضوع، اكتفيت بالقول: فسِّروه بما شئتم. فقال مدير الأمن: إنّ معلوماتنا تؤكّد أنّ الهدف كان التنسيق بينكم وبين السيّد الخمينيّ دام ظلّه، فردّ السيّد الشهيد: فليكن ذلك.

فقلت للسيّد الشهيد ـ رضوان الله عليه ـ: أ ليس هذا الجواب اعترافاً بتلك الحقيقة؟! فقال ﷺ: حين أُعتقلت حسبت أنّ الشهادة

---

(١) وهو السيّد محمود الهاشميّ، حفظه الله.

تنتظرني في بغداد، وأحسست أنّ المسؤوليّة التي كانت تثقل كاهلي، وتسبّب لي الهموم والآلام قد انتهت، فلم أكن أحسب للآثار التي ستترتّب علىٰ جوابي هل تشكّل خطورة عليّ، أو لا؟

٤ ـ مجموعة الرسائل والبرقيّات التي بعثها سماحته إلىٰ الإمام السيّد الخمينيّ دام ظلّه، وإلى الشعب الإيرانيّ الشقيق. فقد قال البّراك (مدير الأمن العامّ): ما هو السبب الذي جعلك تنفرد دون باقي العلماء لتقف هذا الموقف الصريح متجاهلاً أنّ هناك سلطة وحزباً يحكمون القطر، لهم الكلمة الحاسمة والأخيرة في المواقف السياسيّة وغيرها؟!

من ناحية أُخرىٰ: أنّ السلطة تدرك أهمّيّة السيّد الشهيد، وقابليّاته الهائلة في مجال الفكر والتخطيط، والحسّ السياسيّ، وقدرته العظيمة في مجال التأثير بالشعب العراقيّ، ولم يكن بوسع السلطة تجاهل تجربتها المعقّدة والطويلة مع السيّد الشهيد قبل انتصار الثورة الإسلاميّة في إيران، هذه التجربة التي كانت حصيلتها للسلطة فشلاً علىٰ فشل، وهزيمة إثر هزيمة، فما من جولة ـ علىٰ رغم آثارها وجراحها المؤلمة ـ إلّا وكان النصر إلىٰ جانب السيّد الشهيد قدس سره.

إنّ السلطة العميلة كانت مقتنعة بأنّ السيّد الصدر هو مركز البركان، وهو الخطر الوحيد الذي يتهدّدها، خاصّة بعد انتصار الثورة الإسلاميّة في إيران، والآثار النفسيّة والمعنويّة التي أوجدتها في نفوس العراقيّين، وفي مقدّمتها حالة التهيّؤ والاستعداد لثورة إسلاميّة في العراق بقيادة الشهيد السعيد السيّد الصدر، رضوان الله عليه.

برقيّة الإمام

وجاءت برقيّة إمام الأُمّة السيّد الخمينيّ ـ دام ظلّه ـ لتقطع الشكّ باليقين عن العلاقة بين الشهيد الصدر والإمام الخمينيّ، دام ظلّه.

إنّ السيّد الشهيد لم يستلم البرقيّة التي بعثها الإمام السيّد الخمينيّ دام ظلّه، فقد احتُجزت، ولم تسلّم للسيّد الشهيد، ولكنّي كنت قد سجّلتها من إذاعة طهران، وأسمعتها السيّد الشهيد بعد إذاعتها بدقائق، وهذا نصّها:

«سماحة حجّة الإسلام والمسلمين الحاجّ السيّد محمّدباقر الصدر، دامت بركاته:

علمنا أنّ سماحتكم تعتزمون مغادرة العراق بسبب بعض الحوادث، إنّني لا أرىٰ من الصالح مغادرتكم مدينة النجف الأشرف مركز العلوم الإسلاميّة، وإنّي قلق من هذا الأمر، آمل ـ إن شاء الله ـ إزالة قلق سماحتكم، والسّلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

روح الله الموسويّ الخمينيّ»

الموقف التأريخيّ المشرّف للعراقيّين

في تلك الفترة كانت إذاعة طهران العربيّة هي الإذاعة الأُولى من حيث استماع العراقيّين لها، فكان من الطبيعيّ أن يستمع الشعب

لبرقيّة إمام الأُمّة، ويتعرّف مغازيها وما تعنيه. والبرقيّة لم تكن عاديّة بحيث لاتلفت الانتباه، فقد أكّد إمام الأُمّة نقطتين أساسيّتين:

١ ـ مغادرة السيّد الشهيد ﷺ للعراق، وما تعنيه من فراغ كبير للنجف والعراق.

٢ ـ ما يتعرّض له السيّد الشهيد من مضايقات وضغط من قبل السلطة البعثيّة العميلة.

للأسباب هذه كان وقع البرقيّة عظيماً في كافّة أوساط الشعب العراقيّ، فكانت بداية جديدة لمرحلة جديدة من الصراع بين الإسلام والكفر، فبدأت تتقاطر الوفود إلىٰ النجف الأشرف من كافّة أنحاء العراق تطالب السيّد الشهيد بالبقاء في العراق وعدم مغادرته له.

وقفة مع الوفود:

من الضروريّ أن نقف عند هذه الظاهرة التي تستحقّ الدراسة والتقييم، فالوفود كانت متميّزة، متميّزة في أشخاصها وشعاراتها وهتافاتها واستمراريّتها وتحدّيها لد لطة الجائرة:

أوّلاً: الشمول، من الملاحظ أنّ طابع الشمول كان ظاهرة بارزة، فلم تقتصر علىٰ محافظة دون أُخرىٰ، أو شريحة دون أُخرىٰ، بل شملت معظم محافظات العراق، ومختلف شرائح المجتمع العراقيّ.

وللتاريخ أُسجّل للقارئ نماذج من الوفود التي زارت السيّد الشهيد، وجدّدت له البيعة، وعاهدته علىٰ التأييد والمساندة حتّى آخر قطرة دم.

بغداد:

جاءت عدّة وفود من بغداد، نذكر منها:

١ ـ وفد الشهيد السعيد حجّة الإسلام السيّد قاسم المبرقع، من مدينة الثورة.

٢ ـ وفد الشهيد السعيد حجّة السلام الشيخ قاسم ضيف، من مدينة البيّاع.

٣ ـ وفد حجّة الإسلام الشيخ النمديّ، من مدينة الكاظميّة.

محافظة واسط:

١ ـ وفد الشهيد السعيد آية الله السيّد قاسم شبر، من قضاء النعمانيّة.

٢ ـ وفد أهالي الكوت مع سماحة حجّة الإسلام الشيخ عفيف النابلسيّ.

٣ ـ وفد أهالي العزيزيّة وناحية الزبيديّة وضواحيها مع سماحة الشهيد السعيد حجّة الإسلام السيّد عزّالدين الخطيب.

البصرة:

وفد علىٰ رأسه حجّة الإسلام السيّد عصام شبّر.

العمارة:

وفد حجّة الإسلام الشهيد السعيد الشيخ عبدالأمير محسن العماريّ.

وغيرها من الوفود، من قبيل: وفد الناصريّة وديالى وكركوك والديوانيّة وكربلاء والسماوة.

ثانياً: من الملاحظ أنّ الوفود كما أنّها شملت مختلف محافظات وأنحاء العراق كذلك شملت مختلف أوساط المجتمع، فتجد الكهل والشابّ والمرأة والطفل، وتجد العامل والفلّاح والكاسب والأُستاذ والطالب الجامعيّ، وطالب الإعداديّة والابتدائيّة. وإضافةً إلىٰ ذلك تجد مختلف الرُّتَب العسكريّة، حتّى ضمّ أحد الوفود من المناطق الجنوبيّة عدداً من الطيّارين العسكريّين، أو العاملين في القوّة الجويّة.

ثالثاً: الشعارات التي ردّدتها الوفود كانت رائعة، ومعبّرة عمّا في نفوس أبناء العراق تجاه السيّد الشهيدﷺ والإمام الخمينيّ دام ظلّه: (باسم الخميني والصدر، الإسلام دوماً منتصر) و(عاش عاش عاش الصدر، والدين دوماً منتصر). لقد عبّرت الوفود من خلال شعاراتها عن تمسّكها بالإسلام، وتأييدها للثورة الإسلاميّة، والمرجعيّة الرشيدة.

رابعاً: الظاهرة الأُخرىٰ الملفتة للانتباه هي الكثافة العظيمة، حيث اكتظّت النجف بالأُلوف من خيرة أبناء العراق، وكان السيّد الشهيد يستقبل هذه الوفود من الصباح الباكر حتّى ساعة متأخّرة من الليل، حتّى ظهرت عليه علامات الإرهاق والتعب الشديد، لدرجة أنّه في بعض الأحيان كان يعجز من مجرّد الكلام.

خامساً: التحدّي الصارخ للسلطة، وهذا ما اعترف به أكثر من

مسؤول بعثيّ كبير.

سادساً: استمراريّة تقاطر الوفود كانت ميزة، ولو لابعض الآثار التي حدت بالسيّد الشهيد إلىٰ الاكتفاء بهذا القدر لاستمرّ زخم الوفود وتقاطرها إلىٰ فترة طويلة، حيث كانت تصل إلينا الأخبار تباعاً عن تهيّؤ وفود أُخرىٰ من مختلف أنحاء العراق، ولكن السيّد الشهيد أمر وكلاءه إبلاغ الأُمّة بأنّه لن يغادر العراق، وسيبقى معكم حتّى النفس الأخير، ولاداعي لتجشّم عناء السفر.

إنّ أهمّ الأسباب التي دعت السيّد الشهيد لاتّخاذ هذا الموقف هو:

أوّلاً: أنّ الآلاف من المؤمنين والمجاهدين استطاعوا أن يعبّروا بوضوح عن موقف الشعب العراقيّ الأصيل من المرجعيّة الرشيدة والثورة الإسلاميّة.

ثانياً: حرص السيّد الشهيد علىٰ عدم كشف كافّة الأوساط الموالية والمؤمنة بالمرجعيّة وبالثورة الإسلاميّة؛ إذ إنّ سلطات الإرهاب كانت تراقب الوفود بدقّة، وهي لن تتورّع ـ إن قرّرت الانتقام ـ من تصفية الملايين.

تقييم السيّد الشهيد ﷺ للوفود:

أكثر من مرّة عبّر السيّد الشهيد عن موقفه تجاه كلّ الوفود التي زارته، عبّر عن اعتزازه وتقديره وشكره، وكان الأمل يملأ قلبه في أن يعود الإسلام إلىٰ مسرح الحياة علىٰ أيدي هؤلاء الأبطال.

وأُشير هنا إلىٰ ما جاء في نداء السيّد الشهيد ﷺ:

«أيّها الشعب العراقيّ المسلم، إنّي أُخاطبك أيّها الشعب الحرّ الأبيّ الكريم، وأنا أشدّ الناس إيماناً بك وبروحك الكبيرة، وبتأريخك المجيد، وأكثرهم اعتزازاً لما طفحت به قلوب أبنائك البررة من مشاعر الحبّ والولاء والبُنوّة للمرجعيّة؛ إذ تدفّقوا إلىٰ أبيهم يؤكّدون ولاءهم للإسلام بنفوس ملؤها الغيرة والحميّة والتقوىٰ، يطلبون منّي أن أظلّ أُواسيهم، وأعيش آلامهم عن قرب؛ لأنّها آلامي، وإنّي أودّ أن أُؤكّد لك يا شعب آبائي وأجدادي، أنّي معك وفي أعماقك، ولن أتخلّى عنك في محنتك، وسأبذل آخر قطرة من دمي في سبيل الله من أجلك».

وأعتقد أنّ هذا المقطع من النداء لايحتاج إلىٰ تعليق، فهو يطفح بمشاعر السيّد الشهيد تجاه أبناء العراق البررة، ويجسّدها تجسيداً حيّاً.

موقف السلطة:

لم تحسب السلطة المجرمة أن يكون ردّ الشعب العراقيّ المسلم بهذا المستوىٰ؛ إذ كان زخم الوفود مفاجأة بكلّ معنى الكلمة. ولذلك أحجمت عن اتّخاذ أيّ إجراء قمعيّ فوريّ؛ لأنّها لاتعرف مستوى التحرّك، وهل للجيش صلة بالموضوع، أو لا؟. وفضّلت مراقبة الوضع والتريّث إلىٰ حين.

ولنا أن نتساءل عن رأي السلطة كيف كانت تنظر إلىٰ هذا الوضع؟ وما ذا كان يعني في رأيها تقاطر الوفود إلىٰ النجف لتأييد السيّد

الشهيد ومبايعته؟ وهنا أُشير إلىٰ تصريحين بهذا الشأن:

الأوّل: اعتراف مدير أمن النجف بأنّ ما حدث كان ثورة، وأوشكت أن تنجح لو لا (حزم) السلطة[١].

الثاني: ما نقله السيّد علي بدر الدين عن أحد أعضاء ما يسمّىٰ بمجلس قيادة الثورة، فقد قال: إنّ السيّد محمّد باقر الصدر قام بثورة كادت أن تنجح، ونحن من الآن نتعامل معه علىٰ هذا الأساس، ولو لا أنّه فاجأنا بهذا التحرّك، لعرفنا كيف نتعامل مع هؤلاء (العملاء) الذين حرّكهم ضدنا... إلىٰ آخره.

والحقيقة: أنّ هذا التقييم هو عين الواقع، فما حدث في رجب كان ثورة حقيقيّة ضدّ السلطة، ولو لا العجز عن توفير السلاح والعتاد، لنجحت الثورة في جانبها العسكريّ بعد أن نجحت في الجوانب الأُخرىٰ.

أمّا الإجراءات التي اتّخذت لقمع التحرّك في رجب، فهي كالتالي:

أ ـ استدعاء عشرات الأُلوف من قوّات الأمن والجيش اللاشعبيّ للتواجد في النجف، وتطويق شوارعها وأزقّتها، وفرض السيطرة عليها.

ب ـ فرض حالة التأهّب والاستعداد في الجيش، والجيش اللاشعبيّ، والحزب.

---

(١) وسيأتي ذكر هذه القِصّة لدىٰ ذكر المفاوضات التي جرت مع السيّد الشهيد في فترة الاحتجاز.

ج ـ تسجيل أسماء وعناوين الوافدين إلىٰ النجف.

د ـ تصوير الوافدين (فتوغرافيّاً)، وتسجيل أصواتهم.

هـ ـ وفي المرحلة الأخيرة بدأت حملة شاملة لاعتقال جميع من زار السيّد الشهيد.

اعتقال وكلاء السيّد الشهيد:

تركّزت الحملة في أوّل الأمر في اعتقال وكلاء السيّد الشهيد، أمثال السادة الأعلام:

١ ـ السيّد قاسم شُبَّر.

٢ ـ السيّد حسين السيّد هادي الصدر.

٣ ـ السيّد حسين السيّد إسماعيل الصدر.

٤ ـ السيّد قاسم المبرقَع.

٥ ـ السيّد محمّد حسين المبرقَع.

٦ ـ السيّد جاسم المبرقَع.

٧ ـ الشيخ عبد الجليل مال الله.

٨ ـ الشيخ محمّد علي الجابريّ.

٩ ـ السيّد عبّاس الشوكيّ.

١٠ ـ الشيخ سامي طاهر.

١١ ـ الشيخ قاسم ضيف.

١٢ ـ الشيخ عبد الجبّار البصريّ.

١٣ ـ الشيخ مهدي السماويّ.

١٤ ـ السيّد عبد الرحيم الياسريّ.

١٥ ـ الشيخ خزعل السودانيّ.

١٦ ـ الشيخ عبد الأمير محسن الساعديّ.

١٧ ـ السيّد عِزّالدين الخطيب.

وغيرهم من الوكلاء في مختلف المناطق، كما شمل الاعتقال عدداً من العلماء من غير وكلاء السيّد الشهيد، ممّن ساهم في انتفاضة رجب.

واستمرّت حملات الاعتقال في كافّة أوساط الشعب العراقيّ بصورة وحشيّة وقاسية بما لا يوصف، ولا يمكن معه عدّ المعتقلين أو إحصاؤهم.

جواب السيّد الشهيد ﷺ عن برقيّة الإمام

إنّ الكثيرين أصرّوا على السيّد الشهيد أن يتجنّب الدخول في صراع مع البعثيّين بهذا المستوى، وكانت حجّتهم هي الطبيعة الدمويّة والعدوانيّة لهذه الزمرة، فهم لن يتردّدوا في اتّخاذ أقسى الإجراءات لأدنى معارضة أو موقف يشمّ منه ذلك. وفي هذا السياق رجّح البعض أن يكون جواب السيّد الشهيد عن برقيّة إمام الأُمّة بشكل لا يؤدّي إلى إثارة السلطة وتحفيزها على اتّخاذ موقف حاد.

إلّا أنّ السيّد الشهيد رفض الاستماع إلى هذه النصائح، وقرّر أن يكون الجواب بالشكل الذي يناسب وضع إمام الأُمّة ومقامه، وكذلك وضع المرحلة الجديدة من الصراع، خاصّة بعد أن عرف

الجميع مستوىٰ العلاقة بين السيّد الشهيد والإمام الخمينيّ دام ظلّه، وبالتدقيق في عبارات البرقيّة الجوابيّة ندرك حجم العلاقة ومستوىٰ الوفاء والإخلاص والتفاني الذي يكنّه السيّد الشهيد للثورة الإسلاميّة ولقائدها العظيم. وهذا نصّ البرقيّة:

بسم الله الرحمن الرحيم

سماحة آية الله العظمىٰ الإمام المجاهد السيّد روح الله الخمينيّ، دام ظلّه.

تلقّيت برقيّتكم الكريمة التي جسّدت أُبوّتكم ورعايتكم الروحيّة للنجف الأشرف الذي لايزال منذ فارقكم يعيش انتصاراتكم العظيمة، وإنّي أستمدّ من توجيهكم الشريف نفحة روحيّة، كما أشعر بعمق المسؤوليّة في الحفاظ علىٰ الكيان العلميّ للنجف الأشرف، وأودّ أن أُعبّر لكم بهذه المناسبة عن تحيّات الملايين من المسلمين والمؤمنين في عراقنا العزيز، الذي وجد في نور الإسلام الذي أشرق من جديد علىٰ يدكم ضوءاً هادياً للعالم كلّه، وطاقة روحيّة لضرب المستعمر الكافر والاستعمار الأمريكيّ خاصّة، ولتحرير العالم عن كلّ أشكاله الإجراميّة، وفي مقدّمتها جريمة اغتصاب أرضنا المقدّسة فلسطين، ونسأل المولى ـ سبحانه وتعالىٰ ـ أن يمتّعنا بدوام وجودكم الغالي، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

الخامس من رجب (١٣٩٩ هـ)النجف الأشرف

محمّد باقر الصدر

لقد أخبرني ـ رضوان الله عليه ـ أنّ من النقاط التي ركّزوا عليها

أثناء التحقيق في رجب كان بعض فقرات البرقيّة الجوابيّة التي بعثتها إلىٰ الإمام الخمينيّ دام ظلّه، وانصبّت الأسئلة علىٰ أُمور ثلاثة:

١ ـ ما هو المقصود برعاية الإمام الخمينيّ للنجف؟ هل هناك مساعدات ماليّة، أو عسكريّة وصلت من إيران لمساعدتك في التحرّك ضدّنا؟

٢ ـ من خوّلك نقل تحيّات ملايين العراقيّين إلىٰ السيّد الخمينيّ؟

٣ ـ ما معنى التوجيه الذي تتلقّاه من السيّد الخمينيّ؟

يقول السيّد الشهيد كنت قد أجبت عن أسئلتهم بما يناسب حجم التحرّك، وحجم الثورة الإسلاميّة، فقد كنت مصمّماً علىٰ الاستشهاد في سبيل الله؛ ولذا كنت أتعمّد أن لا أُجيب عن بعض الأسئلة بغرض إقلاقهم وإرعابهم، ولكن ظلّ البرّاك يلحّ علىٰ إجابة محدّدة، وبقيت ـ أيضاً ـ أتعمّد الغموض، وكلّما انتقل البرّاك إلىٰ أسئلةٍ أُخرىٰ بعيدةٍ عن موضوع البرقيّة عاد مرّة أُخرىٰ إلىٰ البرقيّة، وكرّر الأسئلة بشكلٍ وآخر.

اعتقال السيّد الشهيد

لم يكن اعتقال السيّد الشهيد بعد أحداث رجب أمراً محتملاً فحسب، بل كان السيّد الشهيد يتوقّع في أيّ لحظة أن يعتقل، ولكن لا للتحقيق أو لإذلال المرجعيّة كما في المرّات السابقة، بل للاستشهاد في سبيل الله، وكان ـ رضوان الله عليه ـ قد هيّأ نفسه لذلك، وكان من عادته قبل كلّ اعتقال أن يسلّم (الخاتم) إلىٰ من يثق

به؛ لكي لا يقع بيد السلطة بعد الاستشهاد. وهكذا فعل في رجب بعد ثلاثة أيّام من بداية تقاطر الوفود إلىٰ مبايعته.

في يوم الاثنين المصادف ١٦ رجب عام (١٣٩٩ هـ) بدأت قوّات الأمن تكثّف دوريّاتها ومراقبتها لمنزل السيّد الشهيد، والأزقّة القريبة منه، وبقيت أرقب الوضع حتّى الساعة التاسعة مساءً، حيث منعت السلطة التجوّل في الزقاق، ومنعت المارّة تمهيداً لاعتقال السيّد الشهيد.

أخبرت السيّد الشهيد وأُختة العلويّة الشهيدة، وقلت للسيّد: إنّ المجرمين ينوون اعتقالكم غداً، فالدلائل تشير إلىٰ ذلك.

لم يتأثّر السيّد الشهيد، ولم يأبه للعشرات من الأمن المدجّجين بالسلاح الذين يجوبون الزقاق، فذهب إلىٰ مضجعه، ونام وهو في غاية الاطمئنان، بعد أن استعدّ وتهيّأ لكلّ ما يمكن أن يقع له علىٰ أيدي هؤلاء الجلّادين.

قرار المواجهة المباشرة:

قرّر السيّد الشهيد أن يتعامل مع المسؤولين بمستوىً جديدٍ، فصمّم علىٰ أن ينهج نَهْجَ جدّه الحسين عليه السلام، ويتمسّك بمبدأ «لا أُعطيكم بيدي إعطاء الذليل، ولا أقرّ لكم إقرار العبيد». إنّ موقف السيّد الشهيد هذا ناشئ من تصميمه علىٰ الدخول في مواجهة مباشرة مع السلطة؛ إذ لامعنىً للثورة بدون ذلك. وكان ـ رضوان الله عليه ـ يستهدف من ذلك تهيئة الأجواء للشعب العراقيّ للسير معه في نفس

الاتّجاه، علىٰ رغم يقين شهيدنا الغالي بأنّ الشهادة هي المحطّة التي سينتهي إليها في آخر المطاف، ولم يكن هذا المصير يقلق مفجّر الثورة؛ لأنّه لم يكن يفكّر إلّا بقضيّته ورسالته التي هي رسالة الإسلام.

إنّ السيّد الشهيد يعرف السلطة وطبيعتها الإجراميّة، وكان يعرف أنّ لغتها الوحيدة هي المشانق والسجون، ولم يكن بحاجة إلىٰ التكهّن بمصيره لو أراد مواجهتها؛ لأنّه يعرف مسبقاً النتيجة، وما أشبهه بجدّه الحسين عليه السلام حين كان يجسّد أمامه مصرعه «كأنّي بأوصالي تقطّعها عُسلان الفلوات». وهكذا كان شهيدنا العظيم يرىٰ مصرعه، يرىٰ الأيدي الأثيمة تمتدّ إلىٰ قلبه الطاهر لتقطعه بسيوف حقدها، ومع ذلك كان رحمه الله يرىٰ أنّ ذلك يهون ويسهل إذا كان ينتهي إلىٰ إقامة حكومة إسلاميّة في العراق.

لا أقول هذا الكلام بسبب علاقتي أو حبّي للسيّد الشهيد رحمه الله، بل الوقائع والأدلّة هي الشاهد، وهي البرهان علىٰ ما أقول، وسنعيش معاً تلك اللحظات في خلال فترة الحجز حين رفض شهيدنا العظيم كلّ العروض التي قدّمتها السلطة كشرطٍ لفكّ الحجز ولإرضائه، وإنهاء الخصومة معه، ووقف كالجبل الأشمّ حتّى كأنّك تراه وقد نزع الله ـ عزّ وجلّ ـ من كيانه غريزة حبّ الحياة، وأبدلها بغريزة حبّ الاستشهاد، فكان من الطبيعيّ أن يتّخذ رحمه الله هذا الموقف ما دام قد بدأ الثورة، وأذِنَ لشعلتها أن تتوهّج، وتستمرّ حتّى إقامة حكومة الإسلام في العراق.

الاعتقال:

في صباح يوم الثلاثاء السابع عشر من رجب جاء المجرم مدير أمن النجف، وطلب اللقاء بالسيّد الشهيد، في هذا اللقاء قال مدير الأمن: إنّ السادة المسؤولين يريدون الاجتماع بكم في بغداد. فأجابه السيّد الشهيد بانفعال شديد، وقال له: إن كنت تحمل أمراً باعتقالي، فنعم أذهب، وإن كانت مجرّد زيارة، فلا.

وأضاف: أنّكم كَممتم الأفواه، وصادرتم الحرّيّات، وخنقتم الشعب، تريدون شعباً ميّتاً يعيش بلا إرادة ولاكرامة، وحين يعبّر شعبنا عن رأيه، أو يتّخذ موقفاً من قضيّة ما، حين تأتي الألُوف لتعبّر عن ولائها للمرجعيّة وللإسلام، لاتحترمون شعباً، ولادِيناً، ولاقيماً، بل تلجأون إلىٰ القوّة؛ لتكمّوا الأفواه، وتصادروا الحرّيّات، وتسحقوا كرامة الشعب.

أين الحرّيّة التي تدّعونها؟! أين هذا الشعب الذي تدّعون أنّكم تدافعون عنه؟! أليس هؤلاء الآلاف الذين جاؤوا ليعبّروا عن ولائهم للمرجعيّة هم أبناء العراق؟! ماذا ستقولون للجماهير وأنتم تسحقون قيمهم بأيديكم؟! وظلّ الشهيد الغالي يصرخ بوجه هذا المجرم، وكانت مفاجأة عظيمة له أذهلته وجعلته يلوذ بالصمت، ولم يتمكّن من الردّ ولو بكلمة واحدة.

ثُمَّ قال ـ رضوان الله عليه ـ: هيّا لنذهب إلىٰ حيث تريد.

خرج السيّد الشهيد وكنت برفقته، وكذلك الأخ الشيخ طالب الشطريّ، والشهيدة السعيدة بنت الهدىٰ، وعقيلته الطاهرة أُمّ جعفر،

ورافقنا ـ أيضاً ـ خادم السيّد (الحاجّ عباس).

كانت قوّات الأمن أكثر من مئتي شخص، تتألّف من قوّات الأمن، والجيش الشعبيّ، وأعضاء منظّمة حزب البعث العميل في النجف، وكلّهم مدجّجون بالسلاح والعتاد.

بنت الهدىٰ تهزم الجموع:

خلال مسيرنا في الزقاق المؤدّي إلىٰ شارع الإمام زين العابدين عليه السلام سبقتنا الشهيدة بنت الهدىٰ؛ لتأخذ مكانها هناك استعداداً لإلقاء خطبتها التي هزّمت فيها الجموع التي تحشّدت لاعتقال السيّد الشهيد.

وقفت كأنّها زينب لم تأبه بالمجرمين الذين تتقطّر وجوههم شرّاً وحقداً ووحشيّة، لم ترهبها رشّاشات الكلاشنكوف، وبدأت خطبتها التأريخيّة التي تعتبر وثيقةً مهمّةً من وثائق الثورة الإسلاميّة في العراق، قالت رضوان الله عليها:

انظروا... أخي وحده، بلاسلاح، بلامدافع ورشّاشات، أمّا أنتم بالمئات... انظروا، وأشارت إلىٰ الجموع هنا وهناك، فهل سألتم أنفسكم: لِمَ هذا العدد الكبير؟ ولِمَ كلّ هذه الأسلحة؟ لأنّكم تخافون... إي والله تخافون؛ لأنّكم تعلمون أنّ أخي ليس وحده، بل معه كلّ العراقيّين.

إنّكم تخافون، ووالله لولا ذلك لما جئتم لاعتقال أخي في هذه الساعة المبكّرة من هذا الصباح... لماذا لاتجيئون إلّا والناس نيام؟

لماذا تختارون هذا الوقت؟ هل سألتم أنفسكم؟ هل هـذا إلّا دليـل علىٰ ما أقول؟

وما أن أتمّت الشهيدة خطبتها حتّى تفرّق الحشد الأثيم، واختفى في الأزقّة، وبقيت سيارات الأمن ومن فيها في سكون وثـبات، لم يتحرّك أحد حين خطبت الشهيدة، وكأنّ علىٰ رؤوسهم الطير. ثُـمَّ توجّهت بـخطابها إلىٰ شـهيدنا العـظيم، وقـالت: اذهب يـا أخـي، الله معك، فهذا هو طريقنا، وهذا هو طريق أجدادك الطاهرين.

استمرّ خطاب الشهيدة الخالدة أكثر من خمس عشرة دقيقة، فلم يجرؤ أحد من الجلاوزة عـلىٰ مـنعها، فـقد كـان صـوتها الزيـنبيّ وكلماتها الثائرة أقوىٰ من كلّ قوّة، لقد أربكت الجلاوزة وأرعبتهم، ولم تدع لهم من سبيلٍ إلّا الاختفاء في الأزقّة.

الشهيدة قرّرت الاستشهاد

بعد أن اعتُقل السيّد الشهيد﵀ عادت الشهيدة إلىٰ المنزل، فقلت لها: كان المفروض أن تتريّثي قليلاً؛ كي تتبيّن الأُمور وتتوضّح، إنّ هذا الخطاب من الممكن أن يؤثّر عليكم سلباً، ويفتح صفحة جديدة لكم في سجلّات الأمن، وتزداد مراقبة الأمن لكم، إضافة إلىٰ الآثار التي ستترتّب علىٰ السيّد.

فقالت الشهيدة رحـمها الله: إنّ المسـؤوليّة الشـرعيّة والواجب الدينيّ هو الذي دفعني إلىٰ اتّخاذ هذا الموقف، إنّ زمن السكـوت

انتهىٰ، ولابدّ أن نبدأ صفحة جديدة من الجهاد، لقد سكتنا طويلاً، وكلّما طال سكوتنا كبرت محنتنا، وازدادت أتعابنا، لماذا أسكت وأنا أرىٰ مرجعاً مظلوماً يقع في قبضة هؤلاء المجرمين؟

قلت: إنّ هولاء المجرمين لايتورّعون من أن تمتدّ أيديهم القذرة إليكم، ويمكن أن ينالك الإعدام.

فقالت: والله إنّي أتمنّى الشهادة في سبيل الله، ولقد قرّرت أن أُستشهد منذ اليوم الأوّل الذي جاءت فيه الوفود، فأنا أعرف هذه السلطة، وأعرف وحشيّتهم وقساوتهم، وأعلم أنّ الرجل والمرأة عندهم سواء، أمّا أنا فسيّان عندي أن أعيش أو أموت، ما دمت واثقة بأنّ موقفي كان لله ومن أجله تعالىٰ.

لقد كنت أستمع للشهيدة وكأنّي أستمع لزينب بنت أمير المؤمنين عليه السلام إنّها تتكلّم من أعماقها كلام الواثقة كلّ الثقة بعقيدتها وقضيّتها. لقد جسّدت بنت الهدىٰ إيمانها العظيم وصلابتها الهائلة، ليس في حادث اعتقال السيّد الشهيد فقط، بل وفي طيلة فترة الاحتجاز وفي يوم اعتقالها كما سيأتي.

الشهيدة تثير الجماهير

عادت الشهيدة إلىٰ المنزل، ولكن لتبدأ صفحة أُخرىٰ من جهادها العظيم؛ إذ إنّها لم تكتفِ بموقفها الشجاع الأوّل، وبقيت تفكّر فيما يجب أن تفعله في هذه الساعات الحرجة والحاسمة، وكأنّها تقول:

أنا ابنة عليّ عليه السلام لن أسكت، ولن أصبر على الضيم.

لقد رأيتها تمشي وتتكلّم، ولكنّها كانت تعيش بروحها في عالم آخر، تفكّر في الخطوة القادمة والحلقة الأُخرىٰ، واستطاعت أن تهزّ المشاعر، وتثير في نفوس المؤمنين العزم والتصميم علىٰ التحرّك وفعل كلّ شيءٍ ثأراً للمرجع المظلوم شهيد السجون السيّد الصدر رحمه الله، فكانت التظاهرة الاحتجاجيّة العظيمة التي أرعبت حكّام بغداد الخونة، وجعلتهم في مأزق صعب اضطرّهم إلىٰ الإفراج عن السيّد الشهيد رحمه الله.

ولكن كيف بدأت هذه الخطوة؟ وكيف استطاعت شهيدتنا العظيمة أن تنجح في الإعداد لتظاهرة في يوم وساعة وظرف تكاد تكون فيه مثل هذه الأعمال مستحيلة، بسبب الوضع الأمنيّ الخانق والطوق الإرهابيّ المفروض علىٰ شعبنا؟

حين اعتُقل شهيدنا العظيم في ساعة مبكّرة كان الناس نياماً، والشوارع خالية، ولم يشهد حادث الاعتقال إلّا نفر يسير ممّن وجد صدفةً في ذلك الوقت.

مع ذلك فكّرت شهيدتنا العظيمة بالذهاب إلىٰ الحرم العلويّ الطاهر؛ لإعلام الناس بالحادث، ولكنّها لم تجد العدد المطلوب، فذهبت ثانيةً بعد أن أشرقت الشمس واستيقظ الناس، وهناك عند جدّها أمير المؤمنين عليّ عليه السلام علا صوتها الزينبيّ، وبدأت تخاطب جدّها، كما فعلت زينب عليها السلام بعد قتل أخيها الحسين بعبارات مؤثّرة، وكلمات من قلب صادق.

واستطاعت أن تحشّد الناس، وتثير في نفوسهم الغيرة للانتقام من

معتقلي المرجع المظلوم.

إلى جانب الشهيدة العظيمة كانت هناك مجموعة من الطلبة والمؤمنين[١] قد هزّهم الحدث، ورفعهم الإيمان إلىٰ التحرّك بنفس

(١) وأحدهم السيّد علي أكبر الحائريّ الذي كتب يقول في شرح القِصّة ما يلي:

عند ما اعتُقل السيّد الشهيدﷺ في ساعة مبكّرة من صباح يوم السابع عشر من رجب سنة (١٣٩٩ هـ) كانت الشهيدة (بنت الهدىٰ) أوّل من خرجت لإشاعة هذا النبأ، وكسر طوق التعتيم البعثيّ الذي كانوا يخيّمونه علىٰ جرائمهم، فنطقت نطقها صارخة في حرم الإمام أمير المؤمنينعليه السلام، وأدّت دورها البطوليّ الرائع في إبلاغ خبر اعتقال هذا المرجع العظيم من قبل جلاوزة السلطة الغاشمة، وسرعان ما اشتهر هذا النبأ في أوساط المؤمنين المخلصين للسيّد الشهيدﷺ في النجف الأشرف، وكان الخبر في بادئ الأمر علىٰ شكل شائعة غير مؤكّدة، وكان جلاوزة الأمن واقفين علىٰ باب دار السيّد الشهيد يراقبون الأوضاع عن كثب خشية وقوع حادثة أو ردّ فعل معيّن.

وبعد التأكّد من الخبر وقع الاضطراب والبلبلة في أوساط المؤمنين، وكانت تخيّم علينا جميعاً حالة التحيّر والشكّ في الوظيفة العمليّة، رغم إحساس الجميع بضرورة وقوع ردّ فعل جماهيريّ عظيم تجاه هذه الجريمة النكراء التي قامت بها السلطة الظالمة، ولكن كلّ يقول: ماذا نصنع؟ كيف نتحرّك؟ ما هي الوظيفة؟ ما هو الأسلوب؟... وأنا بدوري شعرت ـ أيضاً ـ بأنّ هذه ساعة حرجة لابدّ فيها من اتّخاذ موقف سريع، فذهبت مع أحد الإخوة المؤمنين ـ من طلاب السيّد الشهيدﷺ ـ إلىٰ بيت شخص آخر من زملائنا الأعزاء، فعقدنا هناك اجتماعاً ثلاثيّاً للتخطيط حول ما يجب صنعه في هذه الساعات الحرجة، فكانت نتيجة هذا الاجتماع هو التصميم القاطع بتنظيم مظاهرة جماهيريّة للاحتجاج علىٰ هذه الجريمة النكراء، مع وضع الخطة الكاملة من حيث: تعيين مكان التجمّع، وساعة الانطلاق، وكيفيّة الإعداد. فقد عيّنا الحرم الشريف مكاناً للتجمّع وصمّمنا علىٰ الانطلاق من هناك علىٰ رأس الساعة العاشرة بعد قراءة دعاء الفرج. وإنّما اخترنا دعاء الفرج ضمن الأدعية المأثورة باعتبار أنّ هذا الدعاء ينتهي باسم الإمام الحجّة عجّل الله فرجه، وسيقوم الناس بطبيعتهم احتراماً لاسم الإمامعليه السلام، فيكون هذا القيام إعداداً للانطلاق في المظاهرة، وهكذا كان، فقد خرجت أنا وصاحبي من بيت ثالثنا؛ لنبلّغ المؤمنين بهذا القرار، فمررنا بأكثر المدارس العلميّة في النجف، وبلّغنا من وجدنا فيها من الطلّاب والمؤمنين، والتقينا بمن التقينا من المؤمنين ـ أيضاً ـ في الطرق والشوارع، وبلّغناهم بالأمر، ولمّا قرب الموعد ذهبت إلىٰ الحرم الشريف، وانتظرت هناك إلىٰ أن حان الوقت، واجتمع عدد من المؤمنين، ولم أجد صاحبي الذي كنت أتعاون معه

←

الاتّجاه، فتجمّعوا في الحرم الشريف، وبدؤوا بقراءة دعاء الفرج كأسلوب للتجمّع والتهيّؤ، وكان الأخ حجّة الإسلام السيّد علي أكبر الحائريّ ـ وهو أحد تلاميذ السيّد الشهيد والمقرّبين إليه ـ هو أوّل من جاء إلىٰ منزل السيّد الشهيد، واستفسر عن حادث الاعتقال،

في القضيّة، ولاذاك الثالث الذي انطلق القرار من بيته، فضمّمت علىٰ أن أبدأ بالأمر، فشرعت بقراءة دعاء الفرج، وكان الجميع يردّدون معي جملة جملة، إلىٰ أن بلغنا اسم الإمام الحجّة عجّل الله تعالىٰ فرجه، فقمنا جميعاً إجلالاً له عليه السلام، ثُمّ بدأت الشعارات: الله أكبر، الله أكبر، نصر من الله وفتح قريب، عاش عاش عاش الصدر... وانطلقت المظاهرة بركضة سريعة.

وهنا لابدّ لي من الإشارة إلىٰ مشاركة المرأة المسلمة العراقيّة في هذه الانتفاضة، حيث تواجد عدد من المؤمنات الرساليّات في الحرم الشريف، واشتركن في بداية المظاهرة، إلّا أنّ سرعة حركة المظاهرة منعتهنّ عن إمكان الالتحاق بالرجال عند الخروج من الحرم الشريف، فتفرّقن بطبيعة الحال، وتعرّض بعضهنّ إلىٰ المراقبة والملاحقة من قبل أعضاء جهاز الأمن الإرهابيّ في العراق.

ولمّا انطلقت المظاهرة التحق بنا جمع غفير من المؤمنين من خارج الحرم الشريف، وسرعان ما اتّسع العدد ـ أيضاً ـ عند ما دخلت المظاهرة شارع الإمام الصادق عليه السلام. وحاولت أجهزة الأمن الإرهابيّة بشتّى الأساليب أن تفرّق المتظاهرين منذ خروجهم من الصحن الشريف فلم تستطع، حتّى اقتحمت سيارة الأمن جموع المتظاهرين وهم في شارع الإمام الصادق عليه السلام، فلم تحصل إلّا علىٰ ضربات قاسية علىٰ زجاجها من قبل المتظاهرين.

ثُمّ واصلت المظاهرة طريقها في شارع الإمام الصادق عليه السلام إلىٰ أن واجهت قوىً أمنيّة مكثّفة من جهة الأمام، فحرفت مسيرها إلىٰ جهة السوق الكبير من أحد الأزقّة المؤدّية إليه، ولمّا دخلنا السوق وجدنا المحلاّت كلّها معطّلة، فواصلنا السير في داخل السوق إلىٰ أواخر السوق حيث وقع الاشتباك بين المتظاهرين وجهاز الأمن الإرهابيّ، رغم تجرّد المتظاهرين من كلّ سلاح. وتعالت أصوات إطلاق الرصاص من قبل الجلاوزة، ثُمّ رجع المتظاهرون في داخل السوق باتّجاه الحرم الشريف حيث كان الجلاوزة ينتظروننا علىٰ مدخل السوق، فاضطررنا الرجوع مرّةً أُخرىٰ من إحدىٰ الأزقّة إلىٰ شارع الإمام الصادق عليه السلام. وبدأ التفرّق من هناك حيث هرب من هرب، وألقي القبض علىٰ من ألقي.

ثُمّ بدأت عملية إلقاء القبض علىٰ الناس بصورة عشوائيّة في أكثر شوارع النجف الأشرف، ممّا يدلّ علىٰ مدىٰ الرعب والوحشة التي ابتلت بها الجلاوزة علىٰ أثر هذه المظاهرة.

وهو الذي قرأ دعاء الفرج في الحرم الشريف. وبدأ الناس بالتجمّع، وبعد ذلك انطلقوا في تظاهرة، أقول: إنّها عظيمة ليس في كمّها، بل في الآثار التي نتجت منها، وترتّبت عليها، وفي روح التحدّي التي اتّسمت بها.

انطلقت التظاهرة من الحرم الشريف، وبدأت التظاهرة صغيرة، فهي لاتضمّ إلّا الصفوة من أبناء الشهيد الصدر، ولكن سرعان ما كبرت واتّسعت، فقد انضمّ إليها عدد من الناس الذين اتّفق وجودهم هناك، وكانت شعارات المتظاهرين تندّد بالسلطة وأعمالها الإجراميّة، وتطالب بالإفراج عن الشهيد الغالي، رضوان الله عليه.

المواجهة المسلّحة

في السوق بدأت أجهزة الأمن محاولتها لتطويق المتظاهرين الأبطال أبناء الصدر الشهيد، وقبل ذلك قام تجّار النجف في السوق الكبير بإغلاق محلّاتهم، بعد أن علموا أنّ التظاهرة حدثت احتجاجاً علىٰ اعتقال المرجع المظلوم، وقد عطّلت النجف في ذلك اليوم أسواقها كتعبير عن استيائهم واحتجاجهم علىٰ اعتقال السيّد الصدر، رضوان الله عليه.

في السوق الكبير حاولت قوّات الأمن تطويق المتظاهرين تمهيداً لاعتقالهم، ولكنّهم واجهوا من أبناء الصدر مقاومة شجاعة، حيث اشتبك رجال الأمن والمتظاهرون، وعلىٰ رغم أنّ المتظاهرين

لا يملكون حتّى أبسط أنواع الأسلحة الناريّة إلّا أنّهم هـزموا قـوّة الإرهاب بعد أن كبّدوهم عدداً من الجرحى، واستطاع عـدد كـبير منهم الإفلات من قبضة السلطة المجرمة، في حين تـمكّنت بـعض مفارز الأمن من اعتقال آخرين.

إلى جانب تظاهرة النجف المتميّزة انطلقت تظاهرات أُخرىٰ في مدينة الكاظميّة المقدّسة والبصرة وديالى وغيرها من مدن العـراق الأُخرىٰ.

وهنا يجب أن لاننسى دور بنات الزهراء عليها السلام، فقد كـانت هـناك مجموعة من خيرة المؤمنات قد اشتركن في هذه التظاهرات، علىٰ رغم علمهنّ بالعواقب الخطيرة التي تترتّب فيما لو وقعن في قبضة السلطة، وكانت الشهيدة ـ رحمها الله ـ تذكرهنّ بالأسماء بـاعتزاز وتقدير وإكبار، وهكذا كان شهيدنا الغالي يرفع يـديه إلىٰ السـماء يدعو الله تعالىٰ لهنّ، ولكلّ المخلصين والمجاهدين الذين وقفوا مع الإسلام في محنته في رجب، وما تلاه من أشهر الحصار والمعاناة.

لماذا أُفرج عن شهيدنا الغالي؟

قد أشرنا سابقاً: أنّ اعتقال السيّد الشهيد في رجب كـان بـهدف التصفية الجسديّة، وليس مجرّد التحقيق عن أحداث رجب العظيمة، فقد أكّد سيّدنا الشهيد أنّ كلّ الدلائل كـانت تشـير إلىٰ ذلك: مـنها أُسلوب التعامل، الكلمات البذيئة التي يسمعها من هذا وذاك، التهديد

القاسي، وغير ذلك.

وحين حضر المجرم فاضل البرّاك، وبدأ باستجواب السيّد كان الجوّ يؤكّد تلك الحقيقة، ولكن بعد ساعة واحدة من بداية التحقيق دخل أحد ضباط الأمن، وسلّم فاضل البرّاك ورقة صغيرة تغيّر بعدها أُسلوب التحقيق، واعتذر البرّاك للسيّد من اعتقاله، وقال له: في الحقيقة لم يكن هدفنا الاعتقال، بل التفاهم في هذه الأُمور التي وقعت، وبدأ يلاطف السيّد الشهيد.

يقول السيّد الشهيد ـ رضوان الله عليه ـ: لقد أحسستُ من التغيّر المفاجئ أنّ حدثاً ما قد وقع، ولكن ما هو؟ ولماذا تغيّر الأُسلوب بهذه السرعة؟

لم يُخفِ البرّاك الحقيقة، فقال للسيّد الشهيد: إنّ تظاهراتٍ كبيرةً جدّاً في النجف والكاظميّة قد خرجت احتجاجاً علىٰ اعتقالكم، في حين حقيقة الأمر أنّ مجيئكم إلىٰ هنا لم يكن اعتقالاً، وإنّما وقع اشتباه من قبل الرفيق (أبو سعد) حيث فسّر طلبنا بالاجتماع بكم بالاعتقال، في حين نحن لم نقصد ذلك، وأنت الآن حرّ في البقاء أو الذهاب. ثُمَّ قال: ولأجل أن نبرهن لكم عن حسن نيّاتنا فإنّكم ستذهبون إلىٰ النجف بسيّارتي الخاصّة.

نعم، إنّ التظاهرات التي نظّمها أبناء الصدر الشهيد كانت السبب في الإفراج عن السيّد الشهيد، ولولاها لنُفّذت جريمة الإعدام في ذلك التأريخ.

لقد أفادتنا مصادر قريبة من بعض رجال السلطة أنّ برقيّة

أُرسلت من النجف إلىٰ المقبور أحمد حسن البكر، أكّدت له خطورة الوضع في النجف، والعواقب التي ستترتّب علىٰ استمرار اعتقال السيّد الصدر، وأشارت إلىٰ تظاهرة النجف، وتعطيل الأسواق فيها، إلىٰ غير ذلك. وعلىٰ أثر هذه البرقيّة تراجعت السلطة مرغمة، وأفرجت عن السيّد الشهيد.

مساعد مدير الشعبة الخامسة في مديريّة الأمن قال لبعض من يخصّ السيّد الشهيد: ليعلم السيّد محمّد باقر الصدر أنّه إذا كانت الظروف لاتسمح فعلاً بإعدامه، فإنّنا نعرف كيف ننتقم من أنصاره وأتباعه، ونجعله مقصوص الجناحين.

إنّ السيّد علي بدرالدين نقل للسيّد الشهيد خلال فترة الحجز تفاصيل الوضع عن أحداث رجب في داخل ما يسمّى بالقيادة، حيث كانت له صلات صداقة مع بعضهم، وقال: إنّ (القادة) أرعبتهم هذه التظاهرات، وأدهشتهم جرأة المتظاهرين، والروح العالية التي جعلتهم يتجاهلون وحشيّة السلطة، وإجراءاتها القاسية.

حين أراد شهيدنا العظيم مغادرة مديريّة الأمن وجد أنّ السلطة قد احتجزت مرافقيه، وهما: الأخ الشيخ طالب الشطريّ، والأخ السيّد محمود الخطيب، حيث كانا قد رافقا السيّد الشهيد إلىٰ بغداد، فرفض ﷺ الذهاب إلّا بعد الإفراج عنهما، والسماح لهما بالعودة إلىٰ النجف، فقال مدير الشعبة الخامسة المجرم أبو أسماء: سيّدنا بعد ساعات يطلق سراحهما، والمسألة مجرّد إجراءات روتينيّة. ولكن السيّد الشهيد رفض ذلك، وأصرّ علىٰ الإفراج عنهما، وفعلاً عاد

السيّد الشهيد، وعادا معه أيضاً.

حين اعتُقل السيّد الشهيد اتّصل أحد المؤمنين(...) هاتفيّاً بأحد المسؤولين في الجمهوريّة الإسلاميّة، وأطلعه على قضيّة اعتقال السيّد الشهيد، والأوضاع المتأزّمة والخطيرة التي تحيط به، وما يتهدّد شهيدنا الغالي من أخطار، وقد أعلنت إذاعة الجمهوريّة الإسلاميّة (القسم الفارسيّ) خبر اعتقال السيّد الشهيد، وشهيدُنا العظيم مازال في الطريق متّجهاً إلىٰ بغداد.

كيف بدأ الاحتجاز؟

قد ذكرنا سابقاً: لم يكن الإفراج عن السيّد الشهيد قد حصل باختيار السلطة وإرادتها، أو أنّ الحسابات قد صفّيت معه، بل الضرورة والظروف المعقّدة أجبرتهم علىٰ امتصاص جزء من غضب الجماهير المسلمة الثائرة حتّى حين، وذلك بالإفراج عن سيّدنا الشهيد الصدر.

ولنترك السلطة والإجراءات التي تعتزم اتّخاذها ضدّ شهيدنا العظيم؛ لنتعرّف انطباعات السيّد الشهيد عن هذا الموضوع، وما لمسه منهم في مديريّة الأمن العامّة:

قال لي ﷺ: كنت واثقاً بأنّ السلطة تعتزم إعدامي، وكانت مجريات التحقيق تدلّ علىٰ ذلك، وخاصّةً التأكيد علىٰ نوع وحجم الصلة والعلاقة بالسيّد الخمينيّ دام ظلّه، وتفسيرهم لها تفسيراً

سياسيّاً، أو (تآمراً) للإطاحة بالسلطة البعثيّة العميلة، ومن الطبيعيّ ـ في قوانين البعث ـ أن ينال الإعدام كلّ من يُتّهم بهذه التهمة.

قال المجرم البرّاك مخاطباً السيّد الشهيد: لو كان أحد غيرك ـ ومهما كان ـ لنفّذنا فيه عقوبة الإعدام، ولكن لاعتبارات خاصّة تتريّث القيادة في اتّخاذ قرار الإعدام.

هذا الكلام أو نظيره سمعه السيّد الشهيد منهم مرّات عديدة خلال فترة اعتقاله في شهر رجب، ولم يكن يخفى علىٰ شهيدنا العظيم مغزاه، إذن فالإعدام هو القرار الذي كانت تفكّر به السلطة؛ لحسم الثورة وقائدها العظيم.

ولم يكن السيّد الشهيد ﷺ يخشى هذا المصير، وهذه هي النقطة المهمّة، فالسيّد الشهيد ﷺ كان يتمنّى الاستشهاد في سبيل الله، بسبب قناعته بأنّ أهمّ عنصر لنجاح الثورة الإسلاميّة في العراق هو أن يراق دمه الزكيّ؛ لتبقى الشعلة التي تنير الطريق، ويؤجّج الحماس في نفوس العراقيّين للإطاحة بسلطة البعث العفلقيّة، وهو القائل: «إنّ العراق بحاجةٍ إلىٰ دمٍ كدمي».

وعلىٰ هذا الأساس صمّم السيّد الشهيد علىٰ أن يبدأ مرحلة جديدة من التعامل مع السلطة تناسب المرحلة الجديدة للثورة، وهذا ما حدث، وأحسّت به السلطة خلال اعتقاله واستجوابه في شهر رجب.

فمثلاً: حين جاء مدير أمن النجف الأشرف مع أكثر من أربع مئة من أزلامه وأعوانه لاعتقال شهيدنا العظيم، واجهه السيّد الشهيد

مواجهة عنيفة. وفي مديريّة الأمن كان يرفض ويمتنع من الإجابة عن بعض الأسئلة علىٰ رغم إصرار البرّاك مدير الأمن العامّ وتهديده له بالإعدام إذا لم يقنع (القيادة السياسيّة) بإجابة وافية وكاملة عنها. وكان شهيدنا المظلوم يقول: «كنت قد هيّأتُ نفسي للاستشهاد، فلاأُبالي أوقع الموت عليّ أم وقعت علىٰ الموت».

بعد الإفراج عن السيّد الشهيد إثر التظاهرات الاحتجاجيّة التي خرجت في النجف والكاظميّة والثورة والخالص وغيرها أخبرته بأنّ المؤمنين حين علموا باعتقالكم خرجوا في تظاهرات احتجاجاً علىٰ اعتقالكم، واستطاعت السلطة أن تعتقل عدداً منهم، وتزجّهم في السجون... فتأثّر السيّد الشهيد كثيراً، فأمر أحد الأشخاص القريبين منه أن يتّصل هاتفيّاً بمدير الأمن العامّ، ويبلغه: أنّ السيّد الصدر يطالب بالإفراج عن جميع المعتقلين دون استثناء، وإلّا فالسيّد الصدر سوف يغلق داره، ويمتنع عن العودة إلىٰ حياته الاعتياديّة احتجاجاً علىٰ ذلك. بعد هذا الاتّصال طلب البرّاك فترة قصيرة ليبلغ (القيادة) بالموضوع، وبعد ذلك سيبلغ السيّد الصدر بالجواب، وقال: أنا أتوقّع خيراً إن شاء الله.

وقبل أن نتعرّف جواب (القيادة) يجب أن نشير إلىٰ أنّ عدداً من قوّات الإرهاب في النجف قد قُتلوا أو جُرحوا علىٰ أيدي المؤمنين المتظاهرين، فكان من الصعب علىٰ السلطة أن تغضّ النظر عن ذلك، فالتغاضي سيشجّع المؤمنين علىٰ أعمال أكثر جرأة وشجاعة هذا من جانب، ومن جانب آخر أنّ تهديد السيّد الصدر لهم بإغلاق داره

يشكّل خطورة أُخرىٰ أعظم من سابقتها، خاصّة وإنّ الأُمور ما زالت غامضة ومجهولة عن حجم التحرّك الثوريّ في رجب؛ لذلك كان جواب مدير الأمن العامّ إيجابيّاً، فقد اتّصل هاتفيّاً، وأبلغ السيّد الشهيد: أنّ (القيادة) قرّرت الإفراج عن جميع المعتقلين.

أمّا الواقع فلم يكن كذلك: فالذي ظهر فيما بعد هو: أنّ السلطة العفلقيّة أرادت أن تناور كعادتها، ففي الوقت الذي (تقنع) السيّد الصدر بالعودة إلىٰ حياته الطبيعيّة تقوم بالإفراج عن بعض المعتقلين ممّن اعتقلوا لمجرّد الظنّ والتهمة، أو ممّن ليست لهم علاقة بالتظاهرة الاحتجاجيّة؛ تحاشيّاً من نقمة جماهيريّة أُخرىٰ، في حين تستمرّ السلطة في الوقت نفسه باعتقال آخرين، وبدأت الأخبار تتواتر عن عمليات اعتقال مكثّفة لأعداد كبيرة من المؤمنين، ومن وكلاء السيّد الشهيد، والعلماء الذين ساهموا أو اشتركوا في الوفود، وفي مقدّمة هؤلاء: سماحة الحجّة السيّد قاسم شبّر ﷾، وحجج الإسلام: الشيخ عفيف النابلسيّ، والشيخ حسن عبد الساتر، والسيّد المبرقع، وغيرهم، حيث كانت السلطة قد رصدتهم، وسجّلت أسماءهم في نقاط التفتيش بواسطة العملاء المحلّيّين في مناطقهم.

أحسّت السلطة بأنّ لعبتها انكشفت، ولم ينخدع السيّد الصدر بالوعود الكاذبة، فقرّر إغلاق الباب احتجاجاً علىٰ السلطة.

إضافة إلىٰ ذلك فإنّ السلطة أوعزت إلىٰ قوّاتها باعتقال كلّ داخل وخارج من وإلى منزل السيّد الشهيد، ومراقبة منزله والأزقّة المحيطة والقريبة منه، مراقبة دقيقة ومستمرّة ليلاً ونهاراً.

هذا الإجراء كشف عن جانب من مخطّط السلطة، فهي تنتظر

اللحظة المناسبة للقضاء علىٰ الثورة وتصفية مفجّرها السيّد الصدر، فقرّر الاحتجاج علىٰ ذلك بالاعتصام وعدم العودة إلىٰ الحياة الطبيعيّة؛ ليعلم الشعب أنّ المواجهة مستمرّة بين المرجعيّة والسلطة الحاكمة.

التخطيط لمحاولة اغتيال السيّد الصدر

حينما أصبح واضحاً للسلطة قرار السيّد الشهيد الاحتجاجيّ اتّصل مدير الأمن العامّ فاضل البرّاك، وقبله مساعده المجرم المعروف بـ(أبي أسماء) مدير الشعبة الخامسة، وطلبا من السيّد الصدر التخلّي عن قراره، وقالا: إذا كنّا لم نفرج عن عدد من المعتقلين، فإنّ ذلك يعود إلى أمرين.

الأوّل: أنّ هناك إجراءاتٍ روتينيّة تفرض التأخير قليلاً، والمسألة مجرّد وقت فقط.

والثاني: أنّ بعض هولاء (اعتدوا) علىٰ بعض قوىٰ الأمن الداخليّ بالأسلحة والرمي، ومع ذلك فأنا شخصيّاً ـ والكلام للبرّاك ـ سأبذل كلّ جهدي من أجل الإفراج عن هؤلاء أيضاً، وقال: إنّ هدفنا هو: أن لاتسوء العلاقات، أو تتعكّر الأجواء.

أمّا الحقيقة فليست كذلك؛ إذ وصلت السيّد الشهيد معلومات موثّقة: أنّ السلطة إنّما أرادت أن يعود السيّد الصدر إلىٰ حياته الطبيعيّة، فيذهب كعادته في كلّ يوم إلىٰ الحرم الشريف وإلى مسجد الشيخ الطوسيّ للبحث؛ ليتاح للسلطة اغتياله في حادث شجار

يفتعل بين بعض المرتزقة المجرمين من قوى الأمن، في الوقت الذي يتّفق فيه وجود السيّد الشهيد بالقرب منهم، إمّا في سوق العمارة، أو في شارع الإمام زين العابدين، فيقوم أحدهم بإطلاق النار على صاحبه، ويكون ـ على حسب الخطّة ـ ضحيّةُ هذا الشجار السيّدَ الصدر، ثُمَّ يتمّ بعد ذلك إعدام المجرمين على أساس قتلهم للسيّد الصدر، وبذلك يتخلّصون من السيّد الشهيد دون أن يتحمّلوا مسؤوليّة أو تبعات إعدامه، والذي زاد الشكوك، وعزّز هذه المعلومات هو أنّ مساعد مدير الأمن المجرم أبو أسماء اتّصل هاتفيّاً مرّات عديدة، وطلب من السيّد أن يباشر الدراسة، وكانت الاتّصالات لهذا الغرض فقط.

والأمر الآخر هو: أنّ بعض شرطة الأمن سألوا خادم السيّد: متى سيباشر السيّد أبحاثه ودروسه؟ ولهذا السبب ـ أيضاً ـ تظاهروا بفكّ الحجز عن السيّد الشهيد في الشهر الأخير من الاحتجاز، فقد استهدفوا إعادة الكرّة لعلّهم يفلحون في اغتيال المرجع المظلوم بدل إعدامه بشكل مباشر.

الإبلاغ الرسميّ بالاحتجاز

بعد أن فشلت السلطة العميلة في محاولاتها الإجراميّة لاغتيال السيّد الشهيد أبلغتنا السلطة الاحتجاز، فقد اتّصل مساعد مدير الأمن العامّ المجرم (أبو أسماء) مدير الشعبة الخامسة، وأخبر: بأنّ السيّد محتجز، ولا يحقّ له الخروج من المنزل.

وقد قامت السلطة المجرمة بقطع الماء والكهرباء والتلفون عن منزل السيّد الشهيد، وبقينا أيّاماً بهذه الحال».

انتهى ما أردت نقله هنا من الشيخ النعمانيّ ـ حفظه الله ـ بتغيير يسير.

وقبل أن أنتقل إلىٰ ذكر الاعتقال الرابع أذكر هنا اتّصالاً هاتفيّاً لأُستاذنا الشهيدﷺ في أيّام احتجازه في البيت: اتّصل بأحد الأشخاص في إيران، وقرأ عليه ما يكون كجواب عن برقيّة أرسلها السيّد الإمام الخمينيّ ـ دام ظلّه ـ إليه يستفسره عن حاله، وأكبر الظنّ أنّ الأُستاذ الشهيد قد سمع البرقيّة بتوسّط إذاعة إيران.

وعلىٰ أيّة حال، فنصّ الجواب ما يلي:

«سماحة آية الله العظمىٰ الإمام المجاهد السيّد الخمينيّ دام ظله: استمعت إلىٰ برقيّتكم التي عبّرتم بها عن تفقّدكم الأبويّ لي، وإنّي إذ لايتاح لي الجواب علىٰ البرقيّة ـ لأنّي مودع في زاوية البيت، ولايمكن أن أرىٰ أحداً أو يراني أحد ـ لايسعني إلّا أن أسأل المولى ـ سبحانه وتعالىٰ ـ أن يديم ظلّكم مناراً للإسلام، ويحفظ الدين الحنيف بمرجعيّتكم القائدة، أسأله تعالىٰ أن يتقبّل منّا العناء في سبيله، وأن يوفّقنا للحفاظ علىٰ عقيدة الأُمّة الإسلاميّة العظيمة، وليس لحياة أيّ إنسان قيمة إلّا بقدر ما يعطي لأُمّته من وجوده وحياته وفكره، وقد أعطيتم للمسلمين من وجودكم وحياتكم وفكركم ما سيظلّ به علىٰ مدىٰ التأريخ مثلاً عظيماً لكلّ المجاهدين، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته».

الاعتقال الرابع

اعتقل ﷺ بعد ظهر يوم السبت في الساعة الثانية والنصف يوم (١٩ / جمادىٰ الأُولىٰ ١٤٠٠)، وجاء بعض الجلاوزة في ليلة الأربعاء بعد نصف الليل المصادف (٢٣ / جمادىٰ الأُولىٰ ١٤٠٠) إلىٰ بيت أحد أبناء عمّ أُستاذنا الشهيد، وهو المرحوم الحجّة السيّد محمّد صادق الصدرﷺ لغرض إحضاره في عمليّة دفن أُستاذنا الشهيد بعد إراءتهم لجثمانه الطاهر إيّاه، وقد واروه في مضجعه بحضور السيّد محمّد صادقﷺ.

وإليك تفصيل الكلام عن استشهاده، وعن دوافع السلطة الجائرة إلىٰ قتله:

استشهاده رضوان اللّه تعالی علیه

إنّ أُستاذنا الشهيد الصدر ﷺ لو كان يكفّ عن خدمة المبدأ والعقيدة، ويصبو إلىٰ الدعة والراحة والالتذاذ بالزعامة، لكان صدام يغفر له ما سلف منه من تأسيس حزب الدعوة الإسلاميّة، وتأليف الكتب المبدئيّة، وتربية علماء للإسلام، وما إلىٰ ذلك من خدماته الجليلة، ولكن هيهات للمرجعيّة الصالحة أن تخضع لمتطلّبات الكفر، وتخضع لطاغوت الزمان. وكانت المؤشّرات لدىٰ البعث الكافر في العراق، ولدىٰ الاستكبار العالميّ تدلّ علىٰ أنّ الصدر لو ترك لكان خمينيّاً ثانياً في العالم الإسلاميّ، وهي كثيرة[1]، منها ما يلي:

---

(١) ومن جملتها: نصّ رسالة هاتفيّة أُرسلت إلينا لغرض إيصالها إلىٰ السيّد الإمام دام ظلّه، فكتبناها، وأوصلناها إلىٰ السيّد الإمام، والنصّ الواصل إلينا هو باللّغة الفارسيّة حيث ترجمت في النجف الأشرف، وقرئت علينا باللّغة الفارسيّة هاتفيّاً، فشكّلنا وفداً من أبناء أُستاذنا الشهيد ﷺ في إيران لزيارة السيّد الإمام دام ظلّه؛ لإبلاغ النصّ الفارسيّ إليه مع تهاني وتبريكات أُستاذنا الشهيد بمناسبة انتصار الثورة الإسلاميّة. وكان الوفد مؤتلفاً منّي، ومن السيّد نورالدين الإشكوري، والسيّد محمّدباقر المهريّ، وإليكم النصّ الفارسيّ:

بسمه تعالىٰ

حضرت آية الله العظمىٰ الإمام المجاهد الخمينى دام ظلّه

اين نامه را به حضرت عالى در يكى از حسّاسترين لحظات تاريخ اسلام مينويسم تا بدين وسيله اعتماد واعتزاز بى نهايت خود را نسبت بپيروزيهاى غرور آفرين ملّت مسلمان ايران اظهار كنم.

پيروزيهاى پى در پى وچشمگيرى كه با رهبرى خردمندانهٔ آن حضرت صورت گرفت وبرنامهٔ نجات بخش اسلامى را بجاى دو تمدّن وايديئولوجى متقابل شرق وغرب به ←

١ ـ إفتاؤه بحرمة الانتماء إلى حزب البعث العميل.

٢ ـ إفتاؤه بالكفاح المسلح ضدّ حزب البعث الكافر.

٣ ـ دعمه للثورة الإسلاميّة في إيران، ولقيادة الإمام الخمينيّ ـ دام ظلّه ـ بكلّ ما أُوتي من قوّة، وأكتفي هنا بذكر بعض الأرقام من دعمه للثورة الإسلاميّة، ولقائدها الفذّ العظيم، وهي: رسالتان وبرقيّة، أرسل الأُولى إلى الشعب الإيرانيّ المسلم قبل انتصار الثورة الإسلاميّة، حينما كان الإمام الخمينيّ ـ دام ظلّه ـ في باريس، وأرسل الثانية بعد انتصار الثورة الإسلاميّة المباركة إلى طلّابه الأعزّاء الذين هاجروا إلى إيران، وأرسل البرقيّة إلى العرب الساكنين في إيران.

سرزمين عرضه داشت

پيروزى شكوهمندى كه با همّت عظيم ملّت مسلمان ايران به رهبرى حكيمانهٔ آن حضرت تحقّق پيدا كرد واين سرزمين اسلامى را از لوث شبح طاغوت روز پاك كرد وشرافت وكرامت ملّت مسلمان ايران را كه جريحه‌دار شده بود از نو احياء وزنده كرد

پيروزى تاريخى بزرگى كه با سعى ومجاهدت روحانيّت بيدار وآزاد اسلام به رهبرى آن حضرت صورت گرفت وبا همبستگى وهمفكرى تمام نيروهاى فكرى وروحانى وعملى جامعهٔ روحانيّت ثمر رسيد كه در باب خود در تاريخ مجاهدات جامعهٔ روحانيّت شيعه كم نظير است وهمين وحدت ويكپارچگى وهمبستگى بود كه اين پيروزى بزرگ اسلامى را براى جامعهٔ مسلمان ايران تضمين نمود

ودر اين هنگام كه با اميد ودعاى فراوان از درگاه الهى چشم براه مراحل بعدى پيروزى اين نهضت عظيم اسلامى هستيم همهٔ وجود وامكانات خود را در خدمت آن وجود بزرگ ونهضت مقدّس اسلامى ميگذاريم واز خداوند متعال خواستاريم كه در عمر وعزّت آن حضرت بيافزايد وآرزوهاى ديرينه وبزرگ ما را در سايهٔ مرجعيّت ورهبرى آن حضرت محقّق بفرمايد إن شاء الله

محمّدباقر صدر

وإليك نصّ الرسالتين والبرقيّة:

الرسالة الأولى: وهي موجّهة إلى الشعب الإيرانيّ قبل الانتصار:

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على محمّد خير خلقه وعلى الهداة الميامين من آله الطاهرين.

وبعد: فإنّنا في النجف الأشرف إذ نعيش مع الشعب الإيرانيّ بكلّ قلوبنا، ونشاركه آلامه وآماله، نؤمن أنّ تأريخ هذا الشعب العظيم أثبت أنّه كان ولايزال شعباً أبيّاً شجاعاً، وقادراً على التضحية والصمود من أجل القضيّة التي يؤمن بها، ويجد فيها هدفه وكرامته ونحن إذا لاحظنا مسيرة هذا الشعب النضاليّة خلال الفترة المنظورة من هذا القرن، وجدنا أنّه خاض فيها بكلّ بطولة وإيمانٍ عدداً من المعارك الباسلة في سبيل الحفاظ على كرامته، وتحقيق ما آمن به من طموحات خيّرة، وأهداف عالية. فمن قضيّة (التبغ) التي استطاع فيها هذا الشعب العظيم أن يكسر الطوق الذي أراد حكّامه ومخدوموهم المستعمرون أن يطوّقوا به وجوده، إلى قضيّة (المشروطة) التي قاوم فيها الشرفاء الأحرار من أبناء هذا البلد الكريم ألوان التحكّم والاستبداد، في وقت كان العالم الإسلامي فيه غارقاً في أشكال مؤلمة من هذا الاستبداد، إلى الممارسات الفعلية لهذا الشعب المكافح التي قدّم من خلالها حجماً عظيماً من التضحيات، ولايزال يقدّم، وهو يزداد يوماً بعد يوم إيماناً وصموداً وتأكيداً على روحه النضاليّة.

بين هذه الملاحم النضاليّة يبدوعمق الشخصيّة المذهبيّة للفرد الإيرانيّ المسلم، والدور العظيم الذي يؤدّيه مفهومه الدينيّ، وتمسّكه العميق بعقيدته ورسالته ومرجعيّته في مجالات هذا النضال الشريف. وفي كلّ هذه الملاحم نلاحظ: أنّ الروح الدينيّة كانت هي المعين الذي لا ينضب للحركة، وأنّ الشعارات الإسلاميّة العظيمة كانت هي الشعارات المطروحة علىٰ الساحة، وأنّ المرجعيّة الرشيدة كانت هي الزعامة التي تلتفّ حولها جماهير الشعب المؤمنة، وتستلهمها في صمودها وجهادها، ولاتوجد هويّة لشعب أصدق انطباقاً عليه وتجسيداً لمضمونه من الهويّة التي يتجلّىٰ بها في ساحة الجهاد والبذل والعطاء، ولم يعبّر شعب عن حرّيّته النضاليّة تعبيراً أوضح وأجلى بما عبّر به الشعب الإيرانيّ المسلم عن هويّته الإسلاميّة، في كلّ ما خاضه من معارك شريفة كانت التعبئة لكلّ واحد منها تتّسم باسم الإسلام، وكانت المشاعر والقلوب تتجمّع علىٰ أساسه، وكانت القوىٰ الروحيّة والمرجعيّة الصالحة هي التي تتقدّم المسيرة في نضاله الشريف. ولئن كان الشعب الإيرانيّ قد عبّر عن هويّته النضاليّة الأصليّة باستمرار، فإنّ نهضته الحيّة المعاصرة لهي التعبير الأروع عن تلك الهويّة النضاليّة المؤمنة، التي عبّر بها الشعب الإيرانيّ عن نفسه ولايزال، وهي من أعظم ذخائر الإسلام وطاقاته التي يملكها في التأريخ الإسلاميّ الحديث.

وتشير هذه الهويّة النضاليّة في خلال التجارب الجهاديّة التي مارسها ولايزال يمارسها شعب إيران المسلم إلىٰ عدد من الحقائق

تبدو واضحةً كلّ الوضوح، ومن الضروريّ أن تشكّل إطاراً أساسيّاً ثابتاً لرؤية هذا الشعب لطريقه.

ومن تلك الحقائق الثابتة: أنّ الشعب الإيرانيّ كان يحقّق نجاحه في نضاله بقدر التحامه مع قيادته الروحيّة ومرجعيّته الدينيّة الرشيدة التحاماً كاملاً. واستطاع هكذا أن يحوّل الشعارات التي نادىٰ بها إلىٰ حقيقة. وما من مرّة غفل فيها هذا الشعب المجاهد عن هذه الحقيقة أو استغفل بشأنها إلّا وواجه الضياع والتآمر، فالمرجعيّة الدينيّة الرشيدة والقيادة الروحيّة هي الحصن الواقي من كثير من ألوان الضياع والانحراف.

ومن تلك الحقائق: أنّ القيادات الروحيّة كانت تقوم بدورها هذا وتنجزه إنجازاً جيّداً، بقدر ما يسودها من التلاحم والتعاضد والوقوف جنباً إلىٰ جنب. وما من مرّة استطاع الشعب الإيرانيّ المسلم أن يحقّق نصراً إلّا وكان للتلاحم والتعاضد المذكور دور كبير في إمكانيّة تحقيق هذا النصر.

ومن تلك الحقائق أيضاً: أنّ المبارزة الشريفة لكي تضمن وصولها إلىٰ هدفها الإسلاميّ لا بدّ أن تتوفّر في ظلّها نظرة تفصيليّة واعية وشاملة لرسالة الإسلام ومفاهيمها وتشريعاتها في مختلف مجالات الحياة الاجتماعيّة.

وبقدر ما تتوفّر من أساس فكريّ ورصيد عقائديّ للمبارزة ـ هذه النظرة التفصيليّة التي تميّز المعالم الفكريّة للهويّة النضاليّة ـ تكتسب المبارزة القدرة أكثر فأكثر علىٰ ممارسة التغيير، وتحقيق

أهدافها الإسلاميّة، وحماية شخصيّتها العقائديّة من تسلّل الآخرين.

وهكذا نرى أنّ المبارزة الشريفة التي تقود الشعب الإيرانيّ المسلم في كفاحه تدعو اليوم ـ أكثر من أيّ يوم مضى ـ بعد أن وصلت إلى هذه المرحلة الدقيقة من مسيرتها، واكتسبت ولاء الأُمّة ـ كلّ الأُمّة ـ على الساحة، أقول: إنّها مدعوّة اليوم ـ أكثر من أيّ يوم مضى ـ إلى أن تنظر بعين إلى الحاجات الفعليّة لمسيرتها، وتنظر بعين أُخرى إلى حاجاتها المستقبليّة، وذلك بأن تحدّد معالم النظرة التفصيليّة من الآن فيما يتّصل بأيديولوجيّتها ورسالتها الإسلاميّة الشريفة، وكما أنّها مرتبطة في النظرة الأُولى إلى الحاجات الفعليّة للمسيرة وتقييمها وتحديد خطواتها بالمرجعيّة الدينيّة المجاهدة كذلك لابدّ أن ترتبط بالنظرة الثانية ـ وفي تحديد معالم أيديولوجيّة إسلاميّة كاملة ـ بالمرجعيّة الدينيّة الرشيدة التي قادت كفاح هذا الشعب منذ سنين؛ لأنّ المرجعيّة هي المصدر الشرعيّ والطبيعيّ للتعرّف على الإسلام وأحكامه ومفاهيمه.

كما نرى ـ أيضاً ـ أنّ المبارزة الشريفة قد حقّقت مكسباً كبيراً حينما أفهمت العالم كلّه بخطأ ما كان يتصوّره البعض: من أنّ الإسلام لا يبرز للساحة إلّا كمبارز للماركسيّة، وليس من همّه بعد ذلك أن يبارز الطبقة الأُخرى، فإنّ هذا التصوّر كان يستغلّه البعض في سبيل إسباغ طابع التخلّف والتبعيّة على المبارزة الإسلاميّة، وقد تمزّق هذا التصوّر من خلال المبارزة الشريفة التي برزت على الساحة الإيرانيّة باسم الإسلام، وبقوّة الإسلام، وبقيادة المرجعيّة الدينيّة

الرشيدة؛ لتقاوم كياناً أبعد ما يكون عن الماركسيّة والماركسيّين.

وقد أثبت ذلك: أنّ الإسلام له رسالته وأصالته في المبارزة، وأنّ الإسلام الذي يقاوم الماركسيّة هو نفسه الإسلام الذي يقاوم كلّ ألوان الظلم والطغيان، وأنّ علىٰ المبارزة الشريفة ـ وقد آمن الشعب الإيرانيّ بقيادته الإسلاميّة ـ أن تكون علىٰ مستوىٰ هذه المرحلة، وأن تدرك بعمق ما يواجهها من عداء عظيم لتحقيق أهدافه الكبيرة في عمليّة التغيير؛ لأنّ بناء إيران إسلاميّاً ليس مجرّد تغيير في الشكل والأسماء، بل هو ـ إضافة إلىٰ ذلك ـ تطهير للمحتوىٰ من كلّ الجذور الفاسدة، وملء المضمون ملأً جديداً حيّاً تتدفّق فيه القيم القرآنيّة والإسلاميّة في مختلف مجالات الحياة.

ولاشكّ في أنّ البطولة الفريدة التي تحقّقت بها المبارزة في عمليّة مكافحة الواقع الفاسد وهدمه تؤكّد كفاءتها لإدراك هذه المسؤوليّات وعمقها الروحيّ والاجتماعيّ والتاريخيّ.

ونسأل المولى ـ سبحانه وتعالىٰ ـ أن يرعىٰ التضحيات العظيمة التي يقدّمها الشعب الإيرانيّ المجاهد بقيادة علمائه، ويجعل من الدماء الطاهرة التي أراقها السفّاكون علىٰ الساحة شموعاً تُضيء بالنور؛ لتخرج إيران من ظلمات الاستبداد والانحراف إلىٰ تطبيق الإسلام الشامل في كلّ مجالات الحياة.

وليست القافلة الأخيرة من الضحايا في مدينة (مشهد) المقدّسة إلّا حلقة جديدة من مجازر الطغاة.

تغمّد الله الشهداء بعظيم رحمته، وألحقهم بشهدائنا السابقين

والصدّيقين والصالحين، وحسن أُولئك رفيقاً، والعاقبة للمتّقين، وسيعلم الذين ظلموا أيّ منقلب ينقلبون[1].

محمّد باقر الصدر

الرسالة الثانية: وهي موجّهة بُعَيد الانتصار إلىٰ طلّابه الذين كانوا قد هاجروا إلىٰ إيران، وإليك نصّ الرسالة:

بسم الله الرحمن الرحيم

أولادي وأعزائي، حفظكم الله بعينه التي لاتنام.

السلام عليكم جميعاً ورحمة الله وبركاته.

أكتب إليكم في هذه اللحظات العظيمة التي حقّق فيها الإسلام نصراً حاسماً وفريداً في تأريخنا الحديث علىٰ يد الشعب الإيرانيّ المسلم، وبقيادة الإمام الخمينيّ دام ظلّه، وتعاضد سائر القوىٰ الخيّرة، والعلماء الأعلام، وإذا بالحلم يصبح حقيقة، وإذا بالأمل يتحقّق، وإذا بالأفكار تنطلق بركاناً علىٰ الظالمين؛ لتتجسّد، وتقيم دولة الحقّ والإسلام علىٰ الأرض، وإذا بالإسلام الذي حبسه الظالمون والمستعمرون في قُمقُم يكسر القمقم بسواعد إيرانيّة فتيّة لا ترهب الموت، ولم يثنِ عزيمتها إرهاب الطواغيت، ثُمَّ ينطلق من القمقم ليزلزل الأرض تحت أقدام كلّ الظالمين، ويبعث في نفوس المسلمين جميعاً ـ في مشارق الأرض ومغاربها ـ روحاً جديدة وأملاً جديداً.

---

(١) هذه الرسالة قرأها أُستاذنا الشهيد ﷺ في مكالمة هاتفيّة من النجف الأشرف إلىٰ بيت السيّد الإمام ـ دام ظلّه ـ في باريس.

إنّ الواجب علىٰ كلّ واحد منكم، وعلى كلّ فرد قدّر له حظّه السعيد أن يعيش في كنف هذه التجربة الإسلاميّة الرائدة: أن يبذل كلّ طاقاته وكلّ ما لديه من إمكانات وخدمات، ويضع ذلك كلّه في خدمة التجربة، فلاتوقّف في البذل، والبناءُ يشاد لأجل الإسلام، ولاحدّ للبذل، والقضيّةُ ترتفع رايتها بقوّة الإسلام، وعمليّة البناء الجديد بحاجة إلىٰ طاقات كلّ فرد مهما كانت ضئيلة.

ويجب أن يكون واضحاً أيضاً: أنّ مرجعيّة السيّد الخمينيّ ـ دام ظلّه ـ التي جسّدت آمال الإسلام في إيران اليوم لابدّ من الالتفاف حولها، والإخلاص لها، وحماية مصالحها، والذوبان في وجودها العظيم بقدر ذوبانها في هدفها العظيم، وليست المرجعيّة الصالحة شخصاً، وإنّما هي هدف وطريق، وكلّ مرجعيّة حقّقت ذلك الهدف والطريق فهي المرجعيّة الصالحة التي يجب العمل لها بكلّ إخلاص. والميدان المرجعيّ أو الساحة المرجعيّة في إيران يجب الابتعاد بها عن أيّ شيء من شأنه أن يضعف أو لايساهم في الحفاظ علىٰ المرجعيّة الرشيدة القائدة.

أخذ الله بيدكم، وأقرّ عيونكم بفرحة النصر، وحفظكم سنداً وذخراً. والسلام عليكم يا أحبّتي ورحمة الله وبركاته.

التوقيع: أبوكم

البرقيّة : وهي مرسلة إلىٰ الشعب العربيّ في إيران، حينما بدت بدايات المخالفة من قبل بعضهم للوضع الإسلاميّ القائم بقيادة السيّد

الإمام دام ظلّه. وإليك نصّ البرقيّة:

بسم الله الرحمن الرحيم

شعبنا العربيّ المسلم العزيز في إيران المجاهد، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

وبعد: فإنّي أُخاطبكم باسم الإسلام، وأدعوكم ـ وسائر شعوب إيران العظيمة ـ لتجسيد روح الأُخوّة الإسلاميّة التي ضربت في التأريخ مثلاً أعلىٰ في التعاضد والتلاحم في مجتمع المتقين الذي لافضل فيه لمسلم علىٰ مسلم إلّا بالتقوى، مجتمع عمّار بن ياسر، وسلمان الفارسيّ، وصهيب الروميّ، وبلال الحبشيّ، مجتمع القلوب العامرة بالفكر والإيمان، المتجاوزة كلّ حدود الأرض المفتوحة باسم السماء ورسالة السماء، فلتتوحّد القلوب، ولتنصهر كلّ الطاقات في إطار القيادة الحكيمة للإمام الخمينيّ دام ظلّه، وفي طريق بناء المجتمع الإسلاميّ العظيم الذي يحمل مشعل القرآن الكريم إلىٰ العالم كلّه. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

محمّد باقر الصدر

النجف الأشرف (١٦ رجب)

٤ ـ نداءاته الثلاثة إلىٰ الشعب العراقيّ المضطهد بصوته الشريف في ضمن شريط مسجّل، والتي أصدرها في أواخر حياته المباركة، وقد أُذيعت بصوته الشريف من إذاعة إيران بعد استشهاده، وإليك نصّها:

النداء الأوّل:

بسم الله الرحمن الرحيم

والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام علىٰ سيّدنا محمّد وعلىٰ آله الطاهرين وصحبه الميامين.

أيّها الشعب العراقيّ المسلم.

إنّي أُخاطبك أيّها الشعب الحرّ الأبيّ الكريم، وأنا أشدّ إيماناً بك، وبروحك الكبيرة، بتأريخك المجيد، وأكثرهم اعتزازاً بما طفحت به قلوب أبنائك البررة من مشاعر الحبّ والولاء والبنوّة للمرجعيّة؛ إذ تدفّقوا إلىٰ أبيهم يؤكّدون ولاءهم للإسلام، بنفوس ملؤها الغيرة والحميّة والتقوىٰ، يطلبون منّي أن أظلّ إلىٰ جانبهم أُواسيهم وأعيش آلامهم عن قرب؛ لأنّها آلامي.

وإنّي أودّ أن أُؤكّد لك ـ يا شعب آبائي وأجدادي ـ أنّي معك وفي أعماقك، ولن أتخلّى عنك في محنتك، وسأبذل آخر قطرة من دمي في سبيل الله من أجلك، وأودّ أن أُؤكّد للمسؤولين أنّ هذا الكبت الذي فرض بقوّة الحديد والنار علىٰ الشعب العراقيّ، فحرمه من أبسط حقوقه وحرّيّاته في ممارسة شعائره الدينيّة لايمكن أن يستمرّ، ولايمكن أن يعالج دائماً بالقوّة والقمع.

إنّ القوّة لو كانت علاجاً حاسماً دائماً، لبقي الفراعنة والجبابرة!

أسقطوا الأذان من الإذاعة فصبرنا!

وأسقطوا صلاة الجمعة من الإذاعة فصبرنا!

وطوّقوا شعائر الإمام الحسين عليه السلام، ومنعوا القسم الأعظم منها فصبرنا!

وحاصروا المساجد وملأوها أمناً وعيوناً فصبرنا!

وقاموا بحملات الإكراه على الانتماء إلىٰ حزبهم فصبرنا!

وقالوا: إنّها فترة انتقال يجب تجنيد الشعب فيها فصبرنا!

ولكن إلىٰ متى؟! إلىٰ متى تستمرّ فترة الانتقال؟! إذا كانت فترة عشرة سنين من الحكم لا تكفي لإيجاد الجوّ المناسب لكي يختار الشعب العراقيّ طريقه، فأيّ فترةٍ تنتظرون لذلك؟! وإذا كانت فترة عشرة سنين من الحكم المطلق لم تتح لكم ـ أيّها المسؤولون ـ إقناع الناس بالانتماء إلىٰ حزبكم إلّا عن طريق الإكراه فماذا تأملون؟! وإذا كانت السلطة تريد أن تعرف الوجه الحقيقيّ للشعب العراقيّ، فلتجمّد أجهزتها القمعيّة أُسبوعاً واحداً فقط، ولتسمح للناس بأن يعبّروا خلال أُسبوع عمّا يريدون. إنّي أُطالب باسمكم جميعاً، أُطالب بإطلاق حريّة الشعائر الدينيّة، وشعائر الإمام أبي عبدالله الحسين عليه السلام.

وأُطالب باسمكم جميعاً: بإعادة الأذان، وصلاة الجمعة، والشعائر الإسلاميّة إلىٰ الإذاعة.

وأُطالب باسمكم جميعاً: بإيقاف حملات الإكراه علىٰ الانتساب إلىٰ حزب البعث علىٰ كلّ المستويات.

وأُطالب باسم كرامة الإنسان: بالإفراج عن المعتقلين بصورة تعسفيّة، وإيقاف الاعتقال الكيفيّ الذي يجري بصورة منفصلة عن القضاء.

وأخيراً، أُطالب باسمكم جميعاً، وباسم القيم التي تمثّلونها: بفسح المجال للشعب؛ ليمارس بصورة حقيقيّة حقّه في تسيير شؤون البلاد، وذلك عن طريق إجراء انتخاب حرّ ينبثق عنه مجلس يمثّل الأُمّة تمثيلاً صادقاً.

وإنّي أعلم أنّ هذه الطلبات سوف تكلّفني غالياً، وقد تكلّفني حياتي، ولكنّ هذه الطلبات ليست طلب فرد ليموت بموته، وإنّما هذه الطلبات هي مشاعر أُمّة وإرادة أُمّة، ولا يمكن أن تموت أُمّة تعيش في أعماقها روح محمّد وعليّ، والصفوة من آل محمّد وأصحابه. وإذا لم تستجب السلطة لهذه الطلبات، فإنّي أدعو أبناء الشعب العراقيّ الأبيّ إلىٰ المواصلة في حمل هذه الطلبات مهما كلّفه ذلك من ثمن؛ لأنّ هذا دفاع عن النفس، وعن الكرامة، وعن الإسلام رسالة الله الخالدة. والله وليّ التوفيق.

محمّد باقر الصدر

(٢٠ رجب ١٣٩٩ هـ)

النداء الثاني:

بسم الله الرحمن الرحيم

والحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام علىٰ سيّدنا محمّد وعلى آله الطاهرين وصحبه الميامين.

يا شعبي العراقيّ العزيز.

يا جماهير العراق المسلمة التي غضبت لدينها وكرامتها،

ولحريّتها وعزّتها، ولكلِّ ما آمنت به من قيم ومثل، أيّها الشعب العظيم.

إنّك تتعرّض اليوم لمحنة هائلة علىٰ يد السفّاكين والجزّارين الذين هالهم غضب الشعب وتململ الجماهير، بعد أن قيّدوها بسلاسل من الحديد ومن الرعب والإرهاب، وخيّل للسفّاكين أنّهم بذلك انتزعوا من الجماهير شعورها بالعزّة والكرامة، وجرّدوها من صلتها بعقيدتها وبدينها وبمحمّدها العظيم؛ لكي يحولّوا هذه الملايين الشجاعة المؤمنة من أبناء العراق الأبيّ إلىٰ دُمىً وآلاتٍ يحرّكونها كيف يشاؤون، ويزقّونها ولاء (عفلق) وأمثاله من عملاء التبشير والاستعمار، بدلاً عن ولاء محمّد وعليّ صلوات الله عليهما.

ولكنّ الجماهير دائماً هي أقوىٰ من الطغاة مهما تفرعَنَ الطغاة، وقد تصبر ولكنّها لا تستسلم، وهكذا فوجئ الطغاة بأن الشعب لايزال ينبض بالحياة، ولاتزال لديه القدرة علىٰ أن يقول كلمته، وهذا هو الذي جعلهم يبادرون إلىٰ القيام بهذه الحملات الهائلة علىٰ عشرات الآلاف من المؤمنين والشرفاء من أبناء هذا البلد الكريم، حملات السجن والاعتقال والتعذيب والإعدام، وفي طليعتهم العلماء المجاهدون الذين يبلغني أنّهم يستشهدون الواحد بعد الآخر تحت سياط التعذيب!

وإنّي في الوقت الذي أدرك فيه عمق هذه المحنة التي تمرّ بك يا شعبي ـ يا شعب آبائي وأجدادي ـ أُؤمن بأنّ استشهاد هؤلاء العلماء، واستشهاد خيرة شبابك الطاهرين وأبنائك الغيارىٰ تحت

سياط العفالقة لن يزيدك إلّا صموداً وتصميماً علىٰ المضيّ في هذا الطريق حتّى الشهادة أو النصر!

وأنا أُعلن لكم ـ يا أبنائي ـ أنّي صمّمت علىٰ الشهادة، ولعلّ هذا آخر ما تسمعونه منّي، وأنّ أبواب الجنّة قد فتحت؛ لتستقبل قوافل الشهداء حتّى يكتب الله لكم النصر، وما ألذّ الشهادة التي قال عنها رسول الله ﷺ: «إنّها حسنة لاتضرّ معها سيئة». والشهيد بشهادته يغسل كلّ ذنوبه مهما بلغت.

فعلى كلّ مسلم في العراق وعلىٰ كلّ عراقيّ في خارج العراق: أن يعمل كلّ ما بوسعه ـ ولو كلّفه ذلك حياته ـ من أجل إدامة الجهاد والنضال؛ لإزالة هذا الكابوس عن صدر العراق الحبيب، وتحريره من العصابة اللاإنسانيّة، وتوفير حكم صالح فذّ شريف يقوم علىٰ أساس الإسلام. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

محمّدباقر الصّدر

(١٠ شعبان)

النداء الثالث:

بسم الله الرحمن الرحيم

والحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام علىٰ محمّد وعلى آله وصحبه الميامين.

يا شعبي العراقيّ العزيز.

أيّها الشعب العظيم.

إنّي أُخاطبك في هذه اللحظة العصيبة من محنتك وحياتك الجهاديّة بكلِّ فئاتك وطوائفك: بعربك، وأكرادك، بسنّتك، وشيعتك؛ لأنّ المحنة لاتخصّ مذهباً دون آخر، ولاقوميّة دون أُخرىٰ، وكما أنّ المحنة هي محنة كلّ الشعب العراقيّ فيجب أن يكون الموقف الجهاديّ والردّ البطوليّ والتلاحم النضاليّ هو واقع كلّ الشعب العراقيّ.

وإنّي منذ عرفت وجودي ومسؤوليّتي في هذه الأُمّة بذلت هذا الوجود من أجل الشيعيّ والسنيّ علىٰ السواء، ومن أجل العربيّ والكرديّ علىٰ السواء، حيث دافعت عن الرسالة التي توحّدهم جميعاً، وعن العقيدة التي تضمّهم جميعاً، ولم أعِش بفكري وكياني إلّا للإسلام، طريق الخلاص وهدف الجميع.

فأنا معك يا أخي وولدي السُنّيّ بقدر ما أنا معك يا أخي وولدي الشيعيّ، أنا معكما بقدر ما أنتما مع الإسلام، وبقدر ما تحملون من هذا المشعل العظيم؛ لإنقاذ العراق من كابوس التسلّط والذلّ والاضطهاد.

إنّ الطاغوت وأولياءه يحاولون أن يُوحوا إلىٰ أبنائنا البررة من السنّة: أنّ المسألة مسألة شيعة وسنّة؛ ليفصلوا السنّة عن معركتهم الحقيقيّة ضدّ العدوّ المشترك.

وأُريد أن أقولها لكم يا أبناء عليّ والحسين، وأبناء أبي بكر وعمر: إنّ المعركة ليست بين الشيعة والحكم السنّيّ.

إنّ الحكم السنّيّ الذي مثّله الخلفاء الراشدون، والذي كان يقوم

علىٰ أساس الإسلام والعدل، حمل علي السيف للدفاع عنه؛ إذ حارب جنديّاً في حروب الردّة تحت لواء الخليفة الأوّل (أبي بكر)، وكلّنا نحارب عن راية الإسلام، وتحت راية الإسلام مهما كان لونها المذهبيّ.

إنّ الحكم السنّيّ الذي كان يحمل راية الإسلام قد أفتى علماء الشيعة قبل نصف قرن بوجوب الجهاد من أجله، وخرج مئات الآلاف من الشيعة، وبذلوا دمهم رخيصاً من أجل الحفاظ علىٰ راية الإسلام، ومن أجل حماية الحكم السنّيّ الذي كان يقوم علىٰ أساس الإسلام.

إنّ الحكم الواقع اليوم ليس حكماً سنّيّاً، وإن كانت الفئة المتسلّطة تنتسب تأريخيّاً إلىٰ التسنّن.

إنّ الحكم السنّيّ لايعني حكم شخص ولد من أبوين سنّيّين، بل يعني حكم أبي بكر وعمر الذي تحدّاه طواغيت الحكم في العراق اليوم في كلّ تصرّفاتهم، فهم ينتهكون حرمة الإسلام وحرمة عليّ وعمر معاً في كلّ يوم وفي كلّ خطوة من خطواتهم الإجراميّة.

أ لاترون ـ يا أولادي وإخواني ـ أنّهم أسقطوا الشعائر الدينيّة التي دافع عنها عليّ وعمر معاً؟!

أ لاترون أنّهم ملأوا البلاد بالخمور، وحقول الخنازير، وكلّ وسائل المجون والفساد التي حاربها عليّ وعمر معاً؟! أ لاترون أنّهم يمارسون أشدّ ألوان الظلم والطغيان تجاه كلّ فئات الشعب؟! ويزدادون يوماً بعد يوم حقداً علىٰ الشعب، وتفنّناً في امتهان كرامته

والانفصال عنه، والاعتصام ضدّه في مقاصيرهم المحاطة بقوىٰ الأمن والمخابرات، بينما كان عليّ وعمر يعيشان مع الناس وللناس وفي وسط الناس ومع آلامهم وآمالهم.

أ لاترون إلىٰ احتكار هؤلاء للسلطة احتكاراً عشائريّاً، يسبغون عليه طابع الحزب زوراً وبهتاناً؟! وسدّ هؤلاء أبواب التقدّم أمام كلّ جماهير الشعب سوىٰ أُولئك الذين رضوا لأنفسهم بالذلّ والخنوع، وباعوا كرامتهم، وتحوّلوا إلىٰ عبيد أذلّاء.

إنّ هؤلاء المتسلّطين قد امتهنوا حتّى كرامة حزب البعث العربيّ الاشتراكيّ، حيث عملوا من أجل تحويله من حزب عقائديّ إلىٰ عصابة، تطلب الانضمام إليها والانتساب لها بالقوّة والإكراه، وإلّا فأيّ حزب حقيقيّ يحترم نفسه في العالم يفرض الانتساب إليه بالقوّة؟!

إنّهم أحسّوا بالخوف حتّى من الحزب العربيّ الاشتراكيّ نفسه الذي يدّعون تمثيله! أحسّوا بالخوف منه إذا بقي حزباً حقيقيّاً له قواعده التي تبنيه، ولهذا أرادوا أن يهدموا قواعده؛ لتحويله إلىٰ تجميع يقوم علىٰ أساس الإكراه والتعذيب؛ ليفقد أيّ مضمون حقيقيّ له.

يا إخواني وأبنائي من أبناء الموصل والبصرة... من أبناء بغداد وكربلاء والنجف... من أبناء سامرّاء والكاظميّة... من أبناء العمارة والكوت والسليمانيّة... من أبناء العراق في كلّ مكان، إنّي أُعاهدكم بأنيّ لكم جميعاً، ومن أجلكم جميعاً، وإنّكم جميعاً هدفي في الحاضر والمستقبل... فلتتوحّد كلمتكم، ولتتلاحم صفوفكم تحت

راية الإسلام، ومن أجل إنقاذ العراق من كابوس هذه الفئة المتسلّطة، وبناء عراق حرّ كريم، تغمره عدالة الإسلام، وتسوده كرامة الإنسان، ويشعر فيه المواطنون جميعاً ـ علىٰ اختلاف قوميّاتهم ومذاهبهم ـ بأنّهم إخوة، يساهمون جميعاً في قيادة بلدهم، وبناء وطنهم، وتحقيق مُثُلهم الإسلاميّة العليا، المستمدّة من رسالتنا الإسلاميّة وفجر تأريخنا العظيم. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

النجف الأشرف

محمّد باقر الصدر

هذا كلُّه بعض ما يؤشّر ـ في أواخر حياة أُستاذنا الشهيد ـ إلىٰ أنّه لو كانت تستمرّ حياته المباركة، لكانت تتكرّر تجربة إيران الإسلام علىٰ يديه في العراق.

لا أقول: إنّ سلطة العراق الكافرة والاستكبار العالميّ اطّلعا علىٰ كلّ هذه النقاط وغيرها، لكنّي أقول: إنّهما اطّلعا حتماً علىٰ القدر الكافي ممّا يشير إلىٰ هذه النتيجة، إذن فاغتياله حذراً من تكرّر تجربة إيران الإسلام كان أمراً طبيعيّاً جدّاً للاستكبار العالميّ وللسلطة المحلّيّة.

ولنترك أخيراً الحديث للشيخ محمّدرضا النعمانيّ ـ حفظه الله ـ كي يكمّل لنا قِصّة الاستشهاد؛ ذلك لأنّ الشيخ النعمانيّ هو التلميذ الوحيد الذي عاش في بيت الأُستاذ الشهيد في أيّام احتجازه في البيت، التي اتّصلت باستشهاده رضوان الله عليه، فلنقتطع هنا للقارئين مقاطعَ من نصّ كلامه مع تغيير يسير.

بعض مواقفه الإيمانيّة :

قال حفظه الله:

«قبل أن أبدأ بالحديث عن المواقف المبدئيّة والأصليّة لمفجّر الثورة الإسلاميّة في العراق سيّدنا الشهيد الصدر ﷺ أودّ أن أبدأ ببعض الجوانب التي مازالت تعيش في نفسي وفي وجداني حتّى هذه اللحظة:

إخوتي الأعزّاء، حين كان السيّد الشهيد ـ رضوان الله عليه ـ حيّاً كنت أسمع ـ وهو كان يسمع ـ اتّهاماً بأنّه إنسان عاطفيّ أكثر من اللازم، خاصّةً وإنّ ظواهر الأُمور كانت تدلّ على ذلك، ولكن لاأحد يعرف سرّ وأساس عاطفة السيّد الشهيد ﷺ، إلّا أُولئك الذين عاشوا معه، وواكبوه في السرّاء والضرّاء.

إنّني من خلال تماسّي المباشر بالسيّد الشهيد طيلة سنين طويلة أدركت أنّ الجانب العاطفيّ في حياة السيّد الشهيد جانب ظاهر وبارز، ولكن لنا أن نسأل: ما هو الأساس الذي يقوم عليه هذا الجانب من حياة السيّد الشهيد؟ هل هو مجرّد دافع غريزيّ فطريّ، أو هو قائم على أساس دافعٍ إلهيّ، وتكون العاطفة عاطفةً من أجل الله سبحانه وتعالى، ومن أجلِ هذا الدين العظيم الذي ضحّى من أجله؟

لدينا أرقام تثبت أنّ الصحيح هو الثاني. وهنا أودّ أن أُشير إلى بعض النماذج:

حينما صدر حكم الإعدام على الشهداء الخمسة: المرحوم الشيخ عارف البصريّ وصحبه ـ رضوان الله عليهم ـ دخلت ذات يوم في

حدود الساعة الثالثة ظهراً إلىٰ مكتبة السيّد الشهيدﷺ، فوجدته في المكتبة يبكي بكاءً شديداً، فقلت له: سيّدي ومولاي، إن كنت أنت هكذا تصنع إذن فماذا يجب أن أصنع أنا؟! حينئذٍ كفكفﷺ دموعه، وقال لي: يا ابني واللهِ لو أنّ البعثيّين خيّروني بين إعدام خمسة من أولادي وبين إعدام هؤلاء، لاخترت إعدام أولادي، وضحيّت بهم؛ لأنّ الإسلام اليوم يحتاجهم (يعني: الشيخ عارف وصحبه).

هذه العاطفة ليست عاطفة غريزيّة من سنخ العواطف المتعارفة، هذه عاطفة كعاطفة أمير المؤمنينعليه السلام، فهو يقتل المئات في ساحات الوغىٰ ثُمَّ في نفس الوقت يجلس إلىٰ جانب طفل يتيم يمسح رأسه ويبكي.

الموقف الثاني الذي مازال في نفسي: حينما وصل إلينا خبر إعدام السيّد الشهيد قاسم شبّر والسيّد قاسم المبرقع، وحينما سمع السيّد الشهيد خلال فترة الاحتجاز بإعدام هؤلاء الشهداء الأبرار مع العشرات من خيرة أبناء العراق قبض السيّد الشهيدﷺ علىٰ شيبته الكريمة، ورفع رأسه إلىٰ السماء، وقال: إلهي بحقّ أجدادي الطاهرين ألحقني بهم.

الشيء الذي أعجزُ عن نقله ـ أيّها الإخوة ـ حالة السيّد ووضعه حينما قبض لحيته الكريمة، والدموع تجري من عينيه، وهو ينادي ربّه بقلبٍ صافٍ: إلهي، بحقّ أجدادي الطاهرين ألحقني بهم. وكانت الدعوة مستجابة، فلم تمضِ أشهر قليلة إلّا وقد استشهد، رضوان الله عليه.

موقف آخر في يومٍ من الأيّام ـ في فترة الاحتجاز ـ وفي حدود

الساعة الثانية والنصف ظهراً كنت نائماً في مكتبته، إذ انتبهتُ من النوم علىٰ صوت السيّدﷺ، وهو يقول: لا حول ولا قوّة إلّا بالله العليّ العظيم، إنّا لله وإنّا إليه راجعون. فظننتُ أنّ حدثاً جديداً قد حدث، فقلت له: سيّدنا خيراً إن شاء الله؟ فقال:

كنت أنظر إلىٰ هؤلاء الأمن ـ الذين كانوا يطوّقون منزل السيّد الشهيد ويحتجزونه ـ فرأيتهم عطاشى، والعرق يتصبّب من جباههم، فتألّمت عليهم، ووددت لو كان بوسعنا سقيهم. فقلت: سيّدي، هؤلاء المجرمون حجزونا، وروّعوا عائلتكم وأطفالكم، فقال: ابني صحيح هذا الذي تقول، ولكنّ هؤلاء ـ أيضاً ـ يجب أن نرقّ عليهم؛ لأنّ هؤلاء إنّما انحرفوا إمّا لأنّ ظروفهم لم تكن مساعدة، أو لأنّهم لم يحصلوا علىٰ تربية صالحة، ولم يعيشوا في بيئة سليمة، ولو خُلّوا وطبعهم، أو وجدوا البيئة المناسبة والصالحة، لكانوا من المؤمنين والمتديّنين.

بهذه الروح الكريمة ينظر السيّد الشهيد إلىٰ أعدائه، فهو سليل جدّه الحسينﷺ الذي جاد بما لديه من ماءٍ علىٰ الجيش الذي قتله فيما بعد. وهكذا فعل السيّد الشهيدﷺ؛ إذ سقاهم بواسطة خادمه (الحاجّ عبّاس) ماءً بارداً شربوه، وهم يحتجزونه.

وكأنّ حالة الصفاء الموجودة لدىٰ السيّد والمتركّزة في أعماقه أثّرت ـ في فترة الاحتجاز لا شعوريّاً ـ بهؤلاء الذين يحتجزونه من حيث لا يعلمون؛ إذ إنّ بعضهم أُعدموا بسبب مواقف شجاعة وجريئة أقدموا عليها من أجل السيّد الشهيد.

لقد علمت بخبر إعدام بعضهم، وكنت أعرف أسماءهم؛ إذ كنت أسمع ما يجري بينهم من خلال النافذة، وبعض الوسائل الأُخرىٰ، فتعرّفت بجلّهم، وعندئذٍ أخبرت السيّدﷺ بأنّ فلاناً أعدموه، وفلاناً أعدموه، فذكّرني بالقِصّة السابقة، وقال: يجب أن تحمل في قلبك الرحمة لكلّ مسلم، فهذه هي رسالتنا.

ومن المواقف التي مازالت تؤثّر في نفسي، ولن أنساها: هو أنّه بعد مضيّ مدّةٍ من الحجز قامت السلطة العميلة بقطع الماء والكهرباء والتلفون، ومنعت دخول وخروج أيّ إنسان إلىٰ بيت السيّد حتّى خادم السيّد، وكانت هناك كمّيّة من المواد الغذائيّة موجودة في دار السيّد، وهي كمّيّة قليلة نفدت خلال مدّة قصيرة، ولم يبقَ عندنا إلّا صندوق من الخبز اليابس التالف، فبدأت عائلة السيّد ترتّب هذا الخبز اليابس كطعام شعبيّ (يعرفه العراقيّون بالمثرودة)، وبقينا مدّةً علىٰ هذا الحال، وفي يوم من الأيّام كنت بخدمة السيّد الشهيد ظهراً نتغدّىٰ في ساحة البرّانيّ، لاحظ السيّد الشهيد في وجهي التأثّر والتألّم؛ إذ كان يعزّ عليّ أن أرىٰ هذا الرجل العظيم علىٰ هذه الحال! فقال لي: والله إنّ ألذّ طعام ذقته في حياتي هو هذا، قلت: كيف؟! قال: لأنّه في سبيل الله ومن أجل الله.

موقف آخر من المواقف العظيمة: حينما بدأ الاحتجاز، وبعد شهر رمضان المبارك اتّصل هاتفيّاً مدير أمن النجف المجرم (أبو سعد)، وطلب الاجتماع بالسيّد، وكان قد عاد قبل أيّام من لندن وبعض العواصم الأوروبيّة، لمّا دخل إلىٰ منزل السيّد دخل خاسئاً ذليلاً،

وهو يحمل مشروعاً لفكّ الحجز، فقال في جملة ما قال: سيّدنا، إنّ هؤلاء العراقيّين الذين في لندن وفي أُوروبّا قلبوا الدنيا علينا لأجلك، نحن ماذا صنعنا بك؟! إنّهم نشروا صورك في كلّ مكان، ورفعوا لافتات ضدّنا، وأصدروا مناشير ضدّنا، نحن ماذا فعلنا حتّى يواجهونا بهذا الشكل؟!

وكنت أنا في مكانٍ ما أسمع ما يجري بينهما، وبعد أن انتهى اللقاء قال لي السيّد الشهيد: أسمعت؟ فقلت: نعم، فرفع رأسه إلىٰ السماء ـ وهو يقبض لحيته الكريمة بيده والدموع تجري من عينيه ـ ونادىٰ العراقيّين بقوله: «بأبي أنتم لقد نصرتم الإسلام، ونصرتم القرآن!»، وظلّ يردّد: «بأبي أنتم».

هذا الموقف من العراقيّين المقيمين في خارج العراق أثّر في نفس السيّد الشهيد تأثيراً كبيراً؛ لأنّه أثبت للسلطة: أنّ المرجعيّة قوّة ممتدّة إلىٰ كلّ مكان، وأنّ الأُمّة واعية ومدركة، بخلاف ما كانت تظنّه السلطة.

وهكذا كان أمل السيّد من العراقيّين جميعاً. وكان أحد أهمّ الدوافع التي جعلت السيّد ﷺ يصرّ علىٰ اختيار الاستشهاد ـ رغم الإمكانات التي كانت متاحة لإنقاذه من مخالب السلطة ـ أنّه كان يعتقد أنّ العراقيّين سيثأرون لدمه، ولن يقبلوا بأقلّ من إسقاط الحكم التكريتيّ العميل وإقامة حكومة إسلاميّة، وقد كنت أسمع السيّد الشهيد ﷺ يكرّر قوله: «إن لم يُرَقْ دمي أستبعد أن يسقط هذا الحكم». وكان أمله في كلّ واحد منّا أن نكون بمستوىٰ آمال السيّد

وبمستوىٰ كلمته «بأبي أنتم».

هل لبّينا هذه الدعوة؟!

وهل حقّقنا للسيّد ما كان يرجوه من دمه؟! وهل نحن حقّاً بمستوىٰ أن يخاطبنا المرجع المظلوم بقوله: «بأبي أنتم»؟!

موقف آخر: وصلت إلينا في يوم من أيّام الحجز رسالة من بعض النجفيّين غير المعروفين بالتديّن، كان فيها عشرة أو خمسة عشر ديناراً، والرسالة مكتوبة بلغة شعبيّة وبسيطة، فيها ألوان التهجّم علىٰ السلطة، وفيها الولاء والمحبّة للسيّد الشهيد، ثُمَّ تقول الرسالة ما معناه: «سيّدنا، نحن لانصلّي ولانصوم، لكنّا نراك مظلوماً، وهؤلاء البعثيّون ظلموك، وقد جمعنا هذا المال البسيط نرجو منك قبوله؛ لأنّك محجوز، وتحتاج إلىٰ المال، ونحن ـ إن شاء الله ـ نأتي غداً في الساعة الثالثة بعد الظهر لنقتل هؤلاء المجرمين ـ الأمن ـ الذين يحتجزونك»!

بعض هؤلاء الأشخاص الموقّعين علىٰ الرسالة كنت أعرفهم معرفة إجماليّة، فلمّا سألني السيّد عنهم أخبرته بوضعهم، فشككنا أن تكون هذه محاولة من السلطة للتعرّف إن كان هناك صلة للسيّد بالخارج أو لا، ولكن كان المحكّ ما في الرسالة من وعدٍ لقتل أفراد الأمن غداً بعد الظهر.

وقبل الموعد بربع ساعة تقريباً صعدت مع السيّد إلىٰ الغرفة المطلّ شبّاكها علىٰ الزقاق الذي تتواجد فيه قوّات الأمن، وبقينا ننتظر.

في الوقت المحدّد رأينا ثلاثة أشخاص ملثّمين اقتحموا هذه المجموعة، وثلاثة آخرين اقتحموا المجموعة الأُخرىٰ من الجانب الآخر، وبدؤوا معركة فريدة، سقط فيها عدد من أفراد الأمن جرحى، ولعلّ بعضهم قد مات فيما بعد، ثُمَّ لاذوا بالفرار، ولم يتمكّنوا من القبض عليهم.

السيّد الشهيد استأنس لمّا رأىٰ ذلك، وقال: «الإسلام يحنّ حتّى إلىٰ هؤلاء». وكان﵀ يعتقد أنّ دمه الزكيّ لو أُريق فإنّه سوف يحرّك حتّى هذه الطبقة من الناس فضلاً عن الواعين والمؤمنين.

موقف آخر: كان بعض المؤمنين يرسلون إلىٰ السيّد في فترة الاحتجاز بعض المبالغ، فكان﵀ يرفض استلامها علىٰ رغم حاجته إليها، فقلت له في مرّةٍ من المرّات: سيّدنا، لماذا ترفض المال ونحن في الحجز، وهذا الحجز قد يطول؟! فقال لي: «إنّ والدي السيّد حيدر﵀ (وكان والده من علماء مدينة الكاظميّة) في الليلة التي توفّي فيها ما ترك لنا ما نقتات به، فبقيت تلك الليلة مع والدتي وأخي المرحوم السيّد إسماعيل وأُختي آمنة من دون طعام العشاء؛ إذ لم يكن عندنا ما نشتري به شيئاً نأكله، وأنا الآن ليس بيني وبين أن ألقى ربّي إلّا أن يأتي هؤلاء الظَّلَمة ويقتلوني، وأنتقل إلىٰ جوار أجدادي الطاهرين، فلمن أدّخر المال؟!

هذه هي عاطفة السيّد ـ أيّها الإخوة ـ التي أساسها الدافع الإلهيّ، والتقرّب إليه، والسعي إلىٰ رضاه.

القيادة النائبة:

والسيّد الشهيد﵀ حينما بدأ التحرّك بقصد الإطاحة بحكم الطاغوت وإعلاء كلمة الله، اعتقد أنّه هو بنفسه لن يوفّق لتحقيق الهدف في حياته؛ لأنّه يعرف صدّاماً وطبيعته الإجراميّة، ويعرف النظام الحاكم وقساوته؛ ولذلك فقد وضع مخطّطاً لاستمرار وإنجاح الثورة ـ وإن كان لم يوفّق لتنفيذه ـ بعد استشهاده: وهو ما أسماه بـ(القيادة النائبة). وعلىٰ أيّة حال، فتخطيطه لاستمرار الثورة وكذلك تخطيطه لأُسلوب الشهادة كان علىٰ هذا النحو:

قرّر السيّد الشهيد﵀ تشكيل القيادة النائبة التي كان من المفروض أن تقود الثورة في حالة فراغ الساحة من نفسه الزكيّة، وكان تصوّر السيّد الشهيد الأوّليّ لفكرة القيادة النائبة كالتالي:

أوّلاً: يقوم السيّد الشهيد بانتخاب عدد محدود من أصحاب الكفاءة واللياقة ينيط بهم مسؤوليّة قيادة الثورة بعد استشهاده.

ثانياً: يضع السيّد الشهيد قائمة بأسماء مجموعة أُخرىٰ من العلماء والقياديّين الرساليّين، ويكون للقيادة النائبة التي انتخبها السيّد الشهيد اختيارُ أيّ واحد منهم حسب ما تقتضيه المصلحة؛ ليكون عضواً في القيادة، كما أنّ للقيادة اختيارَ أيّ عنصر آخر لم يرد اسمه في هذه القائمة؛ لينضمّ إليها، وذلك علىٰ حسب متطلّبات وحاجة الثورة.

ثالثاً: يصدّر السيّد الشهيد عدّة بياناتٍ بخطّه، وتسجّل ـ أيضاً ـ بصوته يطلب فيها من الشعب العراقيّ الالتفاف حول القيادة النائبة

وامتثال أوامرها وتوجيهاتها.

رابعاً: يطلب من الإمام القائد السيّد الخمينيّ ـ دام ظلّه ـ دعم القيادة، بعد أن يوصيه بهم.

خامساً: في المرحلة الأخيرة يقوم السيّد الشهيد بإلقاء خطاب في الصحن الشريف بين صلاتي المغرب والعشاء يعلن فيه عن تشكيل القيادة النائبة، ويعلن أسماء أعضائها، ويطلب من الجماهير مساندتها ودعمها. وقد أمرني السيّد الشهيد بشراء مسدّس؛ ليستفيد منه في حالة منع الأمن له من الخروج إلىٰ الصحن الشريف، وكان يقول: «وسوف أستمرّ في خطابي حتّى تضطرّ السلطة إلىٰ قتلي في الصحن؛ لأجعل من هذا الحادث بداية عمل القيادة النائبة».

وكان يقول: «ليس كلّ الناس يحرّكهم الفكر، بل هناك من لايحرّكه إلّا الدم»، يعني: أنّه ـ لاشكّ ولاريب ـ لو أنّ الآلاف من أبناء العراق يرون السيّد الشهيد ـ بهذا الوجه المشرق بالإيمان والنور ـ صريعاً في صحن جدّه، والدماء تنزف من بدنه الشريف، فسوف يتأثّرون بالمستوىٰ المطلوب الذي يتوقّعه السيّد.

وظلّ السيّد الشهيد يفكّر ويخطّط في الوسائل الكفيلة بانجاح مشروع القيادة النائبة، ولم أرَه طيلة فترة الحجز اهتمّ بأمرٍ كاهتمامه بمشروع القيادة النائبة، فقد كان يعلّق عليه الآمال، ويرىٰ فيه الحلّ للمشاكل التي قد تواجه الثورة في مسيرتها نحو تحقيق حكم الله في الأرض، وذلك بعد فراغ الساحة منه بعد استشهاده، رضوان الله عليه.

ولكن «ما كلّ ما يتمنّى المرء يدركه»، فلأسباب خارجة عن

إرادة شهيدنا العظيم لم يقدّر لمشروع القيادة النائبة أن يرىٰ النور. ولاحول ولاقوّة إلّا بالله العليّ العظيم.

المفاوضات التي أُجريت معه :

أمّا المفاوضات التي أُجريت مع السيّد خلال فترة الاحتجاز، فقد حدثت لقاءات عديدة مع السيّد خلال تلك الفترة، كان أوّلها: اللقاء الذي حدث بين السيّد وبين المجرم (أبي سعد) مدير أمن النجف، قال له المجرم متناسياً كلّ ما صدر منهم من اعتداءات علىٰ السيّد: نحن ماذا صنعنا كي تتعامل معنا هكذا؟! فقال له السيّد: ما الذي صار؟ فقال المجرم: إنّ حادثة (رجب) كانت ثورة ناجحة لو لاحزم القيادة السياسيّة (يعني: لولاالعنف والإرهاب والاضطهاد التي مُورست بحقّ أبناء العراق البررة الذين جاؤوا يبايعون السيّد الشهيد علىٰ الولاء والثورة، فلولاالإجراءات القمعيّة التي اتُّخذت بحقّ هؤلاء، لكانت ثورة ناجحة). قال له السيّد: «أنتم ضغطتم علىٰ حرّيّة الناس، ومنعتموهم عن التعبير عن آرائهم وولائهم للمرجعيّة، فجاؤوا إلىٰ هنا؛ ليعبّروا عن بعض ما في نفوسهم فما هو ذنبي؟!».

ثُمَّ طلب المجرم من السيّد أن يفتح باب البيت، ويعود إلىٰ وضعه الطبيعيّ، ويستقبل كلّ من يأتي لزيارته، فرفض السيّد ذلك[1].

ثُمَّ استمرّ مسلسل المفاوضات إلىٰ الفترة التي سبقت استشهاد

---

(١) كأنّما كان هذا مصيدة؛ لمعرفة من تبقّى من المخلصين.

السيّدﷺ بأُسبوع.

إنّني ـ والله ـ طيلة فترة الاحتجاز كنت أرىٰ السيّد الشهيدﷺ يتفانىٰ من أجل الإسلام، ومن أجل المسلمين، ومن أجل العراقيّين المؤمنين المجاهدين، ولم أره يفكّر بنفسه ومصيره، وما سوف يعاني قبل الإعدام من تعذيب وحشيّ في غرف وأقبية الأمن العامّ.

تفاني السيّد الشهيد تفانٍ عظيمٌ، وإخلاصه إخلاص عظيم، والشيء الذي أودّ أن أقوله: هو أنّه مهما فعلنا ومهما قمنا وأدّينا من أعمال جهاديّة ضدّ السلطة الظالمة كوفاء للسيّد الشهيد، لا يفي ذلك بجزء يسير من حقّه علينا؛ لأنّ السيّد الشهيد تعذّب واستشهد من أجلنا، وإلّا فإنّه كان بإمكانه أن يجنّب نفسه كلّ المشاقّ والصعاب والآلام التي تحمّلها، ويعيش كأيّ مرجع آخر، ويجنّب نفسه الاستشهاد وهو في هذا العمر.

قِصّة استشهادهﷺ :

أمّا استشهادهﷺ فكان مروّعاً ومؤثّراً، فقد جاء مدير أمن النجف ظهراً ومن دون علم سابق، وقال للسيّدﷺ : إنّ المسؤولين يودّون اللّقاء بك في بغداد. فقال السيّد: «إن كانت زيارة فلا أذهب، وإن كان اعتقالاً فاعتقلني». فقال مدير الأمن: «سيّدنا اعتقال». فأخذ السيّد الشهيد وهو في كامل الاطمئنان بالاستشهاد ولقاء الله تعالىٰ وأجداده الطاهرين؛ إذ كان ـ رضوان الله عليه ـ قد رأىٰ رؤياً بعد انتهاء المفاوضات مع الشيخ الخاقانيّ: كأنّ أخاه المرحوم السيّد

إسماعيل الصدر، وخاله آية الله المرحوم الشيخ مرتضى آل ياسين، كلّ واحد منهما جالس علىٰ كرسيّ، وقد جعلوا كرسيّاً في الوسط للسيّدﷺ وملايين الناس من البشر ينتظرونه، فقال ليﷺ بعد أن قصّ عليّ هذه الرؤيا: أنا أُبشّر نفسي بالشهادة! وفعلاً في نفس الأُسبوع استشهد، رضوان الله عليه.

بعد يوم من اعتقال السيّدﷺ جاء أحد ضبّاط الأمن إلىٰ بيت السيّد، وقال: «إنّ السيّد يريد أُختة العلويّة بنت الهدىٰ». وهذه المرأة المظلومة ـ التي مازالت مواقفها وبطولاتها وصمودها وحياتها الحافلة بالجهاد مجهولةً ـ ذهبت وكأنّها أسد في شجاعتها وثباتها وتماسكها غير مبالية بشيء!

بعد اعتقال بنت الهدىٰ بيوم جاؤوا إلىٰ المرحوم الحجّة السيّد محمّد صادق الصدر، وأروه جثمان السيّد الشهيد، وتمّ الدفن بحضوره، وقد شاهد آثار التعذيب في رأسه الشريف، ولم يسمحوا له برؤية بدنه الشريف. واللهُ يعلم بما قد فعلوا ببدنه الطاهر.

هذا الدم الطاهر الزكيّ هو في الواقع أمانة في أعناقنا، فالسيّد الشهيد حينما كان يقول لنا: يا أبنائي، كان يقولها من قلب صادق، وشعور حقيقيّ، يرانا أبناءً له، فإذا لم نثأر لهذا الدم الطاهر، ونتنازل عن كلّ شيء من أجله، فمن ذا الذي يثأر له؟! وينتقم من ظالميه؟! ويقرّ عين محمّدﷺ وعليّ والزهراء والحسن والحسينعليهم السلام؟! إنّ السيّد الشهيد من هذه الذرّيّة الطاهرة، ومن هذه الشجرة المباركة، فليس من المعقول أن نسكت علىٰ دمه الذي هو كدم الحسينعليه السلام،

ونفس المظلوميّة التي أصابت الحسين سيّد الشهداء أصابت الشهيد والمرجع المظلوم السيّد الصدر، رضوان الله عليه».

انتهى ما أردت نقله من نصّ كلام الشيخ النعمانيّ ـ حفظه الله ـ بتغيير يسير.

ولقد أثكل المسلمون في كلّ أنحاء العالم باستشهاده، وسادت مظاهر العزاء والحداد والتظاهرات والإضرابات ومجالس التأبين كلّ أرجاء العالم الإسلاميّ. وقد رثاه الشعراء بقصائد رائعة، ومن أروعها ما أنشأه المرحوم السيّد الدكتور داود العطّار، والتي مطلعها:

باقِرَ الصدرِ منّا سلاما ... أيُّ باغٍ سقاكَ الحِماما

أنتَ أيقظتنا كيف تغفو ... أنت أقسمت أن لَن تناما

والقصيدة معروفة.

وأبّنه العلماء الأعلام والمراجع العظام، وعلىٰ رأسهم: آية الله العظمىٰ، مفجّر الثورة الإسلاميّة في إيران، وقائد المسيرة الإسلاميّة في العالم، سماحة الإمام روح الله الموسويّ الخمينيّ ـ دام ظله ـ الذي قال في تأبينه ما كانت ترجمته باللّغة العربية كالتالي:

بسم الله الرحمن الرحيم

إنّا لله وإنّا إليه راجعون!

تبيّن ـ ببالغ الأسف ـ من خلال تقرير السيّد وزير الشؤون الخارجيّة، والذي تمّ التوصّل إليه عن طريق مصادر متعدّدة وجهات مختصّة في الدول الإسلاميّة، وحسب ما ذكرته التقارير الواردة من مصادر أُخرىٰ: أنّ المرحوم آية الله الشهيد السيّد محمّد باقر الصدر

وشقيقته المكرّمة المظلومة، والتي كانت من أساتذة العلم والأخلاق ومفاخر العلم والأدب، قد نالا درجة الشهادة الرفيعة على أيدي النظام البعثيّ العراقيّ المنحطّ، وذلك بصورة مفجعة!

فالشهادة تراث ناله أمثال هذه الشخصيات العظيمة من أوليائهم، والجريمة والظلم ـ أيضاً ـ تراث ناله أمثال هؤلاء ـ جناة التأريخ ـ من أسلافهم الظلمة.

فلا عجب لشهادة هؤلاء العظماء الذين أمضوا عمراً من الجهاد في سبيل الأهداف الإسلاميّة على أيدي أشخاص جناة قضوا حياتهم بامتصاص الدماء والظلم، وإنّما العجب هو أن يموت مجاهدو طريق الحقّ في الفراش دون أن يلطّخ الظلمة الجناة أيديهم الخبيثة بدمائهم!

ولاعجب أن ينال الشهادة المرحوم الصدر وشقيقته المظلومة، وإنّما العجب أن تمرّ الشعوب الإسلاميّة، وخاصّة الشعب العراقيّ النبيل، وعشائر دجلة والفرات، وشباب الجامعات الغيارى، وغيرهم من الشبّان الأعزّاء في العراق على هذه المصائب الكبرى التي تحلّ بالإسلام وأهل بيت رسول الله ﷺ دون أن تأبه لذلك، وتفسح المجال لحزب البعث اللّعين؛ لكي يقتل مفاخرهم ظلماً الواحد تلو الآخر.

والأعجب من ذلك هو أن يكون الجيش العراقيّ وسائر القوى النظاميّة آلة بيد هؤلاء المجرمين، يساعدونهم على هدم الإسلام والقرآن الكريم.

إنّني يائس من كبار القادة العسكريّين، ولكنّني لست يائساً من الضبّاط والمراتب والجنود، وما أتوخّاه منهم هو: إمّا أن يثوروا أبطالاً، وينقضّوا على أساس الظلم كما حدث في إيران، وإمّا أن يفرّوا من معسكراتهم وثكناتهم، وألّا يتحمّلوا عار مظالم حزب البعث.

فأنا غير يائس من العمّال وموظّفي حكومة البعث المغتصبة، وآمل أن يضعوا أيديهم بأيدي الشعب العراقيّ، وأن يزيلوا هذا العار عن بلاد العراق.

أرجوه تعالىٰ أن يطوي بساط ظلم هؤلاء الجناة.

وها أنا أُعلن الحداد العامّ مدّة ثلاثة أيّام اعتباراً من يوم الأربعاء الثالث من شهر (أُرديبهشت) الثالث والعشرين من نيسان، كما أُعلن يوم الخميس عطلةً عامّة، وذلك تكريماً لهذه الشخصيّة العلميّة، ولهذا المجاهد الذي كان من مفاخر الحوزات العلميّة، ومن مراجع الدين، ومفكّري المسلمين.

وأرجو الخالق تعالىٰ أن يعوّضنا عن هذه الخسارة الكبرىٰ والعظيمة علىٰ الإسلام والمسلمين. والسلام علىٰ عباد الله الصالحين.

(الثاني من شهر أُرديبهشت سنة ١٣٥٩)

روح الله الموسويّ الخمينيّ

هذا كلّ ما أردت تسجيله هنا من ترجمة مختصرة عن حياة شهيدنا الغالي آية الله العظمىٰ، مفجّر الثورة الإسلاميّة في العراق، السيّد محمّد باقر الصدر، تغمّده الله برحمته.

وأقول: إنّها ترجمة مختصرة؛ لأنّ حياته الشريفة علىٰ رغم قصرها ـ حيث لم يكمل ﷺ السابعة والأربعين من عمره ـ زاخرة ببحر من العطاء والجهاد والفداء والتضحيات، وليست هذه الترجمة عدا اغتراف غرفة من هذا البحر، وبإمكانك أيّها القارئ الكريم أن تطّلع ـ بمطالعة الكتب الأُخرىٰ التي كتبت عنه ﷺ وباستنطاق سائر طلّابه وغيرهم ممّن أدركوه وعاشروه ـ علىٰ معلومات أُخرىٰ كثيرة عن حياته المباركة التي كانت كلّها وقفاً لخدمة الدين والعلم، ومازالت ثمرات مشاريعه القيّمة تدرّ علىٰ المسلمين بالخيرات والبركات، فهو علىٰ رغم اغتيال الاستكبار العالميّ له سيبقى خالداً مدىٰ الأعوام والدهور من خلال عطاءاته التي لاتنتهي، ومعين علمه وجهاده الذي لاينضب.

ولقد صدق المرحوم الدكتور السيّد داود العطّار ﷺ إذ قال:

يا أبا جعفرٍ سوف تبقىٰ   مشعلاً هادياً يتسامىٰ
كَذِبَ البعثُ ما زلتَ فينا   كالخمينيِّ تَهدي الأناما

فسلام الله عليه يوم ولد ويوم استُشهد ويوم يُبعث حيّاً.

تلميذه الصغير كاظم الحسينيّ الحائريّ

(٢٠ / شعبان المعظّم / ١٤٠٦ هـ)

الفهرس

كلمة المكتب ٥
مقدّمة بقلم المؤلّف ٩

الأُسرة الكريمة العريقة
(١١ ـ ٣٦)

١ ـ السيّد صدرالدين ١٤
مؤلّفات السيّد صدرالدين ١٧
مشايخه ١٨
طلّابه ١٩
٢ ـ السيّد إسماعيل الصدر ١٩
سيرته وأخلاقه ٢٣
أساتذته ٢٥
طلّابه ٢٥
أولاده ٢٨
٣ ـ السيّد حيدر الصدر ٢٨
وفاته ٣١
مؤلّفاته ٣١
أولاده ٣٢
والدة الشهيد الصدر رحمة الله عليها ٣٤

آية الله العظمىٰ الشهيد السيّد محمّدباقر الصدر قدس سره
(٣٧ ـ ٥٤)

ذكريات عن حياة شهيدنا الصدر قدس سره
(٥٥ ـ ٧٠)

المقام العلميّ الشامخ لأُستاذنا الشهيد قدس سره
(٧١ ـ ٨٤)

مؤلّفاته قدس سره
(٨٥ ـ ٩١)

رعايته قدس سره لمشاريع إسلاميّة
(٩٣ ـ ١٠٤)
١ ـ مدرسة العلوم الإسلاميّة ٩٥
٢ ـ جماعة العلماء في النجف الأشرف ٩٥
٣ ـ كلّية أُصول الدين ١٠٣

طلّابه قدس سره
(١٠٥ ـ ١١٣)

الأخلاق الفاضلة لأُستاذنا الشهيد قدس سره
(١١٥ ـ ١١٧)
أولاده ١١٨

استراتيجيّته ﷺ السياسيّة في العمل الإسلاميّ
(١١٩ ـ ١٤٤)

العمل المرحليّ لحزب الدعوة ١٢٥
المرجعيّة الصالحة والمرجعيّة الموضوعيّة ١٢٧
أهداف المرجعيّة الصالحة ١٢٨
تطوير أُسلوب المرجعيّة ١٣٠
مراحل المرجعيّة الصالحة ١٣٥
الحوزة العلميّة والتحزّب ١٤٠
أساس الحكم ١٤٣

اعتقالاته ﷺ
(١٤٥ ـ ١٩٥)

الاعتقال الأوّل ١٤٧
الاعتقال الثاني ١٥٠
الاعتقال الثالث ١٥٤
توجّس السلطة وخوفها ١٥٤
لماذا ركّزت السلطة مراقبتها للسيّد الشهيد ﷺ؟ ١٥٩
برقيّة الإمام ١٦٤
الموقف التأريخيّ المشرّف للعراقيّين ١٦٤
وقفة مع الوفود ١٦٥
تقييم السيّد الشهيد ﷺ للوفود ١٦٨
موقف السلطة ١٦٩
اعتقال وكلاء السيّد الشهيد ﷺ ١٧١
جواب السيّد الشهيد ﷺ عن برقيّة الإمام ١٧٢

اعتقال السيّد الشهيد قدس سره ١٧٤
قرار المواجهة المباشرة ١٧٥
الاعتقال ١٧٧
بنت الهدىٰ تهزم الجموع ١٧٨
الشهيدة قرّرت الاستشهاد ١٧٩
الشهيدة تثير الجماهير ١٨٠
المواجهة المسلّحة ١٨٤
لماذا أُفرج عن شهيدنا الغالي؟ ١٨٥
كيف بدأ الاحتجاز؟ ١٨٨
التخطيط لمحاولة اغتيال السيّد الصدر قدس سره ١٩٢
الإبلاغ الرسميّ بالاحتجاز ١٩٣
الاعتقال الرابع ١٩٥

استشهاده رضوان الله تعالىٰ عليه
(١٩٧ ـ ٢٣٣)

النداء الأوّل ٢٠٩
النداء الثاني ٢١١
النداء الثالث ٢١٣
بعض مواقفه الإيمانيّة ٢١٨
القيادة النائبة ٢٢٥
المفاوضات التي أُجريت معه ٢٢٧
قِصّة استشهاده قدس سره ٢٢٨

الفهرس ٢٣٥

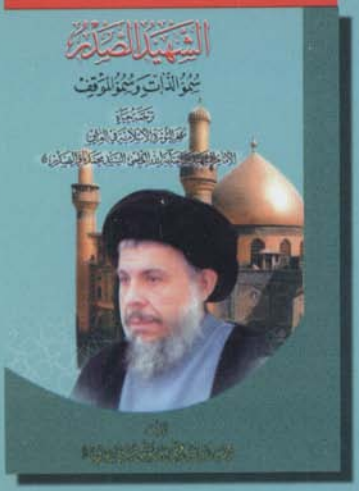

مكتب المرجع الديني آية الله العظمى السيّد كاظم الحسيني الحائري

الجمهورية الاسلامية في ايران - قم المقدّسة - شارع إرم
نهاية فرع أرك - الرقم ٢٨٣-٢٨٥

التليفون: ٧٧٣٠٨١٧ - ٧٧٤١١٣٨ الفاكس: ٧٧٤٢٨٩٥

الموقع على الانترنيت: WWW.alhaeri.org

Emaill: alhaeri@alhaeri.org